محمّد الماغوط

سأخون وطني

هذيان في الرّعب والحرّيّة



سأخون وطني

هذيان في الرعب والحرية

أعمال

محمد الماغوط

Author :Muhammed Al-Magut
Title :I will betray my country
Al- Mada P.C.
First Edition : 1987
Third Edition : 2001
Fourth Edition : 2004

اسم المؤلف : محمد الماغوط
عنوان الكتاب : سأخون وطني
الناشر : المدى
الطبعة الاولى : ١٩٨٧
الطبعة الثالثة : ٢٠٠١
الطبعة الرابعة : ٢٠٠٤

دار المدى للثقافة والنشر

سورية - دمشق ص. ب.: ٨٢٧٢ او٧٣٦٦ -تلفون: ٢٣٢٢٢٧٥ -٢٣٢٢٢٧٦-فاكس: ٢٣٢٢٢٨٩

Al Mada Publishing Company F.K.A. - Damascus - Syria
P.O.Box . : 8272 or 7366 .-Tel: 2322275 - 2322276 , Fax: 2322289
www.almadahouse.com E-mail:al-madahouse@net.sy

لبنان - بيروت-الحمراء-شارع ليون -بناية منصور-الطابق الأول - تلفاكس: ٧٥٢٦١٦-٧٥٢٦١٧
E-mail:al-madahouse@idm.net.lb

العراق - بغداد- أبو نواس- محلة ١٠٢- زقاق ١٣-بناء ١٤١
مؤسسة المدى للإعلام والثقافة والفنون - جانب فندق السفير
تلفون: ٧١٧٠٢٩٥-٧١٧٠٥١٣ فاكس: ٧١٧٥٩٤٣
almadapaper.com
almada112@yahoo.com almada119@hotmail.com

محمد الماغوط

سأخون وطني

هذيان في الرعب والحرية



محتويات الكتاب

مقدمة

سيخون وطناً مزوّراً

محمد الماغوط أديبٌ طريفٌ ، مثير للعجب ، فهو قبل أن يخون ، يؤلّف كتاباً يكرّسه للإنذار بأنه يعتزم أن يخون وطنه وفي زمان تتم فيه أفعال الخيانة سراً .

فأيُّ وطنٍ هو ذلك الذي سيخونه وعلناً وبفخر؟

الأوطان نوعان . . أوطان مزوّرة وأوطان حقيقية .

الأوطان المزوّرة أوطان الطغاة ، والأوطان الحقيقية أوطان الناس الأحرار .

أوطان الطغاة لا تمنح الناس سوى القهر والذل والفاقة . ومدنها وقراها لها صفات القبور والسجون ، ولذا فإن الولاء لأوطان الطغاة خيانة للإنسان ، بينما عصيانها والتمرد عليها إخلاص للإنسان وحقه في حياة آمنة يسودها الفرح وتخلو من الظلم والهوان ، لاسيما أن الولادة في أي وطن هي أوهى جذر يربط الإنسان بوطنه ، ولن يقوى ذلك الجذر وينمو ويكبر إلا بما يعطيه الوطن من حرية وعدل .

لقد كان محمد الماغوط دائماً يظن أنه رجل القضايا الخاسرة والمخفقة ، ولكن الوقوف مع الناس إبان محنهم لم يكن في أي يوم من

الأيام قضية خاسرة ، إنما هو امتحان عسير للأديب خاصة أن الكتابة في وطن الطغاة أقل أماناً من النوم مع الأفاعي في فراش واحد .

في هذا الكتاب الأسود ، الجميل ، الممتع ، المؤلم ، الساخر ، المرح ، ينجح محمد الماغوط في الجمع على أرض واحدة بين الليل والنهار ، بين الأمل واليأس ، بين مرارة الهزائم وغضب العاجز ، ليقدم صورةً لما يعانيه الإنسان العربي من بلاء من سياسيّيه ، ومثقفيه ، وجنده ، وشرطته ، وأجهزة إعلامه ، مكثفاً ذلك البلاء الكثير الوجوه في بلاء واحد هو فقدان الحرية .

والحرية حتى في مملكة الحيوان تُحمى بالمخالب والأنياب ، وتُهرق الدماء في سبيل الحفاظ عليها ، أما في مملكة بني البشر فالحرية مبرر الوجود والاستمرار ، وإذا فُقدت غدت الحياة الوجه الثاني للموت .

ومحمد الماغوط الذي عاش نصف قرن وثلاث سنوات ، وعرف ما على القمة وما في الهاوية ، ولايزال حياً ، يرصد في هذا الكتاب تجربته القاسية المُرّة مع الحياة في الوطن العربي . . ولكنها ليست تجربته وحده بل هي تجربة جيل بأسره ، جيل مسكين خُدع منذ الصغر بالشعارات السياسية والفكرية البرّاقة ، ولم يكتشف أنه مخدوع إلا وهو يدق أبواب الشيخوخة بقبضات واهنة ، فعلم آنذاك أنه قد أضاع أجمل سني عمره هباءً . وإذ هو لم يشيد مدناً سعيدة للإنسان إنما شيّد سجوناً سُجن فيها ، وصنع سياطاً عُذّب بها ، وأوجد مشانق تدلّى منها .

هذا الكتاب شهادةٌ فاجعةٌ صادقةٌ على مرحلة مظلمة من حياة العرب في العصر الحديث ، وتصلُح لأن تُرفع إلى محكمة الأحفاد كوثيقة تدحض أي اتهام بالتقصير والاستكانة يوجّه إلى الأجداد ، فالعنق الأعزل لا يستطيع الانتصار على سكاكين المفترسين .

والكتاب أيضاً يعزز الثقة بالكلمة في زمان الكذب والرياء ، ويُعيد إليها بعض بهائها المفقود .

زكريا تامر
لندن ، آيار (مايو) ١٩٨٧

أنين في محبرة

الذين لا يتحدثون الا عن الأدب الجاد والمسرح الجاد والخبز الجاد والويسكي الجاد والأفلام الجادة والمواعيد الجادة هم في الحقيقة أكبر مهرجين في الساحة الأدبية ولا ينقصهم الا دلال عقاري جاد يقنع زياد مولوي بالتخلي لهم نهائياً عن مسرح الخيام . .

فالمسرحية الجادة من وجهة نظرهم هي التي ما إن تبدأ حتى يبحث المشاهد عن أقرب مخرج للنجاة ولو من المدخنة .

والفيلم الجاد هو أن تحجز في السينما مقعدا وفي دير الصليب سريرا .

والرسم الجاد هو الذي تحتاج كل لوحة منه الى شرطي سير ليشرح للمتفرجين بعصاه وصفارته أين تبدأ الخطوط وأين تنتهي .

والراقصة الجادة هي التي لا تهز خصرها أمام الجمهور الا وهي متأبطة مؤلفات روجيه غارودي من جهة ورواية "الياطر" من جهة أخرى .

والغرام الجاد هو أن ينتحي العاشقان ركنا بعيدا عن ضوضاء الناس ومتاعب الحياة . . . ويتهامسان تحت ضوء القمر ، عن الرقابة التموينية والثغرات في قانون الاصلاح الزراعي .

والسباحة الجادة هي ان يلبس المثقف مايوهاً رصينا ، ويستلقي

على ظهره في حوض السباحة ويطالع مجلة الموقف الأدبي ، أو جريدة اللوموند .

والمطرب الجاد والملتزم بقوت شعبه وثقافة مواطنيه هو الذي لا يغني كعبد الوهاب "سهرت منه الليالي "أو "ياما بنيت قصر الأماني" بل يغني "تثقفت منه الليالي" و"ياما بنيت فرن الأماني" .

هؤلاء الجادون المتجهمون ، الذين يعتقدون بأن أفضل طريقة لدعم العمل الفدائي وتحرير الأرض المحتلة وبناء الصناعات الثقيلة وتطوير مناهج التربية المدرسية هي أن يظلوا مقطبين من المهد الى اللحد ، وألاّ يدعوا أحدا يرى أسنانهم الجادة الا في المناسبات الكبرى .

هؤلاء ، لا أكتب لهم ، ولا أقرأ .

اكتب للآخرين ، للانقياء أكثر من المطر قبل أن يلامس الأرصفة .

لمن لا يعرفون اذا كانت "اللوموند" تصدر في باريس أو في أبو ظبي .

للذين يولدون ويموتون من دون أن يغادر أحدهم قريته ، أو يتخلى عن أصدقائه ، أو يغير نوع تبغه ، أو يبدل طريقة استلقائه على عشب البيادر أو بلاط السجون .

للعامل الذي ينهي فطوره على ظهر دراجته .

والخادمة الغبية التي تغطي وسادتها بدموعها كلما اسرت أميرة في مسلسل اذاعي ولا تهنأ بنوم حتى يفرج عنها في الحلقة المقبلة لتعود الى قصرها ووصيفاتها وهي الى سطلها وممسحتها .

اكتب للفلاح الذي يتبارك بالمطر وينتشي بالبرق ويطرب للرعد . . ولا شيء يضيء وجهه في ظلمات الشيخوخة سوى عقب لفافته .

للذين يموتون ويولدون وهم يقتعدون أرصفة قصر العدل وردهات

الدوائر العقارية والكراجات العمومية من دون أن يقابلوا أحدا غير ظلالهم على الأرصفة .

أكتبُ للمطر . . للحب . . للحرية . . للربيع . . للخريف .

أكتبُ لأعيش .

* * *

العرّاف

ما هذا؟

أمة بكاملها تحل الكلمات المتقاطعة وتتابع المباريات الرياضية ، أو تمثيلية السهرة ، والبنادق الاسرائيلية مصوبة الى جبينها وارضها وكرامتها وبترولها .

كيف اوقظها من سباتها ، وأقنعها بأن أحلام اسرائيل اطول من حدودها بكثير ، وان ظهورها امام الرأي العام العالمي بهذا المظهر الفاتيكاني المسالم لا يعني ان جنوب لبنان هو نهاية المطاف؟

فهي لو أعطيت اليوم جنوب لبنان طوعا واختيارا لطالبت غدا بشمال لبنان لحماية أمنها في جنوب لبنان .

ولو أعطيت كل لبنان لطالبت بتركيا لحماية أمنها في لبنان .

ولو أعطيت تركيا لطالبت ببلغاريا لحماية أمنها في تركيا .

ولو أعطيت أوروبا الشرقية لطالبت بأوروبا الغربية لحماية أمنها في أوروبا الشرقية .

ولو أعطيت القطب الشمالي لطالبت بالقطب الجنوبي لحماية أمنها في القطب الشمالي .

* * *

وملأت حقائبي بالخرائط والمستندات والرسوم التوضيحية ويممت

شطر الوطن العربي أجوب أرجاءه مدينة مدينة وبيتا بيتا .

وحدثتهم كمؤرخ عن نوايا اسرائيل العدوانية وأطماعها التاريخية في أرضنا وأنهارنا ومياه شربنا . وعرضت عليهم كطوبوغرافي الوثائق والمستندات السرية والعلنية وباللغات العربية والانكليزية والتركية . . . ولكن ، لا أحد يبالي .

ثم تحدثت اليهم كفنان ، وعرضت أمامهم أشهر اللوحات التشكيلية والرسوم الكاريكاتورية التي تصور اسرائيل كمخلب قط للاستعمار ، كرأس جسر للامبريالية ، كأفعى تلتف ، كعقرب يلسع ، كحوت ، كتنين ، كدراكولا ، كريا وسكينة . . تقتل وتفتك وتتآمر . . . ولا أحد يبالي .

ثم تحدثت اليهم كخبير طاقة . وحذرتهم من أن منابع النفط هي الهدف التالي لاسرائيل . واننا ، كعرب ، قد نعود الى عصر الحطب في المضارب ، ونفخ النار بالشفتين وطرف الجلباب . . . ولا أحد يبالي .

ثم تحدثت اليهم كطبيب ، عن تسميم الطلاب والطالبات في الضفة الغربية ، والجثث المفخخة في مجازر صبرا وشاتيلا . وعن التنكيل المستمر بأهلنا في الأراضي المحتلة ، ومصادرة البيوت ، وطرد السكان ، وتحديد الاقامة ، ومنع السفر ، ومنع العودة ، واغلاق المدارس ، وتغيير المجالس البلدية ، وقمع المظاهرات ، واطلاق غاز الاعصاب ، والقنابل المسيلة للدموع ، المسيلة للتخلف . . ولا أحد يبالي .

ثم تحدثت اليهم كأب ، ونبهتهم الى أن كل مدرسة في الوطن العربي قد تصبح مدرسة بحر البقر ، وكل كاتب أو شاعر قد يصبح كمال ناصر أو غسان كنفاني . وكل رئيس بلدية أو دائرة حكومية قد يعود الى بيته على عكازين كبسام الشكعة وكريم خلف . . . ولا أحد يبالي .

ثم تحدثت الى الفلاحين كفلاح . والى العمال كعامل . والى التجار كتاجر . والى اليمينيين كيميني . والى اليساريين كيساري . والى المزايدين كمزايد . والى المعتدلين كمعتدل . والى العجائز كعجوز . والى الأطفال كطفل . . . وقلت لهم ان اتفاق شولتز مثله مثل اتفاقيات كامب دايفيد واتفاق سيناء وكل الاتفاقات التي تمت من وراء ظهوركم . فهو مصوغ بدقة متناهية كابتسامة الجوكندا بحيث لا احد يعرف اذا كان يبتسم لنا ام يسخر منا . ولذلك فان دولا عربية متخاصمة لم يكن يتصور أحد انها يمكن ان تتصالح . . قد تصالحت بسببه . وان دولا أخرى صديقة لم يكن يتصور احد انها قد تختلف ، قد اختلفت بسببه . . ولكن للتحركات السياسية حدودا . وللجهود الدولية معايير لا يمكن الاخلال بها . وان مؤتمر الشعب العربي الدائم وقضيته المركزية فلسطين لا يستطيع ان يستمر في عقد جلساته الطارئة الى ما لا نهاية ما لم يلقَ استجابة من هنا أو دعما من هناك .

وان المقاومة الوطنية في لبنان مهما كانت باسلة ، لا تستطيع وحدها القضاء عليه ما لم تعمم هذه التجربة في كل بلد عربي .

وقصصت عليهم احسن القصص عن البطولة والفداء . والروعة في ان يكون الانسان ثائرا من أجل وطنه ، ينصب الكمائن ويطارد الاعداء في شعاب الجبال . وفي فترات الاستراحة يضم بندقيته الى صدره ويقرأ على ضوء القمر الرسائل الواردة اليه من الوطن ، اذ في كل صفحة خصلة شعر من خطيبة ، او ورقة ورد يابسة من حبيب .

وقرأت عليهم بنبرة مؤثرة وغاضبة اجمل قصائد المقاومة والنضال ، لناظم حكمت ولوركا وهوشي منه ومحمود درويش وسميح القاسم . . . ولا أحد يبالي .

الكل ينظر اليّ تلك النظرة الحزينة المنكسرة كغصن وينصرف متنهدا الى عمله .

ماذا أفعل أكثر من ذلك لأثير نَخْوتهم وغضبهم ومخاوفهم؟

هل أضع على وجهي قناعا يمثل سنّي بيغن الأماميتين المشؤومتين؟ أم أضع عصابة سوداء على عينيّ مثل موشي دايان ، واقفز حول أسِرَّة الأطفال في ظلام الليل؟

هل أعرض في الساحات العامة صورا شعاعية لما يعتمر في صدر شارون وبيريز وارينز وايتان وغيرهم من ضغينة وحقد على هذه الأمة وما يبيتون لها ولشعوبها من قهر وذل وجوع ودمار؟

هل فقدت الشعوب العربية احساسها بالأرض والحرية والكرامة والانتماء الى هذه الدرجة؟

ام ان الارهاب العربي قد قهرها وجوّعها وروّعها وشرّدها سلفا اكثر بكثير مما فعلته وما قد تفعله اسرائيل في المستقبل؟

* * *

طوق الحمامة

هل يمكن يا حبيبتي أن يقتلني هؤلاء العرب اذا عرفوا في يوم من الأيام أنني لا أحب الا الشعر والموسيقا ، ولا اتأمل الا القمر والغيوم الهاربة في كل اتجاه .

أو أنني كلما استمعت الى السيمفونية التاسعة لبتهوفن اخرج حافيا الى الطرقات وأعانق المارة ودموع الفرح تفيض من عيني .

أو أنني كلما قرأت "المركب السكران" لرامبو ، اندفع لألقي بكل ما على مائدتي من طعام ، وما في خزانتي من ثياب ، وما في جيوبي من نقود وأوراق ثبوتية من النافذة .

نعم فكل شيء ممكن ومحتمل ومتوقع من المحيط الى الخليج ، بل منذ رأيتهم يغدقون الرصاص بلا حساب بين عيني غزال متوسل ادركت انهم لا يتورعون عن أي شيء .

ولكن من أين لهم ان يعرفوا عني مثل هذه الأهواء ، وأنا منذ الخمسينيات لا أحب الشعر أو الموسيقا أو السحب أو القمر أو الوطن أو الحرية الا متلصصا آخر الليل ، وبعد أن اغلق الأبواب والنوافذ واتأكد من أن كل المسؤولين العرب من المحيط الى الخليج قد أووا الى أسرتهم وأخلدوا للنوم .

ولكن اذا صدف وعرفوا ذلك بطريقة أو بأخرى فأكدي لهم يا حبيبتي بأن كل ما سمعوه عني بهذا الخصوص هو محض افتراء واشاعات مغرضة ، وانني لا أسمع الا نشرات الاخبار ، ولا اقرأ الا البلاغات الرسمية .

ولا أركض في الشوارع الا للحاق بمركب التطور .

وانني اقتنع دائماً بما لا يقنع وأصدق ما لا يصدق ، ولا اعتبر نفسي اكثر من قدمين على رصيف أو رصيف تحت قدمين .

واذا ما سألوك : أين اذهب احيانا عند المساء فقولي لهم : أنني أعطي دروسا خصوصية في الوطن العربي في توعية اليائسين والمضللين .

واذا ما بدوتُ يائسا في بعض الأحيان ، فأكدي لهم انه يأس ايجابي ، واذا ما أقدمت على الانتحار قريبا فلكي ترتفع روحي المعنوية الى السماء .

وانني لا اعتبر ان هناك خطرا على الانسان العربي والوطن العربي سوى اسرائيل ، وتلك الحفنة من المثقفين والمنظّرين العرب الذين ما فتئوا منذ سنين يحاولون اقناعنا في المقاهي والبارات والندوات والمؤتمرات بأن معركتنا مع العدو هي معركة حضارية وكأنهم ينتظرون من قادته وجنرالاته ان يجلسوا صفا واحدا على كراسيهم الهزازة على الحدود مقابل صف من الكتاب والشعراء والفنانين العرب ليبارزوهم قصيدة بقصيدة ومسرحية بمسرحية ولوحة بلوحة وسمفونية بسمفونية وأغنية بأغنية ومسلسلا بمسلسل .

لا يا حبيبتي ، اركبي أول طائرة واجتمعي بكل من يعنيهم هذا الأمر في الوطن العربي ، وحذريهم من الوقوع في مثل هذا الشرك ، أو

مثل هذه الدوامة . فصراعنا مع العدو واضح كل الوضوح في مقولة عبد الناصر الشهيرة : "ما أخذ بالقوة لا يسترد الا بالقوة" . والصراع المحتدم الآن بين اكبر دولتين في العالم وأكثرهما غنى بالشعراء والكتاب والفنانين ، الا وهما روسيا وامريكا حول سباق التسلح الا الدليل القاطع على صحة هذه المقولة .

ولذلك ، فأنا ككل عربي ، مستضعف ومستهدف من جميع الجهات ، أتابع هذا السباق باهتمام بالغ ، وأتابع بالاهتمام نفسه كل ما يطرأ على عالم الأسلحة من تطور في الشكل والمضمون والفعالية . وان كان لا يزال للدبابة بالنسبة لي ولجيل الخمسينيات برمته مكانة خاصة في نفوسنا ولا نستطيع بمجرد ان ظهرت اسلحة جديدة أكثر رشاقة وفعالية منها ان ننساها بكل هذه البساطة ، فبيننا وبينها عِشْرة عمر .

واذا كانت الدول الأقل غنى منا قد وفرت لكل مواطن دبابة واحدة على الأقل . فحريّ بنا نحن العرب ، وقد وهبنا الله تلك الثروات والموارد التي لا تنضب ، أن يصبح لكل مواطن عربي في المستقبل لا دبابة واحدة بل خمس دبابات على الأقل :

واحدة الى يمينه .

وواحدة الى يساره .

وواحدة أمامه .

وواحدة وراءه .

وواحدة فوقه . وبذلك يرتاح ويريح .

* * *

المبتدأ والخبر

بعد أن أتى الجراد السياسي في الوطن العربي على الحاضر والمستقبل ، يبدو أنه الآن قد التفت الى الماضي ، وذلك حتى لا يجد الانسان العربي ما يسند ظهره اليه في مواجهة الأخطار المحيطة به سوى مسند الكرسي الذي يجلس عليه ، بدليل هذا الحنو المفاجىء على لغتنا العربية ، وهذه المناحة اليومية في معظم صحف واذاعات المنطقة ، على ما أصاب قواعدها من تخريب وما يتعرض له صرفها ونحوها من عبث واستهتار ، حتى لم يعد احدنا يعرف كيف يقرأ رسالة أو يدوّن رقم هاتف .

ومع احترامنا لكل حرف في لغتنا ، ومع تقديرنا لجميع ظروف الزمان والمكان في كل جملة ومرحلة في الوطن العربي لابد ان نسأل :

ما الفائدة من الاسم اذا كان "صحيحاً" . . . والوطن نفسه معتلا؟

أو اذا كانت هذه الجملة أو تلك مبنية على الضم أو الفتح . . والمستوطنات الاسرائيلية مبنية امام أعيننا على جثث التلاميذ والمدرسين الفلسطينيين .

ثم ، لم وجدت اللغة أصلا في تاريخ أي أمة؟ أليس من أجل

الحوار والتفاهم بين افرادها وجماعاتها؟

فأين مثل هذا الحوار الآن فيما بيننا؟

هل هناك حوار مثلا بين التاجر والزبون؟

بين العامل ورب العمل؟

بين المالك والمستأجر؟

بين الراكب والسائق؟

بين المحقق والمتهم؟

بين الابن والاب؟

أو بين الزوج والزوجة؟

أيضا لم تعد هناك حاجة لأن تسأل عن أي شيء ، أو تجيب على أي شيء . فالأسعار ، مثلا في السينما ، مكتوبة في كل بطاقة ، وفي المستشفى ، فوق كل سرير ، وفي المطعم ، في كل فاتورة ، وكل ما حول المواطن العربي أصبح سعره واضحا ومعروفا ومكتوبا على جميع جوانبه ، من الألبسة والأحذية والفاكهة والخضراوات والبيوت والبارات والمزارع والعقارات الى الرياضيين والمطربين والكتاب والصحفيين . ولم يبق الا ان يُكتب على الشعوب سعرها ومنشؤها ومدى صلاحيتها للاستعمال .

والأهم من كل هذا وذاك : هل هناك حوار بين السلطة والشعب في أي زمان ومكان في هذا الشرق؟

فأي مسؤول انكليزي ، مثلا ، عندما يختلف في الرأي مع أي كان في محاضرة أو مناقشة في بلده يأتي بحجة من شكسبير لاقناع مستمعيه .

والايطالي يأتي بحجة من دانتي .

والفرنسي يأتي بحجة من فولتير .
والالماني يأتي بحجة من نيتشيه .
أما أي مسؤول عربي فلو اختلف معه حول عنوان قصيدة لأتاك بدبابة فتفضّل وناقشها .
ولذا صار فم الانسان العربي مجرد قنٍّ لايواء اللسان والأسنان لا أكثر . وفي مثل هذه الأحوال :
ماذا يفعل حرف الجر المسكين أمام حاملة طائرات مثلا؟
أو الفتحة والضمة أمام مدفع مرتد يتسع لمجمع لغوي؟
وما دام الحوار الوحيد المسموح به في معظم أرجاء الوطن العربي هو حوار العين والمخرز فلن ترفع الا الأسعار .
ولن تنصب الا المشانق .
ولن تضم الا الأراضي المحتلة .
ولن تجر الا الشعوب .
لذلك كلما قرأت أو سمعت هذا أو ذاك من الشعراء والصحافيين أو المذيعين العرب "يجعجع" عن الديموقراطية والعدالة والحرية ، وينتصر على الصهيونية ويقضي على التخلف ، ويتوعد هذا ويهدد ذاك ، وهو جالس في مقهاه ، أو وراء مذياعه ، لا أتمنى سوى تأميم اللغة العربية من المحيط الى الخليج وتكويمها في بيدر أو ساحة عامة في قلب الوطن العربي ، وتكليف موظف مختص وراء أذنه قلم وأمامه سجل بجميع الكتاب والشعراء والأدباء العرب وينادي عليهم بأسمائهم ويسألهم فردا فردا :
ـ أنت أيها الشاعر التقليدي ، كم كلمة من أمثال : رماح ، رمال ، جراح ، بطاح ، تريد؟ تفضل مع السلامة .

ـ وأنت أيها الشاعر الحديث ، كم كلمة من أمثال : تجاوز ، تخطي ابداع ، تأنس ، تريد؟ تفضل مع السلامة .

ـ وأنت أيها المذيع العصبي ، كم كلمة من أمثال : "في هذه الظروف العصيبة" ، و"في هذه اللحظات الحاسمة" ، تريد؟ تفضل مع السلامة .

ـ وأنت أيها المثقف المتزن ، كم كلمة من أمثال : "في الواقع" ، "في الحقيقة" ، و"جدلية" ، و"شمولية" ، و"نظرة موضوعية" و"قفزة نوعية" ، تريد؟ تفضل مع ألف سلامة .

ـ وأنت أيها المناضل والمتطرف والمتفرغ لكل محاضرة وندوة ومناسبة ، كم كلمة من أمثال : دم ، دماء ، استعمار ، امبريالية ، شعوب ، "وحدة الشعوب" ، "وحدة المصير" ، كوبا ، نيكاراغوا ، وكم مناقصة فوقها تريد؟ تفضل ومع ألف ألف سلامة .

فقبل احترام اللغة يجب احترام الانسان الذي ينطق بها .

* * *

الأجنحة

الأغنياء والفقراء ، القضاة والمتهمون ، الحراس واللصوص والمخمورون ، كلهم يقولون لي : ماذا تفعل في هذا الوطن بعد أن ابيضّ شعرك تحت سمائه وانحنى ظهرك فوق أرصفته؟ ماذا تنتظر منه بعد ان تحدد فيه مستقبلك ومستقبل غيرك في السياسة ، كما تحدد مستقبل محمد أمين في الفن؟ سافر الى بلاد الله الواسعة ، فقد لا تجد وقتا في المستقبل لشراء حقيبة . وقد لا تجد يدا أو أصبعا في يدك لحمل تلك الحقيبة . وكلما عدت الى بيتي في آخر الليل أجد على عتبته جواز السفر وتأشيرة الخروج ودفتر الصحة وبطاقة الطائرة وحبوب الدوخة .

وأحزم أمري وحقائبي وأسافر . في الذهاب أتمنى أن يكون مقعدي في غرفة القيادة على ركبة الطيار أو المضيفة لأبتعد بأقصى سرعة عن هذا الوطن . وفي الاياب أتمنى أن يكون مقعدي في مقدمة الطائرة على غطاء المحرك لأعود بأقصى سرعة الى هذا الوطن .

آخر مرة كانت الى تونس . أربعة آلاف كيلومتر فوق البحار والقارات وأنا أحدق من نافذة الطائرة كما يحدق اليتيم في واجهات الحوانيت في الأعياد . . كانت الغيوم هاربة من العرب ، الأمواج هاربة من العرب ، الأسماك هاربة من العرب ، التلوث هاربا من العرب ،

العروبة هاربة من العرب . وبعد اسبوع كنت أهرول عائدا اليهم وحزام الأمان مازال حول خصري .

وسألتني زوجتي بدهشة : ما الذي عاد بك بهذه السرعة؟ ألم تعجبك تونس؟

قلت : انها الجنة بعينيها ، شمس وبحر وغابات .

قالت : وماذا تريد أكثر من ذلك؟

قلت : بصراحة ، بلد لا يوجد فيه مشاكل لا أستطيع العيش فيه .

قالت : مستغربة : مشاكل!

قلت : نعم . بلد بدون أزمة سكن ، أزمة مواصلات ، أزمة غاز ، وبدون شائعات . . لا فلان طار ولا فلان راح ، لا أستطيع أن أقيم فيه أكثر من أسبوع . كما أنني بدون دخان مهرب ودعوسة رجلين في الباصات ، ومسؤولين يخالفون شارات المرور ، وشاحنات صاعدة هابطة وقت القيلولة تصب جهود الجماهير في أساس بناية أو شاليه لهؤلاء المسؤولين ، وكل نشرة والثانية يا جماهير شعبنا ، وفي هذه المرحلة الحاسمة من تاريخ أمتنا ، لا أشعر بأنني في بلدي وبين أهلي وأحبابي كما يقولون في كلماتهم الترحيبية . كل شيء عندهم في تونس هادىء كمراكز الامتحانات ، وكل شيء واضح ومحدد حسب النظام والقانون . ولذلك فقدت أعصابي وصرت كالخليجي الذي اعتاد النوم طول حياته على صوت المكيف . فما إن يتوقف عن العمل حتى يستيقظ ولا يعرف كيف ينام حتى يعود الى العمل والهدير من جديد .

ثم إنني أحب هذا الوطن من محيطه الى خليجه . فأينما كنت ، ما إن اقرأ اسمه في جريدة ، أو أسمعه في إذاعة حتى اتجمد كنهر سيبيري ،

كعريف في حضرة جنرال ، انني أحبه ، قدروا ظروفي وعواطفي .

فيه قرأت أول قصة لياسين رفاعية ، وسمعت أول أغنية لفهد بلان ، وقرأت أول افتتاحية ترد على كل المخططات الاجنبية في المنطقة ، تبدأ ببيت للفرزدق وتنتهي ببيتين للأصمعي . فيه سمعت لأول مرة اسم قضية فلسطين ، عائدون ، حرب التحرير الشعبية ، حرب الاستنزاف ، الكيلو متر ١٠١ ، مرسيدس ٢٢٠ امبريالية ، استعمار انسبستر ، ديبون ، فيزون ، بيار كاردان ، جنرال الكتريك ، جنرال سيلاسفيو .

وصرخت زوجتي بحدة : مشكلتك انك تسخر من كل شيء في هذه المنطقة .

فقلت لها : بالعكس ، مشكلتي انني احترم كل شيء فيها حتى قمامتها ، بدليل ، وأنا عائد في آخر الليل سقط عليّ كيس قمامة ، فلم احتج . ولم انفضها حتى عن رأسي وثيابي ، لأنني من طريقة سقوطها عليّ عرفت أنها زبالة مدعومة .

قالت : حالتك خطيرة جدا . عليك بمراجعة طبيب .

قلت : ان الدكتور كيسنجر لن يحل مشكلتي ، وتصوري أيضاً . . . صرت أبكي في أفلام حسن الامام ، وأفرقع بأصابعي في حفلات سميرة توفيق .

قالت : كم يؤلمني ان ارى شاعرا مثلك لا يجد ما يتحدث به في أواخر عمره غير حسن الامام وسميرة توفيق وأكياس القمامة . هل نسيت الشعر؟

قلت : الشعر! كأنك تذكرينني بطفل فقدته ولا أعرف قبرا له .

قالت : هل تثق بي؟

قلت : كثقتي بكرايسكي .

قالت : أيا كان رأيك فأنت في حالة يرثى لها أيها العجوز الصغير وعلاجك الوحيد هو الشعر . السفر الروحي على أجنحة الحلم والخيال .

فقلت : ولكن كيف؟ والى أين؟

ولما كانت زوجتي بطبيعتها حالمة وخيالية ، فسرعان ما فتحت النافذة وحدقت في الأفق البعيد وقالت : الآن وليس غدا . انزع من رأسك كل السفاسف السياسية والمنغصات اليومية وتعال معي لنطيرَ على أجنحة الحلم والخيال الى العوالم التي سبقنا اليها رامبو وفيرلين وهايني وشلر ولوركا ، لنطيرَ . . بعيدا بعيدا في عالم السحر والجمال حيث السماء الزرقاء والأمواج الحالمة والغابات العذراء .

فقلت لها : حبيبتي ، اذا ما استمرت الأمور في المنطقة على هذا المنوال . تبادل شتائم ومؤتمرات وخطابات . فلن نطير أنا وأنت وغيرنا في نهاية الأمر الا الى كامب دافيد .

* * *

ساعة المستقبل

بعد ثلاثين سنة من الثقة المتبادلة بين المواطن العربي وأجهزة الاعلام العربية ، نعلم أنه عندما تركز هذه الأجهزة على قضية ما وترعاها فجأة بكل ما عندها من صحف ومجلات وخطب ومهرجانات ومطربين ومطربات ، فمعنى ذلك أن نقرأ الفاتحة قريبا على هذه القضية .

أنا مثلا : دون تردد أو مناقشة ، ما إن تركز مثل هذه الأجهزة على قضية الحرية فجأة حتى أجهز شحاطتي وبيجاماتي وأحلق شعري على الصفر سلفا .

وعندما تركز على موضوع الاشتراكية ، أسارع على الفور وأتفقد برادي صحنا صحنا وبيضة بيضة ، لأن معنى ذلك أن الناس ستأكل بعضها عما قريب .

وعندما تركز على موضوع النصر والتحرير واستعادة الأماكن المقدسة ، أضب الحقائب واستعد للمبيت قريبا أنا وعائلتي تحت أحد الجسور في الفاتيكان ، لأن معنى ذلك أن قطعة أخرى من الأرض العربية ستطير .

والآن تركز هذه الأجهزة في مشرق الوطن العربي ومغربه فجأة

وبعد خراب البصرة على موضوع الوحدة العربية بحجة أنها الرد الحاسم على ما تطرحه الامبريالية الامريكية في المنطقة من مشاريع جديدة للتجزئة والتقسيم . ومعنى ذلك أن عدد الدول العربية سيرتفع من ٢٢ إلى ٤٢ دولة . أي بعدد الولايات الامريكية تقريباً .

ماذا فعل المواطن العربي لحكامه خلال الثلاثين سنة حتى يعامل هذه المعاملة؟

أعطاهم أولاده للحروب .

وعجائزه للدعاء

ونساءه للزغاريد

وكساءه لليافطات

ولقمته للمآدب والمؤتمرات

وشرفاته وموطىء قدميه للمهرجانات والخطابات .

وطلب منهم نوعا واحدا من الحرية ، وهو النوع المتعارف عليه في أبسط الدول المتحضرة . فأعطوه عشرين نوعا من الحرية لا يوجد لها مثيل ، لا في الدول المتحضرة ولا في الدول المتوحشة .

وطلب منهم نوعا واحدا من الاشتراكية ، وهو النوع المعمول به في معظم الدول الاشتراكية ، فأعطوه خمسين نوعا من الاشتراكية الا النوع المعمول به في الدول الاشتراكية .

أعطاهم سبع دول عام ١٩٤٩ ، لتوحيدها ، فأعطوه بعد ثلاثين سنة ٢٢ دولة لا يستطيع ٢٢ بسمارك أن يوحد أنظمة السير فيها .

ومنذ ثلاثين سنة أيضاً أعطاهم قضية ظريفة خفيفة كالفلة ، تتمنى معظم الدول والشعوب في ذلك الحين أن يكون عندها قضية مثلها . وهي قضية فلسطين . فأعطوه بالاضافة إليها :

قضية لومومبا .

وقضية المالكي .

وقضية فرج الله الحلو .

وقضية الشوّاف .

وقضية البرازاني .

وقضية بن بركة .

وقضية بن بللا .

وقضية بن عاشور .

وقضية عبد الحكيم عامر .

وقضية برلنتي عبد الحميد .

وقضية علي صبري .

وقضية خزنة عبد الناصر .

وقضية موسى الصدر .

وقضية جنبلاط .

وقضية سعد حداد .

وقضية أحمد الخطيب .

وقضية الخميني .

وأخيراً قضية السادات .

فماذا يتحمّل هذا الإِنسان ليتحمّل؟

بمعنى أن ينام المواطن العربي على هم قديم . هذا لا يجوز . وأمر لا ترضاه أنظمة الحكم العربية ، ولا دول عدم الانحياز ، ولا منظمة الوحدة الآسيوية الافريقية ، ولا منظمة الصحة العالمية .

المفروض كل يوم جديد ، همّ جديد .

وأن يعود المواطن الى بيته في المساء وهو لا يحمل لعائلته وأطفاله أكلة جديدة أو ثياباً جديدة ، بل قضية جديدة .

وتقول اعلانات الدعاية أن ساعة أوريس التي تتحمل الصدمات هي ساعة المستقبل . قسما بالله ألف ساعة أوريس لا تتحمل في ثلاث سنوات الصدمات التي يتحمّلها المواطن العربي في ثلاث دقائق ـ ولذلك كل ما يلزمه هو قشاط جلد من عند الرأس والقدمين ليلفّه الطيارون ورجال الأعمال حول معاصمهم ، باعتباره هو لا أحد سواه ساعة المستقبل .

* * *

سيداتي سادتي

مواطن عربي ينقل إبرة الراديو من محطة الى محطة ويعلّق على ما يسمعه من أغان وبرامج وأخبار وتعليقات ، من الصباح الباكر حتى نهاية الإِرسال في الوطن العربي .

اذاعة رقم ١ : عزيزي المستمع ، في نزهتنا الصباحية كل يوم تعال معنا الى ربوع الوطن الحبيب حيث لا شيء سوى الحب والجمال .

المستمع : والتخلف .

اذاعة رقم ٢ : أغنية لفيروز "جايي ، أنا جايي . . . جايي لعندك جايي" .

المستمع : يا فتّاح يا رزّاق . انها حتماً فاتورة الماء أو الكهرباء أو الهاتف .

اذاعة رقم ٣ : عزيزي المستمع مع الورود والرياحين والنرجس والنسرين والفل والياسمين .

المستمع : أي فل وأي ياسمين . والله لو مات أحد أصدقائي في هذا الغلاء الفاحش فلن أستطيع أن أقدم له إلا إكليلا من الخطابات .

اذاعة رقم ٤ : قصيدة اليوم : وللحرية الحمراء باب .

المستمع : بكل يد قابضة يدق .

اذاعة رقم ٥ : واننا نعلن من هنا أن لا شروط لنا أبداً على تحقيق

الوحدة العربية .

المستمع : باستثناء شرط واحد هو أننا لا نريدها .

اذاعة رقم ٦ : حكمة اليوم ، قل كلمتك وامش .

المستمع : الى البنك .

اذاعة رقم ٧ : ان المجلس الأعلى لشركات الطيران العربية يحذر في مؤتمره المارقين والعابثين بقضايانا المصيرية ويضع كافة امكاناته وطاقاته في خدمة المعركة .

المستمع : بما أن الأمور قد وصلت الى شركات الطيران فمعنى ذلك أن القضية "طايرة قريباً" .

اذاعة رقم ٨ : حلم لاح لعين الساهر" .

المستمع : عودة الحياة الطبيعية الى لبنان .

اذاعة رقم ٩ : من أنبائنا الرياضية خرج الجواد العربي "نور الصباح" من الداربي الانكليزي بعد الشوط الأول بسبب إهمال الجوكي وسقوطه عنه .

المستمع : طبعاً لأن العرب لا يعرفون أن يخيّلوا إلا على بعضهم .

اذاعة رقم ١٠ : وان الاتحاد النسائي العام في الوطن العربي يدعو كافة أعضائه المنتسبات . . .

المستمع : . . . الى ترك أطفالهن دون رضاعة وأزواجهن دون طعام وبيوتهن دون ترتيب ومطابخهن دون جلي والتفرّغ لحلّ مسؤولياتهن وفضح المؤامرات التي تحاك ضد قضيتنا وأمتنا ، وكل فرع لا يتقيّد بهذه التعليمات يغلق وتختم جميع مكاتبه "بالشكلس الأحمر" .

اذاعة رقم ١١ : وكما قلنا وأكدنا مراراً نعلن أمام العالم أجمع أنه :

لا صلح
لا اعتراف
لا مفاوضات
المستمع : لا تكذبي . إني رأيتكما معا .
اذاعة رقم ١٢ : واننا نؤكد أيضاً من هنا ولجميع شعوبنا العربية والاسلامية أننا لن نذهب الى مؤتمر ولن ننسحب من جلسة ولن نتهاون في قضية ولن نساوم على حق ولن نتردد في مساعدة ولن نتراجع عن موقف ولن نفاوض ولن نصالح ولن نقرر إلا ما تمليه ارادة الشعوب .
المستمع : والشعوب في السجون .
اذاعة رقم ١٣ : أغنية "دايماً وراك دايماً أتبع خطاك دايماً" .
المستمع : معروفة . المواطن والمخابرات .
اذاعة رقم ١٤ : وبعد أن شرح سعادته لسفراء الدول الغربية الظروف الخطيرة التي تمر بها المنطقة ، أعطاهم مهلة شهرين للعودة بأجوبة واضحة من حكوماتهم ، وذلك قبل بدء حملة الانتخابات الأمريكية وانشغال العالم بها ، لأن العرب مصممون أكثر من أي وقت مضى على صوم رمضان القادم في القدس والصلاة في عكا والوضوء في مياه الأردن ثم استقل سعادته الطائرة في رحلة استجمام الى أوروبا تستمر . . .
المستمع : الى ما بعد الانتخابات الأمريكية .
اذاعة رقم ١٥ : واننا في هذه الظروف المصيرية نحث جميع القادة والمسؤولين العرب على الالتزام بقرارات جميع القمم العربية دون استثناء : قمة الخرطوم وقمة الرباط وقمة بغداد وقمة فاس

الأولى والثانية .
المستمع : عجيب ، كل هذه القمم ومازلنا في الحضيض .
اذاعة رقم ١٦ : والآن سيداتي سادتي ، ومع اقترابنا من ركن المنزل تنضم جميع موجاتنا العاملة . . .
المستمع : الى جبهة الصمود والكفاح العربي . . . ونقدم لكم طبخة اليوم .
اذاعة رقم ١٧ : ان طريقنا الى فلسطين لابد أن تمر من بيروت .
المستمع : ومن جونيه .
اذاعة رقم ١٩ : ومن موسكو .
اذاعة رقم ٢٠ : ومن واشنطن .
المستمع : من كثرة الطرق التي أصبحت تؤدي الى فلسطين صارت القضية في حاجة الى ادارة مرور .
المذيع : إخرس .
اذاعة رقم ٢١ : فيروز تغني أنا وشادي . . . تربينا سوا . . . راح شادي . . . ضاع شادي .
المستمع : بس شادي؟
المذيعون العرب : إخرس .
المستمع : لن أخرس .
المذيعون العرب : ستخرس رغماً عن أنفك . (وتمتد مئات الأيدي من الراديو وتنهال عليك ضرباً وصفعاً) : كلب ، جاسوس ، حقير ، طابور خامس . . . الخ . . .
اذاعة رقم ٢٢ : نأسف لهذا الخلل الفني ، وسنعود اليكم فور إصلاحه .
اذاعة اسرائيل : لا . . . لا . . . خذوا راحتكم .

اللوحة المسمارية

صوت : ألو . . مقهى النخبة ، هنا نيويورك ، أريد أيوب العربي .
أيوب : هو الذي يتكلم .
الصوت : أنا الدكتور جافييه بيريزدي كويلار ، ألم تعرفني؟
أيوب : مع الأسف .
الصوت : ولو ، أنا الأمين العام الجديد للأمم المتحدة ، ما هذا؟ تكاد تنتهي مدة ولايتي ولم تعرفني أو تحفظ اسمي؟
أيوب : بسيطة يا سيدي ، فنصف الوزراء الذين يتحدثون باسمي وبيدهم لقمتي ومصيري لا أعرف أسماءهم . وبعضهم لا أسمع به إلا عند تشكيل الوزارة . على كل حال ، أهلا وسهلا ، أية خدمة؟
الصوت : تعرف أن الاستعدادات بذكرى الإعلان عن حقوق الإنسان قد بدأت .
أيوب : أي انسان! الانسان الآلي؟
الصوت : لا . لا . الانسان العادي الذي من لحم ودم ومشاعر . الانسان الذي يزرع لنأكل ، ويغزل لنلبس ويموت لنحيا .
أيوب : وما علاقتي أنا بهذا الموضوع؟
الصوت : إن الأمم المتحدة معنية هذا العام بإقامة احتفالها السنوي بهذه

المناسبة في إحدى دول العالم الثالث .

أيوب : ألم تجدوا سوى دول العالم الثالث مكانا للاحتفال بحقوق الإنسان؟

الصوت : لا ، لأن هذه الحقوق في تلك البلاد وخلافاً للتقارير مازالت موضع شك . ولهذا وَجَّهتُ الدعوة الى كبار الكتاب والفنانين والتكنوقراطيين للمساهمة في هذا الاحتفال ليأتي فيلماً وثائقياً وشهادة حيّة أقف من خلالها على واقع هذا الإنسان وطموحاته ، وعلى العوامل التي تجعل وتيرة نموّه أقل بكثير من طاقاته وإمكاناته . وأريدك أن تشرف عليه شخصياً من حيث استقبال المدعوين وملاطفتهم ، وترتيب أماكن جلوسهم ، ومراجعة كلماتهم . انني أعتمد كثيراً على خبرتك وحكمتك في نجاح هذا الاحتفال .

أيوب : ولكنني تركت الأدب والسياسة منذ زمن بعيد .

الصوت : هذا ليس موضوعاً سياسياً أو أدبياً ، انه موضوع إنساني . هل تخلّيت عن إنسانيتك أيضاً؟

أيوب : لا . ولكنك فاجأتني بمهمة خطيرة ليس عندي أي استعداد نفسي أو معنوي للاضطلاع بها . ليس عندي حتى الثياب اللائقة لأظهر بها في هذه المناسبة .

الصوت : سترتدي ثياب الأمم المتحدة .

أيوب : حسناً . وزمان ومكان الاحتفال؟

الصوت : كل هذه المعلومات ستصلك برقياً في حينه .

أيوب : والتعويضات!

الصوت : ستكون مغرية وبعملة البلد المضيف .

أيوب : لا . أنا يساري ولا أقبض إلا بالدولار .

الصوت : وكيف صرت يسارياً بين ليلة وضحاها؟

أيوب : كما صار الاستاذ محمد حسنين هيكل . هل هو أحسن من غيره؟

الصوت : جهِّز نفسك للسفر فوراً .

* * *

أيوب : وما إن وصلت الى مكان الاحتفال حتى هرع كبير الموظفين المكلَّف بمرافقتي للاطلاع على كافة الاجراءات المتخذة ، يشرح لي الآمال المعلَّقة على هذا الاحتفال وسط بحر من الوفود والصحفيين والمصورين والمراسلين الذين تقاطروا من جميع أرجاء آسيا وافريقيا وأمريكا اللاتينية : هذا يعبىء غليونه ، وذلك يشعل سيجاره ، والذي يراجع كلمته ، والذي يختصر منها ، أو يضيف عليها ، وضحكات من هنا وتعليقات من هناك . وما إن بلغت القاعة المخصصة للاحتفال حتى صرختُ بمرافقي : ما هذه الفوضى؟ من سمح لهم بالجلوس بهذا الترتيب العشوائي؟

المرافق : لقد اختار كل وفد مكاناً وجلس فيه وليس عندي أية سلطة تحول دون ذلك .

أيوب : أما أنا فعندي مثل هذه السلطة . ثم مَن هؤلاء الذين يجلسون في الصف الأول ويلفون ساقاً على ساق بكل هذه العظمة؟

المرافق : وفود من الدول العربية .

أيوب : وماذا جاؤوا يفعلون بهذه المناسبة؟ من وجّه اليهم الدعوة؟ ما من مؤتمر أو مهرجان في مناسبة حقوق الانسان ، أو حقوق

الملاحـة ، أو حـتى حـقـوق الفـقـمـة . . إلا وتراهم جـاهزين بكلماتهم وتوصياتهم وبرقيات تأييدهم واستنكاراتهم . يا إلهي . هل ينامون بثـيـابهم في المطارات؟ أخرجـهم حـالا من القـاعـة كلها ، بل حتى لو وجدت في هذا المبنى ولو "تواليت عربي" سأقدم استقالتي وأنسحب .

المرافق : ألا يمكن أن نسمح لهم بالبقاء ولو كمراقبين؟

أيوب : مراقبين على ماذا؟ على حقوق الإنسان؟ هل أنت أجدب؟ هل يؤتمن الثـعلب على الدجـاج؟ هيّـا . . ليـغـادروا المكـان ، ولتـقف جميع الوفود في الزاوية ريثما أعيد ترتيب الجلوس حسب هذه اللائحة التي أعددتها بنفسي . فهناك أصول ومقامات يجب أن تراعى في مثل هذه الأحوال .

المرافق : وهذه لائحة يا سيدي بأهم البحوث والموضوعات التي ستلقى في الاحتفال . هل أتلوها عليك؟

أيوب : طبعاً ، وبسرعة .

المرافق : كلمة الافتتاح سيلقيها الدكتور خوريا موريا من الأرجنتين عن الجـذور التـاريخـيـة لحـقـوق الإنسـان عند جـان جـاك روسـو . ثم يعقب عليه الدكتور غوهو موهو من افريقيا الوسطى بمقولة ديمومة الانسان لهيغل .

أيوب : عظيم . ولكن أسرع .

المرافق : ثم هناك التكنولوجيا ومستقبل الانسان :

الاسطورة وخيال الانسان .

الميثولوجيا وطقوس الانسان .

فولتير وروح الانسان .

بيكاسو وضمير الانسان .
بريجينسكي وجسد الانسان .
شوبان وشفافية الانسان
ثم بيتهوفن وعظمة الانسان . والحركة الرابعة من السمفونية الثالثة وقدر الإنسان .
ثم آسيا تنهض .
أمريكا اللاتينية تتمخض .
أفريقيا تتحفز .
أيوب : عظيم ، عظيم . والآن ، يجب أن يكون ترتيب الجلوس على الشكل التالي :
في الصف الأول : يجلس الحدادون والنجارون والسباكون والمقاولون والمهربون وأصحاب الملاهي والكباريهات .
المرافق : سيدي . ما هذا؟
أيوب : لا أريد مناقشة أو اعتراضا من أحد فهذا الترتيب نهائي . وجاء نتيجة دراسة ميدانية في معظم أرجاء العالم الثالث . ثم ، لو لم أكن موضع ثقة سيادة الأمين العام للأمم المتحدة لما كلفني بهذه المهمة ، وأرجو عدم مقاطعتي بعد الآن .
يليهم في الصف الثاني : أصحاب البنوك وتجار العقارات والموبيليا والمفروشات .
يليهم : السفراء والقناصل ورؤساء البعثات الأجنبية .
يليهم : القضاة والأطباء والمحامون والمهندسون .
يليهم : الطلاب والمدرسون والمقررون والمفتشون .
يليهم : العمال والفلاحون والحراس الليليون .

يليهم : الحمالون وماسحو الأحذية والباعة المتجولون .
يليهم : النشالون والجانحون وأرباب السوابق .
وأخيراً ، يليهم : الكتاب والصحفيون وأرباب القلم .
ثم : ليوضع في مقدمة الجميع بوط عسكري .
واحتفلوا وناقشوا بعد ذلك حتى يورق الصوان .

* * *

الحديقة قرب الغابة

أجمل شعارات هذه الأمة وأعرقها . بل ثوب زفافها الأبيض . ماذا حل بها؟ ماذا بقي منها غير الأزرار الصدئة والأكمام المتهدلة والجيوب الفارغة؟

شعارات نقية يطلقها اناس انقياء وبلمح البصر تصبح كثياب عمال الدباغة مع أن الكل يدعي النظافة وتعقيم اليدين .

معاهد جامعات مخابر تكنولوجيا ، ومع ذلك حكمة قيلت قبل أربعين قرنا على ظهر بعير تحكمنا وتسيطر على أفعالنا ونحن على متن الجامبو أو الكارافيل وعلى ارتفاع أربعين ألف قدم عن سطح الأرض .

ما اذرب السنتنا في اطلاق الشعارات . وما ارشق ايدينا في التصفيق لها ، وما أعظم جلدنا في انتظار ثمارها ، ومع ذلك فان منظر ثائر عربي يتحدث عن آلام شعبه للصحفيين وهو يداعب كلبه الخارج لتوه من الحمام ، أو منظر طفل مقنزع في صدر سيارة بمفرده أمام مدرسة خاصة أو حضانة أطفال ، وعلى مسافة امتار من ظل سيارته يقف المئات تحت الشمس المحرقة بانتظار باص ، يلغي مفعول عشرين دراسة ومئة محاضرة وألف أغنية واهزوجة عن العدالة والاشتراكية . كأنّ هناك من اختص في تجويف الشعارات العربية وتفريغها كالخلد من أي محتوى . . ولا يقر له قرار ما لم يتركها لمن سيجيء من بعده وهي

كالبطيخة المنهوشة بالاسنان حتى القشرة البيضاء .

كأني بهؤلاء وأمثالهم منذ أول مظاهرة عام ١٩٤٨ اصطفوا على طريق النضال العربي ، وكل منهم وضع شعارا من الشعارات في "حلة" ووقف وراءها وبيده مغرفة وراح يفرغ ما بها كبائع السحلب .

وعندما تصبح هذه الشعارات ضجة بلا محتوى . . يعودون الى الصف مرة ثانية ويقفون رتلا احاديا وراء بعضهم كما في النظام المنضم ، وكل منهم يحمل فرشاة في يمينه وسطل دهان في يساره ، ويبدأ بلصق التهمة تلو التهمة على ظهر الذي أمامه بينما تكون فرشاة الذي وراءه تعمل في ظهره وتلصق عليه ألف تهمة مماثلة . حتى أصبح ظهر المواطن العربي مع مرور الأيام والعهود والمراحل كواجهة السينما أو لوحة الاعلانات .

وفي المقابل هناك فريق ثالث يتألم ويخبط كفا بكف لهذه الحالة . . ويدعو الى الشفقة والرحمة بهذه الأمة . . ثم يتلفت يمنة ويسرة وينهش منها ثمن سيارة ويمضي .

ويأتي آخر ينهش منها ثمن طقم كنبايات .

وآخر ثمن مزرعة دواجن .

وآخر ثمن كباريه .

وآخر ثمن شاليه .

وآخر محضر بناء .

وآخر تعهد قمامات .

وهذه خاتم سوليتر .

وتلك فستان سواريه للصيف .

وتلك معطف فرو للشتاء .

وهذه الأمة ترتجف كالنعجة في موسم القصاص بعد ان جردت من كل ما يسترها ولم يبق منها الا الأنسجة والأعصاب .

ولكن حذار :

يحكى ان نمراً في سيرك هندي بعد أن تقدم به العمر وأحيل على التقاعد كأي دركي عجوز ، دفن رأسه بين قائمتيه وانزوى بعيدا عن الأعين ، لكن الحيوانات الأخرى لم تتركه وشأنه فراح كل ما في السيرك من قطط صغيرة وقردة وثعالب وسحالي وببغاوات وسعادين يتحرش به ذهابا وايابا . وهو صامت لا يروم ، تعففا وسأما ، ولكن في يوم من الأيام عندما زادوا من تحرشهم لم يطق صبرا على ذلك . فانتظرهم حتى مروا قافلة واحدة ورفع يده وهوى بها عليهم . فقضى على الجميع بضربة واحدة .

* * *

الجاحظ

العربي الأول : صباح الخير .

العربي الثاني : صباح لبنان ، والضفة الغربية ، وجنوب لبنان ، وروافد نهر الأردن ، وحريق المسجد الأقصى ، وضرب المفاعل النووي العراقي ، واتفاقية سيناء ، وكامب دايفيد ، وعقد الاذعان ، ومؤتمرات القمة ، وخلافات المقاومة ، وحرب الخليج ، ومجازر صبرا وشاتيلا ، ومجازر طرابلس ، وقوانين الطوارىء والاحكام العرفية . يا قليل الذوق والتهذيب .

الأول : ماذا فعلت حتى تثور كل هذه الثورة وترفع عليَّ حذاءك؟

الثاني : عربي ويقال له صباح الخير!

الأول : ماذا يقال له إذاً؟

الثاني : يقال له : صباح الجلطة ، صباح الديسك ، صباح الشلل النصفي . .

الأول : آسف .

الثاني : قلها مرة ثانية وسأشكوك الى الشرطة ، الى محكمة القيم .

الأول : لم أكن أقصد استفزازك أبدا .

الثاني : ثم ما هذه الخدوش التي في وجهك؟

الأول : مناقشة عائلية بسيطة . وأنت ، ما هذه الهضبة التي في

رأسك؟

الثاني : ضربتني زوجتي بالطنجرة .

الأول : طنجرة عادية؟

الثاني : ألومنيوم .

الأول : لا . نحن ارقى منكم . أنا ضربتني زوجتي بطنجرة بخار .

الثاني : ولذلك قد يصفر رأسك في أية لحظة عندما تنضج آلامك .

الأول : هل هذه نكتة؟

الثاني : نعم .

الأول : عجيب .

الثاني : ولكنها نكتة ملتزمة ، لا يضحك لها المواطن فورا كالنكتة البورجوازية العفنة . ولكن فيما بعد ، بعد شهر أو شهرين ، لأن القيمة الجدلية للنكتة . . .

الأول : وهل عندكم الكثير من هذه النكات الملتزمة؟

الثاني : مجموعة لا بأس بها . وبمجرد أن تقرها اللجنة المركزية ، والمكتب السياسي واللجان الشعبية في الأقاليم ، ويجربها المسؤولون شخصيا في بيوتهم ، سوف تطرح على الجماهير في أحد أعيادها القومية .

الأول : كان الله في عون هذه الجماهير .

الثاني : تحيا الجماهير .

الأول : تحيا .

الثاني : يعيش الشعب العربي يا . .

الأول : يعيش . يعيش . يعيش .

الثاني : تسقط الاحلاف الاستعمارية تا . . .

الأول : أرجوك . دعنا من هذا الحديث ، فربما سمعتنا المخابرات .
الثاني : اطمئن . أنا نفسي مخابرات . كيف أبدو؟
الأول : سبحان الخالق . ولكن في هذه الساعة المتأخرة من الليل ، والشوارع مقفرة ، والناس كلهم نيام ، من تراقب؟ بزوغ الشمس من الناحية الأمنية!
الثاني : بزوغ أي شيء . واذا لم أجد ما أراقبه ، أراقب نفسي .
الأول : هذه حال لم أسمع بها من قبل .
الثاني : بل هناك حالات كثيرة مشابهة . أنا مثلا أعرف صحفيا اذا لم يجد جهة يقبض منها يقبض من نفسه .
ومطربة تغني أمام المرآة لنفسها وتصرخ بحماس : ما صار . ما صار .
وبرلمانيا سابقا يخرج من دورة المياه ويقول : انتهت الجلسة .
الأول : يبدو لي ان اعصابك في غاية الارهاق .
الثاني : ثلاث ليال لم أعرف طعم النوم .
الأول : من تراقب؟
الثاني : لا أعرف .
الأول : لمَ لم تذهب إذاً الى بيتك وتنام مع زوجتك وأطفالك؟
الثاني : لا أستطيع لأنني أنا أيضا مراقب .
الأول : يا له من عالم عجيب .
الثاني : نعم يا صديقي ، فعندنا لابد من مخابرات تراقب المخابرات .
ومن طالب لمراقبة الطلاب .
ومن كاتب لمراقبة الكتّاب .
ومن سائق لمراقبة الركاب .
ومن سكير لمراقبة السكارى .

ومن قاض لمراقبة القضاة .
ومن محام لمراقبة المحامين .
ومن مهندس لمراقبة المهندسين .
ومن حرفي لمراقبة الحرفيين .
ومن فنان لمراقبة الفنانين .
ومن صحفي لمراقبة الصحفيين .
ومن رياضي لمراقبة الرياضيين .
ومن مسافر لمراقبة المسافرين .
ومن سجين لمراقبة المساجين .
ومن يميني لمراقبة اليمينيين .
ومن يساري لمراقبة اليساريين .
ومن ناصري لمراقبة الناصريين .
ومن وحدوي لمراقبة الوحدويين .
ومن وافد لمراقبة الوافدين .
ومن فدائي لمراقبة الفدائيين .
ومن متفائل لمراقبة المتفائلين .
ومن يائس لمراقبة اليائسين .
ومن متحضر لمراقبة المتحضرين .
بمعنى ان السلطة تراقب الشعب ، والشعب يراقب السلطة .
الأول : واسرائيل تراقب الجميع!

* * *

اصلاحية نورمبورغ العربية ـ امتحان التخرج

مدير الاصلاحية : الاسم؟

نزيل الاصلاحية : لا أعرف .

المدير : اسم الأب؟

النزيل : لا أذكر .

المدير : اسم الأم؟

النزيل : نسيت .

المدير : مكان وتاريخ الاقامة؟

النزيل : لا أذكر .

المدير : عازب أم متزوج؟

النزيل : نسيت .

المدير : المهنة؟

النزيل : لا أعرف .

المدير : علامات فارقة؟

النزيل : لا أذكر .

المدير : فئة الدم؟

النزيل : نسيت .

المدير : الوضع المادي؟

النزيل : لا أعرف .

المدير : الأمراض التي أصبت بها من قبل؟

النزيل : نسيت .

المدير : متى استعمرت الدول العربية؟

النزيل : نسيت .

المدير : ما هي أشهر معارك العرب في العصر القديم؟

النزيل : لا أعرف .

المدير : في العصر الحديث؟

النزيل : لا أذكر .

المدير : في العصر الوسيط؟

النزيل : نسيت .

المدير : من هو خالد بن الوليد؟

النزيل : لا أعرف .

المدير : طارق بن زياد؟

النزيل : لا أذكر .

المدير : الزير أبو ليلى المهلهل؟

النزيل : نسيت .

المدير : متى وقعت معركة القادسية؟

النزيل : لا أعرف .

المدير : اليرموك؟

النزيل : لا أذكر .

المدير : حطين؟

النزيل : نسيت .

المدير : من هو المتنبي؟
النزيل : لا أعرف .
المدير : أبو العلاء المعري؟
النزيل : لا أذكر .
المدير : أبو خليل الفراهيدي؟
النزيل : نسيت .
المدير : ما هي المعلقات السبع؟
النزيل : لا أعرف .
المدير : لماذا كانت تُعلَّق على جدار الكعبة؟
النزيل : لا أذكر .
المدير : أين كانت تُعلَّق؟
النزيل : نسيت .
المدير : ما هي المذاهب الأدبية للوطن العربي؟
النزيل : لا أعرف .
المدير : عدد الاحزاب؟
النزيل : لا أذكر .
المدير : عدد المذاهب؟
النزيل : نسيت .
المدير : متى ولد عبد الناصر؟
النزيل : لا أعرف .
المدير : متى مات؟
النزيل : لا أذكر .
المدير : من هو عبد الناصر؟

النزيل : لا أعرف .
المدير : متى خرج آدم من الجنة؟
النزيل : لا أعرف .
المدير : من هو آدم؟
النزيل : لا أذكر .
المدير : من هي حواء؟
النزيل : نسيت .
المدير : ما هي البورجوازية؟
النزيل : لا أعرف .
المدير : الرأسمالية؟
النزيل : لا أذكر .
المدير : الاشتراكية؟
النزيل : نسيت .
المدير : من أول انسان نزل على سطح القمر؟
النزيل : لا أعرف .
المدير : ما هو القمر؟
النزيل : لا أدري .
المدير : ما هي النجوم؟
النزيل : نسيت .
المدير : ما هو المطر؟
النزيل : لا أعرف .
المدير : ما هو الربيع؟
النزيل : لا أذكر .

المدير : ما هي الفصول الأربعة؟
النزيل : لا أعرف؟
المدير : ما هي الجهات الأربع؟
النزيل : نسيت .
المدير : ما هو البحر؟
النزيل : لا أعرف .
المدير : ما هو الهواء؟
النزيل : لا اذكر .
المدير : ما هو الاوكسجين؟
النزيل : نسيت .
المدير : والآن ، ما هو وزنك؟
النزيل : لا اعرف .
المدير : طولك؟
النزيل : لا أذكر .
المدير : لون الشعر والعينين؟
النزيل : نسيت .
المدير : عظيم ، مدهش ، تجربة رائعة لاتصدق . هل معنى ذلك أنك لم تعد تذكر أي شيء على الاطلاق يا بني؟
النزيل : نعم ، باستثناء كلمة صغيرة .
المدير : ما هي؟
النزيل : فلسطين .
المدير : فلسطين! اعدام .
النزيل : شكراً .

المدير : قف بعيدا عند مسافة مئة كيلومتر .

النزيل : وواحد .

المدير : من أي قرية أنت يا بني؟

النزيل : لا قرى عندنا .

المدير : من أي مدينة؟

النزيل : لا مدن عندنا .

المدير : من أي شعب؟

النزيل : لا شعوب عندنا .

* * *

مكوك الفضاء العربي

ناطق عربي : بعد أن هب الشعب العربي هبة الرجل الواحد وحصل على استقلاله بالعرق والدموع والدماء . وطرد المستعمر الغاشم من بلادنا شر طردة وبعد أن أممنا القناة وجابهنا العدوان الثلاثي وسطرنا أروع آيات البطولة والفداء في حرب السويس .

وبعد أن كسرنا احتكار السلاح ، وأطلقنا شعار "نعادي من يعادينا ونصالح من يصالحنا" .

وبعد أن أسقطنا "حلف بغداد" و"مبدأ ايزنهاور" و"مشروع جونسون" وأرسينا قواعد عدم الانحياز وسياسة الحياد الايجابي بعيدا عن هيمنة الدول الكبرى .

وبعد أن أطلقنا حركة التحرر العربي في المنطقة وراحت القلاع الرجعية تتهاوى تباعا تحت ضربات الشعوب في آسيا وافريقيا وأمريكا اللاتينية .

وبعد أن حشدنا طاقاتنا ، ونظمنا اعلامنا وبرامجنا على أساس ان اسرائيل مخلب قط للاستعمار ، وشوكة في خاصرة الوطن العربي . وبعد أن انتظرناها من الشرق فجاءت من الغرب . أطلقنا شعار : "ما يؤخذ بالقوة لا يسترد الا بالقوة" ، وفوقه لاءات الخرطوم الشهيرة : لا صلح ، لا اعتراف ، لا مفاوضات .

وبعد أن تجاوزنا هذا كله في حرب اكتوبر حينما حررنا الارادة العربية وحطمنا العنجهية الاسرائيلية امام الملأ .

وبعد أن قطعنا امدادات النفط عن الدول المؤيدة للعدوان ، وجعلنا من زعمائها وأقطاب صناعتها يهرعون الينا معتذرين متقربين متملقين .

وبعد ان عايشنا العمل الفدائي ورعيناه بالمال والسلاح حتى استقام عوده واشتد ساعده برا وبحرا وجوا في جميع أرجاء المعمورة واعتلى منصة الأمم المتحدة ، أرفع منبر دولي في العالم .

وبعد أن وقفنا وقفتنا الغضوب من مبادرة السادات واتفاقيات كامب دايفيد واتفاقية الصلح المنفرد وعزلنا مصر شعبيا ورسميا ونقلنا مقر الجامعة العربية من القاهرة الى تونس .

وبعد أن أكدنا على أن منظمة التحرير هي الممثل الشرعي الوحيد للشعب الفلسطيني وأنه لا صوت يعلو صوت المعركة .

وبعد أن استوعبنا حرب لبنان ومنعنا اسرائيل من تحقيق أي من مخططاتها التوسعية نتيجة للتلاحم البطولي بين الشعبين اللبناني والفلسطيني أمام آلة الحرب الاسرائيلية المتعجرفة .

وبعد أن تفهمنا حرب الخليج وحصلنا على صفقة الأواكس المتطورة رغم جهود اللوبي الصهيوني داخل الكونغرس الامريكي وخارجه ومن معه من العناصر المؤثرة في مراكز التأثير في الادارة الامريكية .

وبعد أن احتوينا خلافات المقاومة بعد خروجها من لبنان وأكدنا على ديموقراطية القرار الفلسطيني وعلى عدم الاستئثار به من أي طرف كان . وبعد أن تفهمنا واستوعبنا جميع مراحل الأزمة في المنطقة عربيا وفلسطينيا ولبنانيا وخليجيا في قمة فاس الأولى وقفزنا قفزة نوعية في

قمتها الثانية .

وبعد أن طافت اللجنة السباعية المنبثقة عنها أرجاء العالم من امريكا الى روسيا الى فرنسا الى بريطانيا الى الصين لشرح الموقف العربي وجوهر الصراع في المنطقة من جميع جوانبه ولوضع حد لممارسات اسرائيل العنصرية وأهدافها التوسعية ، وبعد أن عرّينا اسرائيل دوليا وأوقعناها في عزلة خانقة ، بعد أن توصلنا مع حلفائنا الى اتخاذ القرار تلو القرار بطردها من الأمم المتحدة ومن معظم اللجان الثقافية والاقتصادية والتكنولوجية المنبثقة عنها .

وبعد أن لعبت الجماهير العربية من المحيط الى الخليج دورها الريادي في المعركة وقالت بلسان احزابها ونقاباتها ومنظماتها لا لمشروع ريغان كما قالتها من قبل لمشروع روجرز والقرارين ٢٤٢ و٣٣٤ ولكافة الحلول الاستسلامية والطروحات التصفوية .

وبعد أن لعبت الصحافة العربية المقيمة والمهاجرة دورها الحضاري في طرح الحقائق الموضوعية ولتعرية الصهيونية العالمية ثقافيا واعلاميا واعلانيا .

وبعد أن لعب البترول العربي دوره القيادي المتميز سياسيا واقتصاديا وصحافيا وفكريا وفنيا وتلفزيونيا على الصعيد الاقليمي والدولي لرأب الصدع وتوفير الجهد العربي للنهوض بمسؤولياته في المعركة .

وبعد أن أكدنا على هذا الاتجاه أمام مؤتمرات القمة ومجموعة دول عدم الانحياز ومنظمة الوحدة الافريقية والمؤتمر الاسلامي في كولومبو ، وندوة الحوار العربي ـ الاوروبي وحوار البحر المتوسط في مالطا وفي جميع المحافل والمناسبات الدولية منذ مؤتمر غلاسبورو بين الشرق

والغرب الى المؤتمر الأخير بين الشمال والجنوب .

عابر سبيل : وبعد كل هذه اللفة والدورة سنجلس على الخازوق المعد لنا منذ عام ,١٩٤٨

* * *

المواطن والكلب

كان المثقف العربي غارقا في بث همومه ومكنونات صدره للكلب الصغير المتثاقل ترفا واسترخاء في احدى سيارات السلك الديبلوماسي الأجنبي وسط تجمع المارة وسخريتهم ، عندما أقدم أحد رجال الشرطة مسرعا بمسدسه وهراوته وأصفاده وغيرها من عدة الديموقراطية العربية .

المثقف : سنتابع حديثنا فيما بعد .

الكلب : لِمَ يرتجف صوتك وتصطك ركبتاك؟

المثقف : لقد جاء الشرطي؟

الكلب : وان جاء ، ما علاقته بك أو بسواك؟

المثقف : اذا لم تفهموا هذه العلاقة حتى الآن فلن تفهموا ما يجري في منطقتنا أبدا .

الكلب : أنا لا أخاف من حلف الأطلسي .

المثقف : لأن حلف الأطلسي قد يراجع بشأنك اذا ما تعرضت لمكروه .

الكلب : أليس لك أهل وأصدقاء يراجعون بشأنك؟

المثقف : طبعا . ولكن المشكلة ان الذين سيراجعون بشأني سيصبحون هم أوتوماتيكيا بحاجة الى من يراجع بشأنهم . الآن وصل الشرطي . أرجوك أن تتصرف وكأنك لا تعرفني .

الشرطي : ما هذا التجمع وسط الشارع؟

المثقف : ألا تسمعون؟ ممنوع التجمع الا لرجال الأمن .
الشرطي : هيا . كل في حال سبيله .
المثقف : مواطن يتحدث الى كلب ، هل هي فرجة؟
الشرطي : بل جريمة .
المثقف : قبل أن ترفع هذه العصا يجب أن تعرف ، وأنت رجل القانون أنه لا يوجد في أي عرف أو دستور أو بيان وزاري ما يمنع المواطن من التحدث الى كلب؟
الشرطي : من ندرة الأشخاص والمنابر والمتفقهين من حولك حتى تتحدث بما تعانيه الى هذا المخلوق المنفر الغريب .
المثقف : ولمن التحدث يا سيدي .
الكتاب مشغولون بالجمعيات السكنية .
والفنانون بالمسلسلات الخليجية
والمعلمون بالامتحانات
والطلاب بمعاكسة الفتيات
والتجار باحصاء الارباح
والفقراء بغلاء الأسعار
والمسؤولون بالخطابات .
الشرطي : عمَّ كنتما تتحدثان؟
المثقف : موضوعات عامة . كنا نتحدث عن الحب .
الشرطي : كذاب . لا أحد يحب أحدا .
المثقف : عن الصداقة .
الشرطي : أيضا كذاب . لا احد يثق بأحد .
المثقف : عن الصحافة العربية .

الشرطي : لا أحد يقرؤها .
المثقف : عن الاذاعات .
الشرطي : لا أحد يسمعها .
المثقف : عن الانتصارات .
الشرطي : لا أحد يصدقها .
المثقف : عن المقاومة الفلسطينية .
الشرطي : لا أحد يحس بوجودها .
المثقف : عن حرب الخليج .
الشرطي : لا أحد يبالي بها .
المثقف : عن الزراعة .
الشرطي : لا أحد يزرع شيئا . كل طعامنا صار معلبات . عمَّ كنتما تتحدثان للمرة الأخيرة؟
المثقف : بصراحة ، كنت أحدثه عن قضية الصراع العربي - الإسرائيلي من الألف إلى الياء .
الشرطي : يا للفضيحة . تتحدث عن أهم قضية عربية الى كلب وأجنبي أيضا .
المثقف : لا تحمل الموضوع اكثر مما يحتمل . اعتبره تتمة للحوار العربي - الأوروبي .
الشرطي : ولماذا كنت تطلعه على صحفنا المحلية .
المثقف : كنت أتلو عليه احدى الافتتاحيات .
الشرطي : وكيف كان تعقيبه عليها؟
المثقف : لقد عوى .
الشرطي : كلب متواطىء .

المثقف : لماذا تتحدث عنه بكل هذه الضعة والاستصغار يا سيدي؟
صحيح انه كلب صغير بحجم قبضة اليد ولكن انظر اليه كيف يبدو وادعا مطمئنا ، وواثقا من كل شيء ، يعرف متى يأكل ومتى يشرب ومتى يخرج الى النزهة ومتى يعود منها ، ومتى ينام ومتى يستيقظ . باختصار : كلب صغير يعرف مصيره ورجل طويل عريض لا يعرف مصيره . آه يا سيدي الشرطي . أنا الانسان العربي ، لو كان لي حقوق كلب فرنسي أو جرو بريطاني لصنعت المعجزات بقلمي البائس ودفتري المهترىء هذا . هل سمعت بإلياذة هوميروس؟

الشرطي : لا .

المثقف : بالأوديسة؟

الشرطي : لا .

المثقف : بملحمة غلغامش؟

الشرطي : لا

المثقف : بالكوميديا الالهية لدانتي؟

الشرطي : لا .

المثقف : بمسرحية فاوست لغوته .

الشرطي : لا .

المثقف : إذاً بماذا سمعت؟

الشرطي : منذ غزو لبنان لم أسمع الا أغنية "صيدلي يا صيدلي" .

المثقف : إذاً : هل تسمح لي بأن أعوي معه قليلا .

الشرطي : لا هيّا امامي .

المثقف : لن امشي في الشارع هكذا .

الشرطي : ماذا تريد؟ موكبا رسميا!
المثقف : أريد طوقا حول عنقي فقد أهرب . كمّامة على فمي فقد أعض .
الشرطي : من ستعض يا هذا؟
المثقف : قد اعض الارصفة . البنوك . الجماهير . اليمين ، اليسار ، الشرق ، الغرب ، الجنوب ، الشمال . اخفض مسدسك يا سيدي ولا تصدق ما أقول ففي النتيجة لن أعض الا لساني على قارعة الطريق ، أو اصابعي حتى يتصل الناب بالناب لأنني آمنت بشيء ما في يوم من الأيام . أليس كذلك يا سيدي الشرطي؟
الشرطي : أرجوك لا تضربني على الوتر الحساس والا تركت عملي وانضممت الى المحادثات معكما .

* * *

الاقنية الرومانية

المسافر : أعددت جدول مباحثاتي مع الأمين العام لجامعة الدول العربية ، وركبت رأسي قبل طائرتي ، وانطلقت الى تونس الخضراء . ولما علم بأنني "كاتب" استقبلني في المطبخ ، ولكنه بدد في الحال ما اعتبرته اهانة شخصية لي ، عندما ربت على كتفي وجدول مباحثاتي وقال :

القليبي : لا تبتئس يا بني ، فأول تعارف بين خروتشوف ونيكسون تم في المطبخ ، وأنا اجتمع بك في هذا المكان تقديرا مني ومن الجامعة التي أمثلها للدور الكبير الذي يلعبه الأدب والأدباء في هذه المرحلة .

المسافر : شكرا يا سيدي .

القليبي : وقد كان بودي أن استقبلك شخصيا في المطار ، وأعود بك في سيارة الجامعة وتحت أعلامها .

المسافر : كم علما لها الآن يا سيدي؟

القليبي : لا أعرف . ولكن منذ الاعلان عن اتفاق شولتز بين لبنان واسرائيل لم أغادر مكتبي ولم أر حتى زوجتي وأطفالي ، بانتظار ردود الفعل العربية عليه .

المسافر : وهل هو خطير لهذه الدرجة يا سيدي؟

القليبي : انه بالتأكيد سوف يقلب معظم التحالفات والتوازنات القائمة في المنطقة . فاسرائيل هي اسرائيل ، لا يمكن ان تعيد شيئا أخذته بالقوة دون ثمن يوازيه وأكثر .

المسافر : ولكنها أخذت سيناء بالقوة ثم أعادتها بالكامل للشقيقة مصر .

القليبي : وأخذت جنوب لبنان بدلا منها .

المسافر : ولكنها ستعيده حسب نصوص الاتفاق . فما هي المشكلة إذاً يا سيدي؟

القليبي : ما الذي ستأخذه من العرب بدلا منه . انها في أعقاب كل حرب تضع الأمة العربية وفي طليعتها لبنان في زاوية حادة كمنقار الصقر ، ليكون شعبها العصافير المطلوبة دوليا واقليميا ، فهل نسمح لها بذلك؟

المسافر : كلا ، وألف كلا ، ولكن كيف؟

القليبي : بالارتفاع الى مستوى المسؤولية .

المسافر : وهل هذا الاتجاه متوفر الآن يا سيدي؟

القليبي : نعم . وعندي تأكيدات قاطعة حول هذا الموضوع .

المسافر : ولكن ها قد مضت أسابيع وأكثر على توقيع الاتفاق ، والصمت العربي يكاد يكون مطبقا .

القليبي : بالعكس ، هذا دليل على استغراق الدول العربية في دراسة الاتفاق وتقويمه من جميع جوانبه قبل تحديد موقفها النهائي . فالمرحلة خطيرة والمسؤولية أخطر . وأنا أتوقع ظهور هذه المواقف وردودها الى أمانة الجامعة تباعا بين لحظة وأخرى . ويبدو أن وجهك خير عليّ ، وعلى الجامعة العربية ، وعلى الأمة العربية

بأسرها .

المسافر : وجهي أنا! لماذا؟

القليبي : ألا تسمع لاقطة البرقيات الالكترونية كيف أخذت تصفر؟ ان سيل البرقيات اخذ يتوالى . لا تعبث بها ارجوك . انها برقيات تاريخية في ظرف تاريخي .

المسافر : إذاً ، تفاؤلك كان في محله؟

القليبي : طبعا . فعندي تأكيدات حول ذلك .

المسافر : برقية عاجلة من ثلاث دول عربية دفعة واحدة تعلن رفضها القاطع للاتفاق . عظيم ، وهذه برقية من ثلاث دول أخرى تعلن موافقتها المبدئية عليه . على كل حال ، موقف .

وهذه برقية من أربع دول جديدة تعلن تحفظها مؤقتا من الاتفاق ، ريثما تقوم باتصالاتها مع الدول التي رفضت الاتفاق لتعرف لماذا رفضته . ومع الدول المؤيدة له ، لتعرف لماذا أيدته ، وذلك حرصا منها على وحدة الصف العربي .

وهذه برقية جديدة من دولة جديدة ، تعلن أنها ترفض الاتفاق اذا كان يتناقض مع مقررات قمة فاس ، وذلك حرصا على وحدة الهدف .

وهذه برقية من دولة أخرى ، تعلن موافقتها على الاتفاق اذا كان لا يتناقض مع مقررات قمة فاس والرباط ، حرصا منها على وحدة المصير .

وهذه برقية ثانية من الدول التي كانت قد رفضت الاتفاق بشكل قاطع ، تعلن موافقتها المبدئية عليه ، اذا كان يسمح بعودة مصر الى الحظيرة العربية ، وذلك لأسباب تتعلق بأمنها القومي .

وهذه برقية من الدول التي كانت قد وافقت عليه بشكل مبدئي ، تعلن رفضها القاطع له اذا كان غطاء لمشروع ريغان ، لأسباب تتعلق بسياستها الاستراتيجية .

وهذه برقية من خمس دول أخرى تعلن تحللها من كافة التزاماتها السابقة ، وأنها ستحدد مواقفها الجديدة من الاتفاق بعد تفسير الملاحق المرفقة به ، لأسباب تتعلق بأمنها السياسي .

وهذه برقية أخرى مستعجلة من الدول التي كانت قد رفضته ثم أيدته ، تعلن أنها لا تستطيع تحديد موقفها النهائي قبل أن تتضح مواقف كافة الاطراف على الساحة اللبنانية ، لأسباب تتعلق بدورها القومي .

وهذه برقية مستعجلة أخرى من الدول التي كانت قد أيدته ثم رفضته تعلن أيضا ، انها لا تستطيع تحديد موقفها النهائي من الاتفاق ، لأسباب تتعلق بدورها الجغرافي .

وهذه برقية من الأغلبية الصامتة ، بين الدول العربية ، تعلن أنها ما زالت كالعهد بها ، وفية لالتزاماتها ، أمينة على مبادئها ، ثابتة على مواقفها في رأب الصدع وتوفير الجهد لتحرير لبنان ورفاهية شعبه وفرض سلطته الشرعية على كامل ترابه . ولكنها لاتستطيع بلورة موقفها النهائي من الاتفاق ، قبل فرز كافة المعطيات التي كانت قائمة على الساحة اللبنانية قبل المفاوضات ، وبلورتها مع كافة المعطيات التي استجدت على الساحة العربية خلال المفاوضات . ومن ثم بلورة الموقف في لبنان من الدول المؤيدة لانتمائه العربي قبل الاتفاق ، والمعارضة له بعد الاتفاق ، وذلك لأسباب تتعلق بدوره الفلسطيني

والعربي على حد سواء . والله الموفق .

المسافر : الموفق على ماذا؟

القليبي : على كسب الوقت ، ريثما تتوضح بعض الأمور .

المسافر : واضحة كعين الشمس ، فكل هذه العواطف المشبوهة والكلمات المعسولة عربيا ودوليا ، عن الادوار التاريخية والحضارية في المنطقة ، من أجل الغاء دور الثورة الفلسطينية وحجب الاضواء عنها أرضا وفكرا وشعبا .

القليبي : بل لنصرتها وحماية وحدتها وأهدافها . وعندي تأكيدات قاطعة بذلك . ألو سنترال . . . أعطني الثورة الفلسطينية .

السنترال : لا صوت لها يا سيدي .

القليبي : ابحث عنها في أي مكان ، أريد أن أتحدث معها بأية وسيلة .

السنترال : مستحيل يا سيدي ، فمكاتبها في تونس ، ومعسكراتها في عدن ، ومقاتلوها في البقاع ، وصحافتها في قبرص ، وأطفالها في الخيمات ، وشهداؤها في البرادات ، وشبابها في مراكز الهجرة والجوازات .

القليبي : أعطني المسؤول الفلسطيني الذي تجده .

السنترال : سافر الى كوبا لنصرة الشعوب في امريكا اللاتينية .

القليبي : الأحداث تتصاعد . أعطني وزير الخارجية الكوبي .

السنترال : سافر الى المنطقة لوقف الهجمة اليمينية الشرسة عليها وعلى اليسار العربي .

القليبي : أعطني رئيس اليسار العربي .

السنترال : أي يسار؟

القليبي : اليسار العربي الماركسي .

السنترال : عرفته . لقد سافر لأداء مناسك العمرة .
القليبي : الأحداث تتشابك . أعطني مفتي المنطقة لأعرف ما هي القصة .
السنترال : سافر الى موسكو لحضور الاحتفالات بذكرى ميلاد لينين .
القليبي : بصراحة . . . لم نعد نفهم ما يجري ، وما سيجري .
المسافر : وهذا هو المطلوب .

* * *

يا شارع الضباب

كلما حلت بالأمة العربية كارثة ، أو مرت عليها ذكرى كارثة ، وقرأت أو سمعت أو شاهدت بهذه المناسبة مظاهرة أو مسيرة محروسة من جميع الجهات لأنها عفوية ، يتقدمها صف من وجهاء وأعيان القضية . يسيرون معبرين بوجوههم المقطبة المتجهمة عن ذكرى العار القومي ، أو يوم الحداد العالمي ، دون أن تنزل من عين أي منهم دمعة واحدة . سرعان ما أتلمس ما تبقى من شعري ، وأنا أتساءل عما إذا كانت هناك علاقة بالفعل بين الرعب والأهوال والمفاجآت وبين نمو الشعر؟ لأنه اذا كانت مثل هذه العلاقة موجودة فعلا ، فمعنى ذلك انه لن ينقضي العام الأول من الثمانينيات الا وأكون مثل "بول برينر" تماما . وفيما كنت أشير ، تحت المطر ، لأية سيارة تاكسي لكي تنقلني الى أي مكان في هذا الليل البهيم ، واذا بشاعر تقدمي يبرز لي من الضباب ويبادرني بلهفة : ـ أين أنت يا رجل؟ عندي حفلة تعارف صغيرة في البيت وحبذا لو تقبل دعوتي .

قلت مستريباً : مَنْ الحضور؟

قال : وفد صداقة من إحدى الدول الاشتراكية . ويسعدني أن تتعرف إليهم .

قلت : أسف .

قال : ولكن هناك كثير من الفودكا . والعشاء "فيليه" من فخذ الغزال . جئت به خصيصاً من أعماق السهول الروسية .

قلت : تقصد انه غزال تقدمي؟

قال ضاحكا : تقريبا .

قلت : حسنا لن أذهب ولو كان العشاء "فيليه" من فخذ بريجنيف .

قال : أهو موقف؟

قلت : أبداً ، كل ما هنالك أنني لبيت دعوة من هذا النوع من قبل وأقسمت ألاّ أعيدها . اذ شربنا نخب كل الأحزاب والقوى والتجمعات التقدمية في اوروبا وأمريكا حتى جاء الخبز والملاعق . ونخب كل الثورات في آسيا وافريقيا حتى جاءت السلطة وهذا كان منذ سنتين . فما بالك الآن والعالم يبيض ثورات؟

قال : لا . . لا . أنت غاضب لسبب آخر . رفع العلم الاسرائيلي في سماء مصر . لا تحزن يا صديقي ولا تتشاءم . اتفاقيات كامب دايفيد ونظام السادات والحلف الامبريالي كله سيسقط .

قلت بلهفة : كيف؟

قال : بإرادة الشعوب وقواها التقدمية وسوف تعود فلسطين الى أهلها!

قلت : أليس هو الشعار المطروح منذ عام ١٩٤٨ قبل الميلاد؟

قال : نعم .

قلت : في هذه الحالة أرجو أن تبلغ صديقي الشاعر يوسف الخطيب ألاّ يوجه لي الدعوة لتناول الغداء في يافا أو حيفا كما فعل صبيحة حرب حزيران .

قال : بل ستحضر وتكون في طليعة المدعوين .

قلت : لا أحب الظهور . واذا كان لابد فسأجلس على طرف المائدة .

قال منشرحا : والآن ما علينا الا دعم وتأييد التدخل السوفييتي في شؤون أفغانستان بناء على طلب حكومتها . لأن القضية العربية مربوطة جدلا بما يجري في أفغانستان . وهذا تعليق لكاتب تقدمي انكليزي مصداقا لما أقول . وبعد ان ألقيت التعليق دون أن أنظر إليه ، تقدم ومن خلال الضباب أيضاً طليعي آخر وبادرني معاتباً : "رأيتك تتحدث مع واحد من جماعة موسكو . وهم مشبوهون ومرتهنون لأي نظام والماركسية اللينينية منهم براء . فللوقوف في وجه الامبريالية أعدموا ملايين الفلاحين في بداية الثورة . ليأكلوا خبزهم في نهايتها من حقول الامبريالية وبالرجاء والتوسل . وهذا كتاب لريجيس دوبريه يؤيد هذه المقولة من أول سطر" . وما ان اتبعت الكتاب بالتعليق الذي سبقه حتى برز لي من الضباب أيضاً ناقد متطرف وقال : لقد رأيتك تتحدث الى واحد من جماعة "ماو" إنهم منحرفون ومزيفون للعقيدة اللينينية ـ الماركسية . لقد أبادوا العصافير في بلادهم ليتحولوا هم أنفسهم الى عصافير على أغصان الامبريالية . وكل ما يفعلونه الآن هو الزقزقة عن الاشتراكية . وهذه مقابلة مع رودنسون تفضح أكاذيبهم وعمالتهم .

وما كاد ينصرف حتى كنت وجها لوجه مع مخرج من أقصى أقصى اليسار ، وقد بادرني مزبداً مرغياً : لقدرأيتك تتحدث مع واحد من جماعة تروتسكي . وهي جماعة منقرضة ومشكوك بأمرها منذ زمن بعيد . وعليك ان تنتظر نهايتهم جميعا .

قلت : لم يعد عندي جلد حتى لانتظار باص .

قال : ان ما يحتاجه العالم الآن هو يسار جديد يكتسح الأخضر واليابس . وهو في طور التكوين . فكل الشارع العربي يساري .

قلت : نعم . الشارع يساري والأزمة يمينية .

قال : أنت مضلل ومسكين وبحاجة الى من يرشدك ويحميك . هل تنضم الينا .

قلت : ابعدني عن السياسة أرجوك .

قال : حسنا هناك لجنة أدبية وليست سياسية للدفاع عن حرية الكاتب العربي وهي يسارية . ما رأيك؟

قلت : لجنة يسارية تنبت هكذا فجأة للدفاع عن الكاتب العربي . عن الفلاح العربي . عن الكندرجي العربي ، لن أنتسب اليها قبل أن أعرف بالضبط كم عدد أعضائها وكم دولارا رأسمالها!

فصرخ مزمجرا : امريكا . امريكا . اللعنة على امريكا . انها وهم . انظر ما جرى ويجري لها في ايران وأفغانستان والسلفادور وبوغوتا على أيدي شعوبها . ونحن جزء من هذا العالم المتفجر ، وعليك ـ شئت أم أبيت ـ ان تنتظر الثورة العربية الشاملة .

قلت مذعورا : تقصد ان الثورات التي مرت علينا كانت "أكل هواء" مقدمات! وان الضربة الكبرى لم تأت بعد؟

قال : طبعا ، ان الماركسية ـ اللينينية ستنتصر . وسوف تحقق الرفاه المبرمج . والتوازن بين الدخل والانفاق ، والانفاق والانتاج . لأن رأس المال . . .

قاطعته متوسلا . . . وأنا أهمّ بالانصراف : "أخي أمنوا لي خبزاتي ودخاناتي كل يوم وصندلين لولدي كل سنتين وأنا ممنون شوارب ماركس ولينين وانغلز واسبارتاكوس" .

شجار عائلي

الأول : لماذا تختبىء في هذا البرميل؟ وفي مثل هذه الساعة المتأخرة من الليل؟ قل الحقيقة والا أبلغت عنك الحارس أو منظمة "أوبيك" .

الثاني : وأين أختبىء إذاً؟

الأول : ومم أنت هارب؟

الثاني : من الصحفيين والسياح الأجانب .

الأول : لماذا؟

الثاني : في الحقيقة ، منذ ان احتلت اسرائيل سيناء والجولان والضفة الغربية ، وأعلنت القدس عاصمة أبدية لها ، وعزلت مصر ، وضربت المفاعل النووي العراقي ، ووصلت الى بيروت ، وشردت المقاومة بحرا وبرا وجوا ، والحقت بها الحركة الوطنية ، ولم تتحقق أهدافها ، كما يؤكد لنا الاعلام العربي بكل اعتزاز وفخر ، صار هدفي الوحيد كعربي ان أتوارى عن الأنظار حتى لا يصيبني احد بالعين ، أو يقتطع أحد ثوار امريكا اللاتينية وايرلندا خصلة من شعري أو مزقة من ثيابي للتبرك بها في معاركهم الدائرة هناك . أو أن يحاصرني الصحافيون والسياح الأجانب بالأسئلة أو ينوموني مغناطيسيا ، ليعرفوا السر الذي

يجعل العربي يحقق الانتصار تلو الانتصار في جميع الظروف والمناسبات وهو يتثاءب في المقاهي ، فالموضوع يحتاج الى كثير من الحيطة والحذر .

الثاني : بل تحتاج الى لطمة على هذا الوجه ، وهل شعوب أوروبا وأمريكا وروسيا عديمة انتصارات أيها المغفل؟

الثاني : طبعا . لقد حقق المساكين كلهم مجتمعين ، انتصارا يتيما واحدا على ألمانيا منذ أربعين سنة وانتهى الأمر . بينما نحن العرب ، نحقق كل يوم عشرات الانتصارات دون ملاجىء وصفارات انذار ومشوهي حرب كما كان عندهم . ولذلك فهم يغارون منا ، ويحاولون المستحيل لمعرفة السر الكامن وراء هذا الاسهال في الانتصارات المتلاحقة ، وهذا يفرض علينا أن نكون كتومين ومقتضبين في أحاديثنا معهم ، وألاّ نبوح بأية كلمة عن أسرار هذه الانتصارات لأنها ملك للمستقبل وللأجيال اللاحقة .

الأول : اطمئن ، فكل محاولاتهم ستتحطم على صخرة الصمود والمقاومة العربية . .

الثاني : ومع ذلك ، حذار من أية كلمة هنا أو هناك .

الأول : لا توصِ حريصا ، فعندي مكان لكل اسرار العالم ، ولكن ليس عندي مكان أنام فيه .

الثاني : انزل الى جانبي في هذا البرميل . ماذا تنتظر؟

الأول : وهل يتسع لاثنين؟

الثاني : انه يتسع لمؤتمر قمة ، أفلا يتسع لاثنين من رعاياه؟

الأول : افسح لي مكاناً إذاً؟

الثاني : تفضل على الرحب والسعة . وقهوتك المرة جاهزة .
الأول : شكرا . أنا لا أشرب إلا الفودكا .
الثاني : أنت يساري إذاً؟
الأول : ومتطرف أيضا .
الثاني : وماذا تفعل عندي في هذا البرميل إذاً؟
الأول : وأين أنام في هذا البرد القارس؟
الثاني : في قلوب الجماهير .
الأول : وإذا تكشفت في الليل؟
الثاني : تغطيك الدولة اعلاميا .
الأول : أنا لست موظفا ولا علاقة لي بأية جهة رسمية . أنا مناضل قطاع خاص ، ومتفائل أيضاً .
الثاني : أما أنا فيائس ومتشائم **قطاع** عام .
الأول : لولا هذا البرد المريع لما بقيت معك لحظة واحدة .
الثاني : هناك أزمة طاقة .
الأول : إذاً نحن نجلس في أزمة الطاقة .
الثاني : وأين أزمة الطاقة؟
الأول : في البرميل .
الثاني : وأين البرميل؟
الأول : في الوطن .
الثاني : وأين الوطن؟
الأول : في قلوبنا ، في قلوب الجماهير .
الثاني : وأين الجماهير؟
الأول : في البرميل ، إذاً ، دحرجونا الى فلسطين ، **الى حيفا ويافا** .

الثاني : اخفض صوتك ، جاءت الدورية .

الأول : الى الناصرة ، الى بيت لحم .

الثاني : اذا لم تسكت ، فلن يدحرجوك ، الا الى بيت خالتك .

الأول : أعظم برد في العالم هو برد روسيا . هناك حيث تظل متجمدا باستمرار أمام عظمة الانجازات التي حققتها الشعوب .

الثاني : نحن والحمد لله ، دون ثلج أو صقيع أو أوحال ، متجمدون منذ الجاهلية حتى الآن .

الأول : أعظم وحل في التاريخ هو وحل روسيا . هناك حيث تنزلق أقدام المجتمع من الاقطاع الى الاشتراكية الى الشيوعية دون أن يشعر أحد بذلك . انه وحل صبور وداهية .

الثاني : اما الوحل العربي ، فهو عصبي وانفعالي جعل الأمة العربية بكاملها تتزحلق خلال شهور فقط من تحرير فلسطين وضرب مصالح الشرق والغرب الى تحرير النبطية وسوق الغرب وتصبح على خير .

الأول : كل هذا الذي حدث ويحدث لأن الشكل النهائي لخريطة النضال العربي لم يكتمل بعد .

الثاني : اذا بقيت مفاهيم النضال العربي كما هي عليه الآن ، فإن الشكل النهائي لخريطته ، وخريطة الوطن العربي نفسه ، لن يكون في المستقبل الا كشكل الخنفس بعد ان يقول له حلاق السجن "نعيما" وتصبح على ألف خير .

الأول : هل تنام؟

الثاني : نعم وشراع الحق حطام .

الأول : الى متى؟

الثاني : حتى تنتهي مفاوضات خلدة .
الأول : ولكنها لن تنتهي كما تريد أمريكا .
الثاني : ولا روسيا .
الأول : لا تقرن اسم صديقة الشعوب بعدوة الشعوب .
الثاني : اهدأ قليلا ستقلب بنا البرميل .
الأول : لينقلب العالم بأسره . لن تنتهي المفاوضات كما يحلو لأعداء هذه الأمة . فالخلافات قائمة على قدم وساق فيما بينهم . أين الراديو؟ اريد أن أسمع آخر الأخبار .
الثاني : بدون راديو أو صحف أو تلفزيون . أنا أقول لك آخر الأخبار وأول الأخبار منذ النكبة حتى الآن .
كل طبخة سياسية في المنطقة ، أمريكا تعدها ، روسيا توقد تحتها ، وأوروبا تبردها ، واسرائيل تأكلها ، والعرب يغسلون الصحون .

* * *

مستعمرة الجذام

التوتر الحالي الذي تعيشه المنطقة أو الظروف العصيبة التي تمر بها أو الخطر الصهيوني أو الاستعماري أو الامبريالي (سمِّه ما شئت) والذي يتهدد الوجود العربي من أكبر رأس الى أصغر رأس في جميع أرجائها .

العرب يعزونه الى وجود اسرائيل .

واسرائيل تعزوه الى الاستعدادات العربية لازالتها من الوجود .

وأمريكا تعزوه الى رغبة روسيا في الهيمنة على المنطقة .

وأوروبا تعزوه الى التواجد الفلسطيني على أراضي لبنان .

والفلسطينيون يعزونه الى طردهم من لبنان .

والأمم المتحدة تعزوه الى عدم التحلي بالصبر وضبط النفس .

ومصر تعزوه الى تجميد اتفاقيات كامب دافيد ومفاوضات الحكم الذاتي .

وايران تعزوه الى حرب الخليج .

والدول الثورية تعزوه الى عدم التمسك بأهداف الجماهير .

والدول المحافظة تعزوه الى عدم التمسك بحبال الاسلام .

والاقتصاديون يعزونه الى الفائض النفطي .

والخبراء يعزونه الى أطماع اسرائيل التاريخية في المياه العربية .

والعسكريون يعزونه الى زيادة التسلح في المنطقة .

والغربيون يعزونه الى صواريخ "سام ٦" والشرقيون الى "أف ١٦" .

والأقمار الصناعية تعزوه الى تزايد الأساطيل الأجنبية في المنطقة .

وقد يذهب البعض ويلف ويدور ليصل الى تلوث البيئة والغواصات في أعماق البحار ، أو القمر والزهرة وعطارد في أعماق الفضاء ، لطمس السبب الحقيقي والتاريخي ألا وهو الارهاب العربي وانعدام حرية الرأي والتعبير في هذه المنطقة .

ولذلك ، فكل هذه الاتصالات والمشاورات التي تجري هنا وهناك وهذه الحيرة التي تعمّ العواصم العربية والأجنبية حول أي القضايا الأكثر الحاحا للبدء بحلها . قضية الجنوب . قضية الجبل . وهل القضية اللبنانية مرتبطة بحل قضية الشرق الأوسط اولا ، أم ان حل قضية الشرق الأوسط مرتبطة بحل القضية اللبنانية ، لا تثير في النفس الا الأسى والحزن ، لأن العرب يعرفون وأمريكا تعرف وروسيا تعرف وجزر القمر تعرف واسرائيل أول العارفين أنه لا يمكن حل لا أزمة الجنوب ولا أزمة الشمال ولا أزمة المقاومة ولا أزمة المستوطنات ولا أزمة الحكم الذاتي ولا أزمة الحرب العراقية ـ الايرانية ولا حتى أزمة بقعة الزيت الطافية في بحار الخليج ، قبل حل أزمة الانسان العربي مع السلطة ، وانهاء أحكام المقاطعة العربية المطبقة عليه بنجاح منذ عام ١٩٤٨ قبل الميلاد حتى الآن .

أليس من العار بعد كل هذا التطور العلمي والحضاري الذي حققته البشرية وبعد مئات الجامعات وآلاف المدارس التربوية والفنية

والأدبية والمسرحية والفندقية التي تغطي أرض الوطن العربي أن تظل لغة الحوار الوحيدة بين السلطة والمواطن هي الرفس واللبط وشد الشعر؟

ترى لو أن اسرائيل منذ نشأتها وزرعها في قلب الوطن العربي بدأت بكم الأفواه وبناء السجون وتجويع العمال وسرقة الفلاحين ، وكلما احتج طبيب اعتقلته ، أو ارتفع صوت أخرسته ، ثم انصرفت الى التهريب والاصطياف والاستجمام وتنقيط الراقصات في ربوع أوروبا . . . هل كانت تحتل الضفة الغربية وسيناء والجولان ، وتدمّر المفاعل النووي العراقي وتعزل مصر وتجتاح لبنان وتتطلع الى الهند وباكستان؟

من تنشق زهرة برية أو طارد فراشة أو سمع سعال عصفور عند الفجر منذ سنوات؟

من تأمل القمر أو الغروب أو شرب الماء براحتيه من ساقية منذ قرون؟

من سمع ضحكة عربية من القلب منذ بدء التاريخ؟

لا شيء غير القتل والنهب وسفك الدماء .

لا أحد يفكر أن هناك طفولة يجب أن تنمو .

شفاها يجب أن تقبل .

عيونا يجب أن تتلاقى .

أصابع يجب أن تتشابك .

خصورا يجب أن تطوق بغير القنابل والمدى والمتفجرات .

أيها العرب ، استحلفكم بما تبقى في هذه الأمة من طفولة وحب وصداقة وأشجار وطيور وسحب وأنهار وفراشات .

استحلفكم بتحية اعلامها عند الصباح وإطراقة جبينها عند

المساء . لقد جربتم الارهاب سنين وقرونا طويلة وها أنتم ترون الى أين أودى بشعوبكم .

جربوا الحرية يوما واحدا لتروا كم هي شعوبكم كبيرة وكم هي اسرائيل صغيرة .

* * *

أنا الحاوي

أنا العرب دون نفط .
وعبد الناصر دون ميكروفونات .
أنا المؤامرة على لبنان ولا أستطيع فضحها .
مجازر حرب الخليج ولا أستطيع وقفها .
المقاومة الفلسطينية تنهار ولا أستطيع دعمها .
البطون الجائعة في كل بيت ولا أستطيع إطعامها .
الأجساد العارية على كل رصيف ولا أستطيع سترها .
الجراح العميقة في كل قلب ولا أستطيع تضميدها .
الخناجر المغروسة في كل ظهر ولا أستطيع نزعها .
الدموع على كل وجه ولا أستطيع تجفيفها .
الوحدة القاتلة في كل سرير ولا أستطيع تخفيفها .
الجثث المبعثرة في كل خطوة ولا أستطيع دفنها .
النسور الحبيسة في كل قفص ولا أستطيع اطلاقها .
الحقوق المهدورة في كل مكان ولا أستطيع لمسها .

أي أن جميع الطاقات السياسية والفكرية والاقتصادية والعاطفية كالحب والخير والجمال والصداقة والخبرة والوفاء وطرافة الحديث وشدة الانتباه يجب أن تجد نفسها أمام العجز الكامل .

أي ان الانسان العربي لا يستطيع في هذه الظروف العصيبة التي تمر بها أمته أن يلعب أي دور سياسي أو ثقافي أو اجتماعي أو نضالي ولو غناء مثل عبده الحامولي أو صالح عبد الحي .

ولكن ، من جهة أخرى ، لقد دربت الدببة على الرقص .

والقردة على الغناء .

والبلابل على النعيق .

والنمل على الفوضى .

والماعز على النظام .

والثعلب على الوفاء .

والكلب على الغدر .

والسنونو على الاقامة .

والدجاج على الهجرة .

والذئب على التسامح .

والبجع على الحقد .

والحملان على الصمود .

والأرانب على التهور .

والضفادع على الصمت .

والببغاء على الخطابة .

والسمك على النوم .

والجراد على الزحف .

والسلحفاة على القفز .

ولم أستطع تدريب انسان عربي واحد على صعود الباص من الخلف والنزول من الأمام ، فكيف بتدريبه على الثورة .

ولذلك زودت أطفال الشرق منذ الآن بعناوين الأونروا ووكالات غوث اللاجئين ، ودربتهم على الوقوف في طوابير الاعاشة وآداب النوم في الملاجىء والاستلقاء في المقابر الجماعية ، ودربت قاصراته على آلام الاغتصاب وضرورة التمسك بلعبهن ، بحصالات نقودهن ، بثياب الموتى من حولهن ، ألاّ يأخذن ابداً بالشعار الذي أطلقته اسرائيل عام ١٩٤٨ : "العرض قبل الأرض" لأن الأرض قبل العرض والطول .قبل بيارات البرتقال وبساتين الليمون ، قبل زرقة البحر وغناء الصيادين ومواويل الفلاحين ، قبل الزراعة والصناعة والفن والعلم والمعرفة واليمين واليسار ، والماضي والحاضر والمستقبل ولكنها ليست قبل الحرية .

* * *

طفح جلدي

تكتب عن دول الخليج فتتحسس ايران .

تكتب عن ايران فتتحسس دول الخليج .

تكتب عن اليسار في الوطن العربي فيزعل اليمين .

تكتب عن اليمين فيزعل اليسار

تكتب عن جماعة عرفات فتأخذ جماعة أبو موسى على خاطرها .

تكتب عن جماعة أبو موسى فتأخذ جماعة عرفات على خاطرها .

فالكل حساس وشاعري . وبشرته السياسية لا تحتمل النسيم العليل في هذه المرحلة . والكل له حساباته الداخلية والخارجية والاقتصادية والأمنية والدينية والتاريخية وتكتكاته الاعلامية والمرحلية والاستراتيجية التي يجب مراعاتها والتوفيق فيما بينها عند كل كلمة يكتبها كاتب أو تمثيلية يخرجها مخرج أو أغنية يغنيها مطرب ، أو نكتة يلقيها مهرج .

وبما أنني لست الشاذلي القليبي لكي أوفق بين آلاف الأمزجة والطباع والتناقضات ، وأنا ابتسم فان الرد الوحيد والجاهز لدي على أول حرف يحذف لي مرة أخرى هو فورا وبدون تردد :

جميع الأنظمة العربية على رأسي
ودول الخليج على عيني
وايران على عيني الثانية
ومنظمة التحرير على ظهري
والجيوش العربية على صدري
ومنظمة اوبيك على بطني
والحريات العامة على رجلي .

فمنذ زمن بعيد وأنا أشعر بأنني وقفت أكثر مما يلزم الى جانب الانسان العربي الذي هو نفسه لا يقف الى جانب نفسه ، وبأنني ظلمت الأنظمة العربية وتجنيت عليها أكثر مما يجب عندما ركزت على ما عندها من سلبيات على حساب ما قدمته لشعوبها من ايجابيات لا يمكن لأي حضري أو بدوي مهما دفن رأسه تحت الرمال أو تحت الوسائد أن ينكرها ويتجاهل أثرها في الحياة وفي المجتمع .

فناهيك عن شق الطرقات وتشجير الصحارى وتحلية مياه البحر واستصلاح الأراضي وتوسيع المدن وإنارة القرى ، والزامية التعليم ، ومجانية الطب ، ومكافحة التسيب والفساد والبغاء ، واستقلالية القضاء ، وعن تحديث المجتمع العربي بأسره ، ونقله من ظلمات الجهل والتخلف الى مستويات ظهرت مرارا على أغلفة "التايم" والنيوزويك" و"اللوموند" وكبريات الصحف والمجلات العالمية .

فهناك الايجابيات الكبرى على الساحة العربية والقومية واسمحوا لي أن اعدد بعضا منها على سبيل المثال لا الحصر :

نسف مقر المارينز والوحدة الفرنسية في بيروت .
نسف مقر الحاكم العسكري الصهيوني في صور .

تصعيد المقاومة اللبنانية في الجنوب المحتل .
واستئنافها في داخل فلسطين المحتلة .
رفض مشروع الرئيس ريغان والتمسك بمقررات قمة فاس .
اسقاط حكومة بيغن وربما اسقاط ريغن نفسه .
قرب عودة العلاقات بين الاتحاد السوفياتي ومصر وبين مصر والعالم العربي .
وقطعها مع السلفادور وكوستاريكا .
تقديم كافة المساعدات المادية والمعنوية للدول الفقيرة ولحركات المقاومة في ايرلندا وأفريقيا واميركا اللاتينية وأفغانستان .

* * *

حتى الارهاب العربي الذي غطى المنطقة وخارجها بالدماء والجماجم والمخطوفين والمفقودين ، وبكل ما قام به من اغتيالات سياسية وتصفيات جسدية ومقابر جماعية هو ارهاب ايجابي وجزء اساسي من الخطة العربية المتكاملة منذ الخمسينيات حتى الآن في صراعنا مع العدو الصهيوني ولكنه جزء سيكولوجي أو بيولوجي كما سيتضح للسذج وقصيري النظر في المستقبل . واسمحوا لي بأن اوضح لكم ذلك : فالمعروف تاريخيا أنه كلما لاح في الأفق شبح معركة أو حرب جديدة بين العرب واسرائيل يهب الاعلام الصهيوني والمتعاطفون معه في جميع أنحاء العالم ويبدؤون بالصراخ والعويل والاستهزاء وتأليب الرأي العام العالمي ضدنا :
مئة وخمسون مليونا على ثلاثة ملايين؟
أين التكافؤ؟ أين الشهامة؟
أين الفروسية في مثل هذه المعركة؟

ولقطع الطريق عليهم نهائيا ونزع هذه الورقة من أيديهم مستقبلا فقد صمم الارهاب العربي على متابعة تصفياته الجسدية حتى لا يبقى من المئة والخمسين مليون عربي سوى ثلاثة ملايين فقط ، أي بعدد سكان اسرائيل تماما . وعندما تبدأ المعركة الفاصلة لا تستطيع هي وعملاؤها والمتعاطفون معها في الخارج ان يسخروا من العرب والادعاء بأن المعركة غير متكافئة .

والآن اسمحوا لي أن أضع عشرين شريطا لناظم الغزالي واغلق الباب على نفسي حتى الأسبوع القادم .

* * *

ملكة النحل

اذا كان لكل من القوى والأحزاب والطوائف والميليشيات المسلحة في لبنان خط أحمر أو أخضر أو أصفر تنسحب اليه عند الضرورة . فالمواطن اللبناني العادي ، الى أين ينسحب ، وليس له في وطنه سوى خط تلفون ومقطوع أيضاً؟

ثم لبنان الذي فتح لنا حدوده في يوم من الأيام لنطمئن ، وصحفه لنكتب ، ومدارسه لنتعلم ، وقدم لنا خبزه لنأكل ، وينابيعه لنشرب ، وشواطئه لنسبح ، وجباله لنصطاف ، وثلوجه لنتزلج ، وشمسه لندفأ ، وذراعه لننام ، ونواقيسه لنصحو ، وحاناته لنلهو ، وجوامعه لنتّعظ ، ومقاهيه لنتحاور ، ومنابره لنصرخ ، ولياليه لنحب ، وحتى روشته لننتحر . . . لماذا يعامل بكل هذه القسوة والسادية والتشفي ، محليا وعربيا ودوليا؟

هل هو المسؤول عن وعد بلفور وتقسيم فلسطين؟
هل هو المسؤول عن العدوان الثلاثي؟
هل هو المسؤول عن تحويل روافد نهر الأردن؟
هل هو المسؤول عن حرب اليمن؟
هل هو المسؤول عن نكسة حزيران؟
هل هو المسؤول عن ايلول الأسود؟

هل هو المسؤول عن بناء المستوطنات؟
هل هو المسؤول عن زيارة السادات للقدس؟
هل هو المسؤول عن تهويد القدس؟
هل هو المسؤول عن حرب الخليج؟
هل هو المسؤول عن اتفاقية سيناء؟
هل هو المسؤول عن اتفاقيات كامب دايفيد؟ . . .

بل ماذا يأخذون عليه في المنطقة . ولا يوجد عندهم منه اضعاف ما عنده؟

ظلم اجتماعي؟ أين عدالتهم الافلاطونية؟ تمثيل نيابي غير متوازن؟ وعندهم لا يوجد تمثيل لا متوازن ولا غير متوازن .تحكمه عقليات متخلفة؟ حتى اسرائيل التي تدعي أنها في المنطقة واجهة للتقدم والحضارة الالكترونية ، لا يزال نصف شعبها وحكامها يؤمنون بياجوج وماجوج .

يريدون أن يعود له وجهه العربي الأصيل : وهل الوجه لا يكون عربيا واصيلا الا اذا كان ملفوفا بالضمادات ومغطى بالجروح والقطب والمراهم؟ ثم ما فائدة الوجه اذا كان عربيا ، والقفا اميركيا او انكليزيا او فرنسيا؟

ولذلك ، فيا أيها المسلحون الأكارم ، أيا كانت انتماءاتكم وطوائفكم وأهدافكم وأنواع أسلحتكم ، تابعوا اعمالكم ولا تبقوا على شيء في لبنان .

غيّروا وجهه وحدوده وخريطته .

دمروا المعامل والمصانع والمقاهي والفنادق ودور السينما ودور اللهو ودور السكن .

اقصفوا حنجرة فيروز ووديع الصافي وزكي ناصيف ، وألحان الرحابنة وتوفيق الباشا ووليد غلمية .

لوحات رفيق شرف وتماثيل الفريد بصبوص .

قصائد سعيد عقل وأنسي الحاج وطلال حيدر ومحمد علي شمس الدين .

مؤلفات سعيد تقي الدين وجبران والشرتوني وعبد الله العلايلي .

مسرحيات شوشو ونبيه أبو الحسن ونضال الأشقر ورضا كبريت .

أحرقوا الصحف والمجلات ، ودمروا المطابع الحديثة والقديمة . ودار الفكر ، ودار القلم ، ودار العلم ، ودار التقدم ، ودار الكلمة ، ودار الأديب ، ودار الآداب ، ودار العودة ، ودار الكلمة ، ولا تتركوا في لبنان الا الدخان والخرائب والأبواب المتأرجحة على مفاصلها ، ولكن فقط ترفقوا بالأطفال والتلاميذ الصغار ، فما جريمتهم اذا ولدوا في لبنان وفي هذه المرحلة؟

ولذلك ، اذا ما قتل بعد اليوم رضيع على صدر أمه ، أو تلميذ في طريقه الى مدرسته في لبنان وغير لبنان ، فلسوف اطلب من جميع المحافل الدولية ألا تقبل بعد الآن أي عضو أو مبعوث أو سفير من هذه المنطقة ، الا اذا كانت عُصابة الريش حول رأسه ، وجعبة السهام والرماح في كتفه ، وأوراق الشجر على عورته .

* * *

تقدم ملموس

خرج المسؤول اللبناني المكلف بتحقيق الوفاق الوطني في لبنان من مكتب المسؤول الأعلى الذي كلفه وهو يفرك يديه حماسة وأملا بنجاح مهمته . وفور خروجه اجتمع بمستشاره القانوني لشؤون الوفاق وقال له وهو يتحاشى قذيفة "هاون" : لبنان يحترق . لبنان بأرضه وشعبه ووجوده يتعرض لمؤامرة كبرى . ومسيرة الوفاق الشامل والمدروس لا يمكن ايقافها ودحرها ، فمن أين نبدأ؟ فقال المستشار وهو يتحاشى قذيفة "آر . بي . جي" نبدأ من أول الخيط من اخوته العرب .

المحطة الأولى : كنا دائما مع لبنان وسيادته وحريته ، ونحن كدولة مواجهة ، فما توافق عليه دول المواجهة نحن موافقون عليه .

دولة مواجهة : كنا دائما مع لبنان وحريته وسيادته . ونحن كدولة مواجهة ، فما توافق عليه دول المساندة نحن موافقون عليه .

دولة مساندة : كنا دائما مع شعب لبنان وسعادة لبنان . ونفتقد أمنه واستقراره في جميع الظروف والأوقات وخاصة في فصل الصيف . ونحن كدول مساندة نظل في النتيجة أعضاء في الجامعة وما توافق عليه الجامعة نحن موافقون عليه .

الجامعة العربية : كان لبنان ولا يزال عضوا فعالا في الجامعة ، ولذلك فالمأساة التي يتعرض لها مسؤولية عربية بالدرجة الأولى .

ولذلك ما توافق عليه جميع الدول العربية دون استثناء نحن موافقون عليه ، بما في ذلك مصر .

مصر : نوافق على ما توافق عليه الدول المتحضرة فقط .

الدول المتحضرة : كنا دائما نعي دور لبنان الحضاري والثقافي في المنطقة ، ولذلك ما توافق عليه السعودية نحن موافقون عليه .

السعودية : كان لبنان ولا يزال عزيزا علينا غاليا على قلوبنا . ونحن كبلد اسلامي فما توافق عليه الدول الاسلامية الأخرى نحن موافقون عليه .

الدول الاسلامية : يحتل لبنان وما يتعرض له من مصاب جزءا كبيرا من دعواتنا وصلواتنا وخاصة في مواسم الحج والعمرة . لأننا نعتبر سلامته من سلامة راولبندي او مقاديشو . ونحن كأعضاء في دول عدم الانحياز ، فما توافق عليه هذه الدول نحن موافقون عليه .

دول عدم الانحياز : كان لبنان ولايزال عضوا محترما ومرموقا في كتلة عدم الانحياز ، وكنا دائما نعتبر مصيره جزءا من مصير باندونغ وكولومبو ونحن كأعضاء في الأمم المتحدة فما توافق عليه هذه المنظمة نحن موافقون عليه .

الأمم المتحدة : كان لبنان عضوا بارزا ونشطا في الأمم المتحدة . ولكن ماذا يمكن لهذه المنظمة ان تفعل له أو لغيره دون مساعدة روسيا وامريكا .

روسيا : كان لبنان بلدا صديقا ومناضلا عنيدا من أجل السلام ونحن دائما حريصون على أمنه واستقراره . فبعد أزمة القمح والأزمة الصحية للرئيس بريجنيف وأزمة الجينز في بلادنا تحتل أزمة لبنان حيزا كبيرا من اهتمامنا وتفكيرنا لأننا نعتبر مستقبله جزءا من مستقبل

اوكرانيا وقفقاسيا . ولكن حتى لا نضطر لمجابهة نووية مع امريكا بسببه ، فما توافق عليه امريكا نحن موافقون عليه .

امريكا : كنا دائما مع استقلال لبنان وسيادته على جميع أراضيه . وفي كل مؤتمر عن أزمة الطاقة ، أو خطاب في البيت الأبيض عن قناة بانما ، أو مناسبة انتخابية في أوكلاهما ، كان لنا فقرة أو فقرتان عن لبنان . ولذلك ما يوافق عليه اللبنانيون بجميع أحزابهم وطوائفهم نحن موافقون عليه .

الكتائب : ما يوافق عليه الأحرار نحن موافقون عليه .

الأحرار : وما توافق عليه الرابطة المارونية نحن موافقون عليه .

الرابطة : وما توافق عليه الكتلة الوطنية نحن موافقون عليه .

الكتلة : وما يوافق عليه الأرمن والاكراد نحن موافقون عليه .

الأكراد : وما يوافق عليه حراس الارز نحن موافقون عليه .

حراس الأرز : وما يوافق عليه سعيد عقل نحن موافقون عليه .

سعيد عقل : ما يوافق عليه صنين وقلعة جبيل وأعمدة بعلبك نحن موافقون عليه .

أعمدة بعلبك : ما يوافق عليه أعمدة السياسة أنا موافقة عليه .

المرابطون : ما يوافق عليه الاشتراكيون نحن موافقون عليه .

الاشتراكيون : ما يوافق عليه الناصريون والقوميون والشيوعيون نحن موافقون عليه .

الشيوعيون : ما يوافق عليه اتحاد العمال نحن موافقون عليه .

اتحاد العمال : وما يوافق عليه اتحاد الكتاب نحن موافقون عليه .

اتحاد الكتاب : ما يوافق عليه أدونيس نحن موافقون عليه .

ادونيس : أنا موافق ، اذا وافق سان جون بيرس .

جميع الكتاب والشعراء وأصحاب الفعاليات والعاهات : ما توافق عليه جميع الميليشيات المسلحة نحن موافقون عليه .

المنظمات المسيحية : ما توافق عليه المنظمات الفدائية نحن موافقون عليه .

المنظمات الفدائية : وما توافق عليه السلطة الشرعية نحن موافقون عليه .

السلطة الشرعية : وما توافق عليه القوات الدولية نحن موافقون عليه .

القوات الدولية : ونحن موافقون اذا وافقت قوات سعد حداد .

سعد حداد : وأنا موافق اذا وافقت . . . اسرائيل .

* * *

نعم لم أسمع

نهض المواطن عرب بن عروبة بن عربان مبكرا من فراشه ، فغسل وجهه بسرعة بالماء المثلج ، وحلق ذقنه كيفما اتفق بشفرة مثلمة ، وضرب شعره ضربتين بمشط مكسور ، ثم ألقى نظرة عابرة الى وجهه وقيافته ، ثم الى أمه وأخته ، قبل أن يتأبط مصنف "قضيته" وينطلق الى دوائر الدولة للمراجعة في شأنها . لقد استغفلهم صاحب البيت وتنكر لعشرين سنة من صباح الخير يا جار ومساء الخير يا جار وتقدم بدعوى قضائية لاخلاء المأجور وطردهم منه الى الشارع .

ولكنه كان واثقا ان الدولة لن تنساه في محنته هذه . وان حربة الظلم لا يمكن ان تنفذ من كل ما في دوائر الدولة من موظفين واختام ومصنفات لتستقر في قلبه . واستقل الباص ، وقصد مكتب القاضي المختص بقضايا المواطنين في وزارة العدل .

الحاجب : نعم؟

المواطن : هل سيادة القاضي موجود؟

الحاجب : لا . انه مسافر .

المواطن : الى اين؟

الحاجب : الى جنيف لحضور مؤتمر الحقوقيين الدوليين .

المواطن : ومتى يعود؟

الحاجب : لا أعرف . وغرق في احدى روايات أرسين لوبين .
واستقل المواطن باصا آخر لمراجعة مسؤول آخر .
حاجب آخر : نعم؟
المواطن : هل الاستاذ فلان موجود؟
الحاجب : لا . انه مسافر الى سيؤول لحضور مؤتمر للتضامن مع الشعب الفلسطيني .
المواطن : ومتى يعود؟
الحاجب : لا أعرف . وانصرف الى براد الشاي يعده ويخمره .
واستقل المواطن باصا آخر لمقابلة مسؤول آخر .
السكرتيرة : نعم؟
المواطن : هل الدكتور فلان موجود؟
السكرتيرة : لا . مسافر الى لاغوس لحضور مؤتمر للتضامن مع الشعب الأرتيري .
المواطن : ومتى يعود؟
السكرتيرة : لا أعرف . وانصرفت الى مجلة "الشبكة" .
واستقل المواطن باصا آخر لمقابلة مسؤول آخر .
سكرتيرة اخرى : نعم؟
المواطن : هل الأستاذ الدكتور موجود؟
السكرتيرة : لا . انه مسافر الى مالطا لحضور مؤتمر التضامن مع الشعب الكوري .
المواطن : ومتى يعود؟
السكرتيرة : لا أعرف . وغرقت في مجلة "بوردا" .
وعندما انتهى الدوام الرسمي وخلت الدوائر والمكاتب من الموظفين

والمراجعين ، ولم يبق فيها الا الأوراق والمعاملات والمصنفات ، وبعد ان تورمت قدماه من صعود الادراج وهبوطها ، لم يبق أمامه ما يفعله سوى الانتظار مرة أخرى مع مئات المنتظرين عند مواقف الباصات للعودة الى بيته وأهله . وعندما ابتسم له الحظ وأقبل الباص شُتم أثناء الصعود ونُشل أثناء النزول .

وعندما وصل الى مدخل الحارة فوجىء بأغراض بيته مكومة في الشارع وأمه وأخته تجلسان عليها . وكل منهما وضعت يدها على خدها وراحت تحدق في هذا العالم . ولما كان بطبعه هادئا مسالما فقد سأل بهدوء : متى حدث ذلك؟

فأجابته الأم دون أن تنظر اليه : بعد ذهابك بقليل .

فربت على كتفها مواسيا ، وجلس القرفصاء على كومة الأغراض والمعاملة لاتزال تحت إبطه . ونظر بحنان الى اخته الصامتة الشقية وسأل : ما بها؟

فقالت الأم : فوق همنا هذا ، ونحن نخرج الأغراض والأمتعة ، وفيما هي منحنية لحزمها ، جاء أحد المارة وقرصها في مؤخرتها .

فقال متنهدا : بسيطة .

فقالت الأم : بسيطة ، بسيطة . وماذا ستفعل الآن . والليل قد أقبل؟ هل ننام في الشارع؟

فقال لها : لا تبتئسي يا أمي ان الدولة لا يمكن أن تنساني أنا واثق من ذلك .

وهنا أقبل نحوه شرطي يجرجر قدميه من التعب ، وسأله وهو يخرج بعض الأوراق من حقيبته الجلدية : هل أنت المواطن فلان الفلاني؟

المواطن : نعم .
الشرطي : مطلوب لخدمة العلم .

* * *

وجبة اليوم وكل يوم

كان المحاضر العربي والمتجول في جامعات أوروبا والذي نزح عن وطنه منذ سنوات طويلة هربا من الجوع والارهاب ، يتجول ذات مساء في شوارع احدى المدن الأوروبية وكل ما حوله من ديموقراطية وعدالة ونظام كان متلألئا ومتناسقا مثل شجرة الميلاد .

المظلات فوق الرؤوس ، والمارة فوق الأرصفة ، والقانون فوق الجميع ، يا لها من حضارة مهذبة ودود كالقطة المنزلية الأليفة .

ودخل احد المطاعم الفاخرة ليتناول عشاءه ، فاستقبله "الميتر" بابتسامته المعهودة للغرباء ، وقدم لائحة الطعام ووقف بانتظار طلباته .

فقال له الأستاذ الغريب : انني متعب من القراءة والكتابة فاقرأ لي القائمة اذا أمرت .

قال "الميتر" بحماس : أمرك سيدي . عندنا ويسكي اسكتلندي ، وبيرة المانية ، وخبز كندي ، وشوربة سويسرية ، وجبنة فرنسية ، ولحم ارجنتيني ، وكافيار روسي ، ومعكرونة ايطالية ، وشاي سيلاني ، وقهوة برازيلية ، أما الأقداح فهي تشيكية والفوط والمناشف امريكية .

فشعر الأستاذ بغربة عميقة عن كل ما قرىء له . وانتابه حنين جارف الى أي شيء يذكره بوطنه وبلاده .

فسأله : أليس عندكم أي شيء عربي؟

فقال الميتر : لا . ليس عندنا أي شيء عربي سوى "الخدم" .

وعاد الى وطنه في أول طائرة حاملا خبرته وشهاداته وأشواقه ليعوض
ما فات من عمره كل هذه السنين . وما ان وصل الى الفندق
حتى ترك فيه كل شيء ، ووضع يديه في جيوبه وراح يتجول
حتى آخر الليل في شوارع المدينة التي أحبها وهجرها وهو لا
يكاد يشبع من هوائها وأرصفتها وسمائها ونجومها وسط النقاش
العالي وراء جدرانها ، ودخل أحد المطاعم بعد أن أرهقه التجوال
الطويل ليتناول عشاءه فهب اليه "الميتر" بابتسامته المعهودة
مرحبا به وبطلباته فقال له الاستاذ الغريب :

اقرأ لي ما عندك من أطعمة ومشروبات ، فأنا كنت غائبا لسنوات
وسنوات عن الوطن . وقد لا أعرف ما تعنيه الاسماء في الوقت
الحاضر .

فقال : "الميتر" : عندنا عرق لبناني وفول سوداني وكباب حلبي ،
وملوخية مصرية ، وكبسة سعودية وفريكة عراقية وكوسكوس
تونسي وكنافة نابلسية وبطيخ اردني وقهوة عدنية . والطبخ
بجميع أنواعه عربي وكما ترى المطبخ شرقي والستائر شرقية
والراقصة شرقية والأغاني عربية وكذلك الفرش واللباس عربي .
وكذلك أنا وموظفو الاستقبال والطهاة والمحاسبون . كلنا عرب
بعرب .

فتنفس الأستاذ الصعداء وقال :

"يعني ليس عندكم أي شيء أجنبي؟

"الميتر" أبدا يا سيدي ،ليس عندنا أي شيء أجنبي ما عدا صاحب المحل . . .

* * *

وشمر عن ساعد الجد والعمل وانخرط في الحياة السياسية حتى

شحمة أذنيه .ودخل في حزب وخرج من آخر . وانضم الى هذه المنظمة ، وعارض تلك الكتلة . تغدى مع المعارضة وتعشى مع الموالاة . عجن اليمين وخبز اليسار . احتك بالأطباء والمحامين والتجار والمقاولين . يستوضح ويستكشف ويستوعب . سابراً غور السياسة العربية قبل كامب دايفيد وبعده . مسترشدا بقرارات القمة الموسعة والمغلقة . آخذا بالحسبان نقط الخلاف ونقط الالتقاء بين الأنظمة المعارضة والأنظمة الموالية لهذا المعسكر أو ذاك . ثم افتتح عددا من المشاريع في مختلف المجالات . ثم افتتح مطعما ووقف على بابه . وكلما دخل زبون وسأله :
هل اللحم والفراريج عندكم مذبوحة على الطريقة الاسلامية؟

يجيبه وهو يقدم له الشوكة والسكين :

ليس عندنا سوى الانسان العربي مذبوحاً على ألف طريقة وطريقة .

* * *

العقد الفريد

منذ أن صوبت اسرائيل الى العرب بأنظمتهم اليمينية واليسارية على حد سواء أول مدفع وأول كمبيوتر وأول طائرة بدون طيار ، وصوب العرب اليها أول انقلاب وأول ميكروفون وأول انسان دون فك لأنه يميني ودون اضلاع لأنه يساري .

ومنذ أن استقلت الدول العربية عن الاستعمار وعن شعوبها في الوقت نفسه ، واحتكرت السلطة فيها الفكر والسياسة والاقتصاد والعلم والمعرفة والأدب والفن والرياضة والثروة المعدنية والبشرية والحيوانية ، وجردت الانسان من أي قيمة أو فعالية أو حافز ، وتركته عاريا بثيابه الداخلية سياسيا وثقافيا وتاريخيا واقتصاديا بالطبع امام العالم أجمع . وكل طرف يحمِّل الآخر ما جرى ويجري في المنطقة .

فاليمين يضع اللوم على اليسار .

واليسار يضع اللوم على اليمين .

وأمريكا تضع اللوم على روسيا .

وروسيا تضع اللوم على أمريكا .

والانسان العربي الذي يعيش مثل "الاطرش بالزفة" بالنسبة لكل ما جرى ويجري في المنطقة ، يضع يده على خده ويتربع أمام شاشة التلفزيون وأمامه علبتا كلينكس ، واحدة على اليمين للانظمة

اليمينية ، وواحدة على اليسار للأنظمة اليسارية . ويبدأ من النشيد الى النشيد :

آه من هذا المسلسل ، وآه من هذه المسرحية .
آه اذا هرب لص ، وآه اذا قبض على قاتل .
آه من حرب حزيران ، وآه على حرب تشرين .
آه لزيارة السادات للقدس ، وآه لعودته منها .
آه لاستعادة سيناء ، وآه لاحتلال لبنان .
آه لحريق المسجد الأقصى ، وآه اذا احترقت الطبخة .
ومن قبل :
قيس يبكي ليلى .
وليلى تبكي قيسا
عنترة يبكي عبلة
وعبلة تبكي عنترة .
وعبد الله الصغير يبكي الاندلس
وأبو سلمى يبكي فلسطين
وسعيد عقل يبكي لبنان
ولبنان يبكي الجنوب
والجنوب يبكي المقاومة
والمقاومة تبكي العرب
والعرب يبكون مصر
ومصر تبكي الجميع .

آه كم ظلمنا فريد الأطرش واستهنا بآهاته وشهقاته ودموعه . انه الوحيد الذي سبق جميع الأحزاب والمفكرين والمستشرقين العرب

والأجانب في فهم النضال العربي سياسيا واجتماعيا وتاريخيا وايديولوجيا ، وأدرك موازين القوى التي تتحكم بنتائجه ومستقبله أكثر من جميع مراكز الدراسات الاستراتيجية في العالم ، وذلك عندما قضى حياته آهة آهة ودمعة دمعة . فقد كان بحق "كيسنجر العرب" طول ربع قرن ونحن لا ندري .

ولذلك ، علينا أن نرد له اعتباره ، ونعيد تقويم أغانيه ومواويله وآهاته . ونعلق صوره في مقر الجامعة العربية ، ومجلس الدفاع المشترك ، وخنادق المقاومة ، وقاعة مؤتمر خلدة ، ومنظمة أوبيك ، ومكاتب البعثات الديبلوماسية في الأمم المتحدة ، وأن نستفيد من خبرته ونستلهم أسلوبه في مواجهة الأحداث والتعامل معها .

فمن الآن فصاعدا .

على كل مذيع عربي أن يبدأ نشرة الأخبار . . . . بآهة وينهيها . . . بموال .

وكل سفير معين حديثا لدى دولة أجنبية ، فور الانتهاء من تقديم أوراق اعتماده ومن تبادل الكلمات حول تطوير العلاقة بين البلدين والتعاون المشترك لاحلال السلام في المنطقة ، عليه أن يشهق وينخرط في البكاء .

وكل عاشق ، فور ان يلتقي بحبيبته ويبثها ما عنده من أشواق وأحلام بتأسيس بيت وتكوين أسرة يرفرف عليه الحب والهدوء والاستقرار ، عليه أن ينخرط في البكاء .

وكل مدير مدرسة فور توزيع شهاداته على الخريجين وانتهائه من تقديم نصائحه وتمنياته لهم بالنجاح والتوفيق في حياتهم العملية لبناء وطن حر مستقل ، عليه أن ينخرط هو وبقية الاساتذة في البكاء .

وكل رئيس وزراء جديد : فور الانتهاء من تلاوة بيانه الوزاري ومن تعهده بإرساء القواعد الديموقراطية ، وتمتين الجبهة الداخلية والحفاظ على حقوق الشعب الفلسطيني وتحرير كافة الأراضي المحتلة . . وتوجيه التحية لشهدائنا الأبرار ، عليه أن ينخرط وأعضاء وزارته في البكاء .

ووسط هذا البحر المتلاطم من الدموع مازال الاعلام العربي يؤكد لنا يوما بعد يوم ان المستقبل مشرق في المنطقة . ولكنه لم يوضح أبدا ، اذا كان مشرقا لنا أم لاسرائيل؟

فلتتدفق الدموع من العيون ، والدماء من الجراح ، حتى تصل الى ركب السائرين كالكشافة وراء فيليب حبيب وغيره . فلن يتوقفوا ولن يتراجعوا . ولن يستقر لهم رصيد في بنك ، أو فرو على كتف ، أو راقصة في ملهى ، أو كافيار على مائدة ، أو سيكار في فم ، أو شاليه في منتجع ، حتى تذاع أغنية "ختم الصبر بعدنا بالتلاقي" من اذاعة اسرائيل واذاعات المنطقة في وقت واحد .

ومع ذلك لا شيء ينفجر حتى الآن من المحيط الى الخليج سوى اسطوانات الغاز .

* * *

ولكن الضفاف لا تجري

لم يعد خافيا على أحد ان صمت الطناجر البخارية في معظم مطابخ الوطن العربي وامتناعها عن الصفير في الوقت الراهن ما هو الا نوع من الاحترام والتهيب أمام صفير الطنجرة الكبرى في المنطقة وتصاعد البخار من فوهات مدافعها وميكروفوناتها عما قريب . بعد أن أخذ المدعوون يتسابقون الى المائدة وكل منهم يحمل صحنه وشعاراته بيده .

وانه على الرغم من ملايين الأقدام الفتية التي تدق كعوبها على الأرض العربية صباح مساء فلا شيء يدب عمليا على طريق التحرير سوى عكاز بسام الشكعة .

وان ازدحام السجون العربية بالمناضلين والأبرياء الذين يدقون رؤوسهم بالجدران والأبواب المغلقة دون جدوى يعني أن الترجمة العملية للاءات الخرطوم هي : لا صلح ، لا اعتراف ، لا مفاوضات مع الانسان العربي .

وانه لو حلت الآن بالمنطقة وبالعالم أجمع أفدح المصائب القومية أو الجغرافية أو المصيرية ، فان المواطن العربي ـ ردا على هذا المصير الذي آل اليه ـ لم يعد يقفز الى بندقية ليحارب او الى الشارع ليتظاهر ، أو حتى الى السطوح ليتفرج ، بل الى آلة الجيب الحاسبة ويحسب :

هل تؤثر على تجارته اذا كان تاجرا؟
او على محصوله اذا كان مزارعا؟
أو على شهرته اذا كان كاتبا؟
او على اعلاناته اذا كان صحافيا؟
او على امتحاناته اذا كان تلميذا؟
او على ترفيعه اذا كان موظفا؟

فاذا كان الجواب : "لا" فكل شيء على مايرام . السماء صافية ، والنسيم عليل ، ولا ينقصه الا وصلة غنائية أو مسرحية فكاهية ليقلب على قفاه من الضحك والانشراح وخلو البال .

وبناء على ما تقدم ، فان المبعوث المتجول فيليب حبيب لا يسعى من خلال زياراته المتلاحقة للمنطقة ، واجتماعاته الدائمة مع هذا وذاك الى اعداد الترتيبات اللازمة لانسحاب القوات الاسرائيلية من لبنان ، أو لايجاد الحلول العادلة لقضية العرب الكبرى ، بل لاعداد الترتيبات اللائقة بجنازة العصر . لها ولعدالتها ، مع الاهتمام بأدق التفاصيل والاجراءات المتعلقة بها وبجلال مظهرها مثل :

- من يعلن الوفاة رسميا ومتى؟
- ومن سيعزي بها؟
- ومن سيتقبل التعازي؟
- ومن سيبكي بصمت؟
- ومن سيغمى عليه عند الدفن؟
- وبماذا سيغطى الضريح الطاهر؟ بأغصان الريحان أم بأغصان الأرز أم بأغصان النخيل؟

فهذا زمن الاتفاق على كل شيء .

ولكنه ليس زماني ، فأنا كالخيزران . . . انحني ولا أنكسر .

فحتى لو رأيت المشيِّعين والموقّعين بأم عيني يمسحون حبر التواقيع عن بصماتهم بالجدران وثياب المارة .

ولو انتشرت سياط التعذيب على حدود الوطن العربي كحبال الغسيل .

وعلقت المعتقلات في زوايا الشوارع والمنعطفات كصناديق البريد .

وسالت دمائي ودموعي من مجارير الأمم المتحدة .

فلن أنسى ذرة من تراب فلسطين ، أو حرفا من حروفها ، لا لأسباب نضالية ووطنية وتاريخية بل لأسباب لا تزال سرا من أسرار هذا الكون كإخفاقات الحب الأول! كبكاء الأطفال الرضّع عند الغروب .

لقد رتبت حياتي وكتبي وسريري وحقائبي منذ الطفولة حتى الآن ، على هذا الأساس . فكيف أتخلى عن كل شيء مقابل لا شيء . ثم انني لم أغفر ضربة سوط من أجل الكونغو . . فكيف من أجل فلسطين؟

ولذلك سأدافع عن حقدي وغضبي ودموعي بالاسنان والمخالب .

سأجوع عن كل فقير .

وسأسجن عن كل ثائر .

وأتوسل عن كل مظلوم .

وأهرب الى الجبال عن كل مطارد .

وأنام في الشوارع عن كل غريب .

لأن اسرائيل لا تخاف ضحكاتنا بل دموعنا .

ولا بناء من عشرة طوابق بل شاعرا يكتب في قبو .

ولا تخشى وحدة بين مصرفين بل بين جائعين .
ولا اتحادا بين نظامين بل بين شعبين .
ولا القمم العالية بل ما يتجمع حولها في الوديان .

ولقد يكون هذا الزمان هو زمان التشييع والتطبيع والتركيع ، زمن الأرقام لا الأوهام والأحلام . ولكنه ليس زماني . سأمحو ركبتي بالممحاة ، سأكلهما حتى لا أجثو لعصر أو لتيار أو مرحلة . ثم أنا الذي لم أركع وأنا في الابتدائية أمام جدار من أجل جدول الضرب وأنا على خطأ . فهل أركع لبيغن أو لسواه أمام العالم أجمع بعد هذه السنين ، وأنا على حق؟

انني لست مخلصا لوطني وعروبتي وأناشيدي المدرسية وحسب بل انني مخلص حتى لسعالي .

ولن ايأس ، ولن أستسلم مادام هناك عربي واحد يقول : "لا" في هذه المرحلة ولو لزوجته .

* * *

المؤتمر

بدون مناسبة ، تخيلت نفسي ناطقا باسم الدول العربية ، اتحدث الى مندوبي الاذاعة والتلفزيون ومراسلي الصحف ووكالات الأنباء الأجانب عن أهم شؤون الساعة ، ونحن نحتسي القهوة العربية الأصيلة في قاعة المؤتمرات الصحفية في الأمم المتحدة .

مراسل انكليزي : ما هو سبب اصراركم على تقديم القهوة المرة دون سواها في جميع المؤتمرات والمناسبات؟

حتى نظل نتذكر مرارة الواقع الذي تعيشه أمتنا .

يتحدثون في الغرب كثيرا هذه الأيام عن تطورات مريبة في المنطقة ، ما تعقيبكم على ذلك؟

ليتحدثوا بما يشاؤون . فالشعوب في هذه البلاد معروفة بكثرة الكلام .

وأنتم؟

بالأفعال طبعا .

مراسل امريكي : ولكن هناك مؤشرات تؤكد تراجعكم عن بعض المواقف .

مستحيل ، لأننا لم نتقدم أصلا حتى نتراجع .

هل هناك ما يثبت ذلك؟

طبعا ، فمواقفنا السياسية واضحة وصريحة ونعبر عنها باستمرار في صحفنا . وهذه نماذج منها . تفضلوا ووزعوها على بعضكم . لا تجفلوا ، معكم حق ، هناك مشكلة اللغة ، فنحن عرب ولا نفهمها فكيف أنتم؟

مراسل فرنسي : الصحافة في الغرب تجاري السرعة والتطور ، فهي تقدم لقارئها أوسع المعلومات في أقل عدد ممكن من السطور . ولذلك بمجرد ان يتصفحها يلم بكل ما يجري في العالم ، ثم يرميها حيث هو في الباص أو الميترو وينصرف الى عمله .

من هذه الناحية نحن أرقى منكم . فالقارىء العربي يرمي الجريدة دون أن يقرأها .

مراسل سويدي : هل المعارضة مشروعة في الوطن العربي؟

طبعا .

مراسل البرافدا : ولكن القوى الديموقراطية محرومة من ابداء أي رأي .

اسكت أنت ، في بلادكم حتى الطرقات كلها باتجاه واحد .

المراسل السويدي : ولكن كمُّ الأفواه في المنطقة ظاهرة معروفة لدى الجميع .

هراء . ان حرية التعبير والكلام والمعتقد ، مضمونة لجميع فئات الشعب ، ويستطيع أي مواطن عربي في أي بلد عربي . . ان يدخل على أي مسؤول ويقول ما يشاء ، ولكن متى يخرج فهذه مسألة أخرى .

وعن ظروف المعتقلين وحالتهم الصحية والنفسية؟

مراسل البرافدا : دعونا من هذا الموضوع .

بل سنبقى فيه ، اذ ليس عندنا ما نخجل منه ، ثم نحن كما هو

معروف عنا لا نخجل من شيء . فبالنسبة لظروف المعتقلين ، فكل ما يقال هو افتراض ونسج خيال ، لأنه اذا كان أهلهم وآباؤهم وأمهاتهم لا يعرفون عنهم شيئاً منذ لحظة اعتقالهم ، فكيف يمكن للغرباء ان يعرفوا عنهم كل هذه المعلومات؟

مراسل امريكي : لنعد الى موضوع الساعة . ان الاعلام العربي لا يزال يصر على ان اسرائيل لم تحقق أهدافها من غزو لبنان .

طبعا .

وما هي أهدافها كما تعتقدون؟

اننا لا نعرف أهدافنا ، فكيف نعرف أهداف غيرنا .

مراسل أندونيسي : كنتم لسنوات خلت ناشطين جدا على الساحة الدولية ، ومتحمسين جدا لمؤتمر جنيف ، مؤتمر البندقية ، مؤتمر الاشتراكية الدولية ، للحوار العربي - الاوروبي ، للحياد الايجابي وعدم الانحياز . ثم فتر نشاطكم وانعدم حماسكم . لماذا؟ هل يئستم من العالم؟

لا . العالم يئس منا .

مراسل ايطالي : هل معنى ذلك أن قراراتكم الآن تصنعونها بمعزل عن جميع الظروف والتيارات الأخرى في العالم؟

ليس الآن . بل دائما ، قراراتنا وطنية ، لكن قطع الغيار من الخارج

مراسل ألماني : في هذا الزمن الذي هو زمن التحولات والتغيرات الكبرى ، في السياسة والفكر والعلم والاقتصاد ، نلاحظ أن جميع توجهاتكم ومنطلقاتكم مازالت كما هي ، ولم يتغير أي شيء جذريا في الوطن العربي .

ألا يكفي ان خريطته تتغير كل يوم .

مراسل هولندي : ما هو موقف الدول العربية من الثورة الايرانية؟
نحن لا نتدخل في شؤون الآخرين .
إذاً ، من وراء حرب لبنان ، وحرب الخليج ، والصحراء الكبرى وغيرها؟
الأصابع الأجنبية في المنطقة .
والأصابع العربية ماذا تفعل الآن في المنطقة .
تعزف البيانو .
مراسل رياضي : تولون الرياضة في بلادكم اهتماما خاصا ، تنفقون الملايين على الملاعب والمباريات ، وتأهيل اللاعبين ، ومع ذلك فقلما فاز فريق عربي بجائزة تذكر . لماذا؟
أنا شخصيا ، لم أكن متحمسا في يوم من الأيام لهذا الاهتمام الزائد بالرياضة وخاصة كرة القدم . لأن العربي بطبعه لا يحب اللعب الا بالقضايا الكبرى .
مراسل صيني : الى أين وصلت خطواتكم لتحقيق الوحدة العربية؟
يكفينا الآن التضامن العربي .
ولكن ما يجري الآن على الساحة العربية يوحي بعكس ذلك . فلبنان يعمل على جبهة ، ودول الرفض على جبهة ، والدول المعتدلة على جبهة ، والمقاومة على عدة جبهات . ما معنى ذلك؟
معناه استقلالية الرأي وديموقراطية التوجه . ثم المهم المحصلة النهائية لهذه الجهود وأين ستصب؟
مراسل لبناني : والله لن تصب إلا في نهر الليطاني .
ولكنه سيعود . نهر الليطاني سيعود ، ونهر الأردن ، والنيل نفسه سيعود .

الى الاحتلال؟

بل الى الأرض العربية والمصير العربي .

مراسل هندي : إذاً ، لا تستبعدون مصر من العودة؟

طبعا لا . ولكن صورة كامب دايفيد لا تغيب عن ذهن واحد في هذه المرحلة .

هل من كلمة توجهونها للنظام المصري بهذه المناسبة؟

أرجو المعذرة ، فالعلاقات مقطوعة بيننا كما تعرفون ، والظروف دقيقة جدا .

مراسل فني : اذا كانت الكلمة تسبب احراجا ، فما رأيك باهدائه أغنية باسم الدول العربية؟

اذ كان لابد من ذلك ، فانني أهديه في هذه المرحلة اغنية فيروز "تعا ولا تجي" .

الجميع : معنى ذلك انك متفائل بالمستقبل؟

كل التفاؤل

وسعيد بالعمل العربي الحالي على الساحة العربية؟

كل السعادة . ثم أنا في الأصل اسمي سعيد ، وأبي مسعود وأمي سعدى وأختي سعدية . وان جاءني ولد فسأسميه "سعدان" .

* * *

إشكالات صحية

نصيحة لكل مواطن عربي يمينياً كان أم يسارياً ، مع الحل السلمي أم مع الحل العسكري ، اذا ما أصابه عارض صحي ، ألا يراجع طبيباً مختصاً .

كنت أردد هذا الكلام وسواه . وأنا في طريقي الى آخر عيادة رسمية أو خاصة لم أطرق بابها بعد . وكانت كأية عيادة في العالم الثالث ، أرضها مغطاة بالمرضى وجدرانها مغطاة بالشعارات . . وعندما جاء دوري امتثلت على الفور بين يدي الطبيب ومعي كل الوثائق التي تثبت خطورة حالتي وقلت له : دكتور ، استحلفك بالله ، بالبنسلين ، بالترومايسين ، وبقضية قضايانا الكبرى فلسطين ، انقذني . أذني مسدودة منذ أمد طويل . فسألني الدكتور بصوت مرتفع : منذ متى يا بني؟

ـ لا أعرف يا دكتور ، كل ما أعرفه ان قناة السويس فتحت وأذني لم تفتح .

ـ هل أصبت بمثل هذه الحالة في صغرك ، أو بالأحرى هل تحمل من طفولتك مرضا معينا؟

ـ ابداً ، لم أحمل من طفولتي حتى الآن سوى هموم القضية وكنت دائما سليم الجسم والطوية ، ودائم البهجة والسرور ، لأن الله

الحبيب خلقني في هذه المنطقة الحبيبة . وكنت طول حياتي ، اذا ما طنت أذني أو التهب حلقي نتيجة الافراط في السهر والتدخين والشراب ، أعرج على أقرب صيدلية وآخذ حبة أو ملعقة شراب وينتهي الأمر عند هذا الحد . . الى أن التقيت ذات يوم أحد اصدقائي المثقفين وأنا أهمُّ بدخول احدى الصيدليات لمثل هذه الغاية . فسألني باهتمام مما أشكو ، فقلت له لا شيء مجرد "وشة" خفيفة في الأذن . . . برشامة وينتهي الأمر . فاستوقفني بحزم قائلا : لا راجع طبيبا مختصا . لقد تطور الطب كثيرا في السنوات الأخيرة ، وعلينا ، نحن المثقفين ، ان نؤمن بالاختصاص ، ونشجع المختصين ونسهل عليهم مهمتهم . لا تقاطعني . واذا لم تفعل بنصيحتي ، لا أنت صديقي ولا أنا صديقك .

وفي اليوم التالي راجعت طبيبا مختصا . وفي الأسبوع التالي كان عندي من التحاليل والصور الشعاعية والوصفات الطبية ما يعادل مؤلفاتي كلها .

لقد كان له ما أراد واستأصل لي اللوزتين . وكل ما أذكره بعد ذلك ، هو أنني منذ غادرت المستشفى وقال الطبيب وهو يودعني "معافى ان شاء الله" لم أعرف طعم العافية . فبعد يومين التهبت أذني اليسرى واليمنى ، والتهبت المنطقة ، وصارت الوشة اثنتين . وكلما شربت قدح ماء ، يعود بعد قليل ليخرج من فمي وأنفي . أما بالنسبة لانسداد الاذن فقد أصبح عندي تقليدا لا يناقش فيه . فصرت لا أسمع ما يقال ولا يُفهَم ما أقول . ولما كنت جليسَ مقاهٍ ومدمنَ مناقشات ، فكنت لا تراني الا ويدي حول صيوان اذني متسائلا بصوت مرتفع عن كل كلمة تقال ومستفسرا عن رأي يطرح على

طاولتي وطاولات الآخرين . ولما كانت معظم مناقشات المقاهي سياسية ، فقد أخذ روادها يظنون بي الظنون ، واعتقدوا أنني من اياهم ، ولذلك صاروا يتهربون من أسئلتي اذا سألت ، ويصمتون اذا ما دخلت .

وكنت لا أنفك أراجع الطبيب تلو الطبيب والمستشفى تلو المستشفى دون نتيجة . لقد كانوا يتقاذفونني ككرة القدم ، شعبة الأذنية حولتني الى العينية ، ومن العينية الى العصبية ، ومن العصبية حولوني الى الداخلية ولو تابعت الانصياع لأوامرهم لحولوني الى الخارجية والدفاع .

ولذلك عيل صبري وسلمت امري لله . ورتبت أموري على أساس أن أعيش بقية عمري بأذنٍ واحدة خاصة انه لم يعد في المنطقة ، بشعاراتها وسياساتها وخطبائها واذاعاتها وأخبارها وأغانيها ما يستحق أن يسمع . . لكن يا دكتور ، لاحظت في الآونة الأخيرة أن الضجر قد زال من النفوس وحلّ محله الهياج والترقب والانفعال ، وحمي وطيس المناقشات من جديد في المقاهي . واستنفر الجميع حول اجهزة الاذاعة والتلفزيون ، فثار فضولي خاصة انه صار يتناهى الى سمعي بكثرة اسم سادات سادات ـ بيغن بيغن ، فقلت : الحالة غير طبيعية ولابد أن أنباء هامة تتواتر في المنطقة ، ويجب أن أسمعها ، وبأذنيّ الاثنتين ، لا بأذن واحدة . فقال لي الطبيب بصوت مرتفع كعادته منذ أول المعاينة : من الأفضل الا تسمعها؟

فقلت له : ما الفائدة؟ اذا كنت سأعيش نتائجها .

فقال : هل قمت بتحليل للدم؟

ـ طبعا . انظر هذه هي التحاليل وهذه هي الأدوية وهذه هي الصور الشعاعية . انظر هذه صورة للجيوب الأنفية ، وهذه صورة

للرئتين ، وهذه صورة للأذن الملتهبة . . . وهذه . . . لا لا هذه لا علاقة لها بالموضوع . فسألني مقطبا : ما هذه الصورة العجيبة التي تحاول اخفاءها وراء ظهرك .

فقلت له : هذه صورة للوضع السياسي في المنطقة ولا علاقة لها بالموضوع .

فقال وهو يحدق الى الصور والتحاليل : من الواضح أن في أذنك سوائل تؤدي الى انسدادها . ماء أم زلال أو ما شابه .

فقلت له : حتى ولو كان فيها بترول يجب أن تفتح .

فقال بعصبية : يا بني أذنك بحاجة الى عملية جراحية .

فقلت له : وأنا أستلقي بثيابي على طاولة العمليات : انني جاهز ، هات أمواسك ومشارطك .

قال : انهض لا يوجد عندي مخدر .

قلت : لا داعي لذلك ، انني مخدر منذ عام ١٩٤٨,

* * *

الفراشة

مواطن عربي قتل في احدى المظاهرات الشعبية ابان الحماسة الوطنية التي اجتاحت المنطقة بعد الاستقلال . يشتاق وهو الى جوار ربه الى زوجته واطفاله وبلاده .فترفرف روحه من الشوق والفضول في كبد السماء ، ويجري الحوار التالي مع زوجته التي كادت ان تنساه :

الزوج : كيف الصحة والأولاد والجيران؟

الزوجة : بخير . وأنت؟

الزوج : وهل هناك أروع من أن يموت الانسان في سبيل بلاده ومبادئه . ولكن فراقكم أدمى قلبي أكثر من جراحي .

الزوجة : وماذا نقول نحن . آه لو تعرف ماذا فعلت خالتك أم حمود ، وماذا قالت عمتك ام حميدان عندما اذيع نبأ موتك .

الزوج : لا أريد أن أستنفد المكالمة في أخبار شخصية . أريد أن أسأل عن القضايا الكبرى التي قضيت من أجلها . طمنيني : ما أخبار حركة التحرر العربي؟

الزوجة : عال .

الزوج : وحركة عدم الانحياز؟

الزوجة : ممتازة .

الزوج : والحرية في الوطن العربي؟

الزوجة : بتبوس ايدك .

الزوج : والسجون؟

الزوجة : فارغة .

الزوج : عظيم . عظيم . لأن حلمي الكبير كان الاستفادة من تلك القاعات الرهيبة بعد اخلائها ، إما كمسارح لرقص الباليه ، أو معاهد لتطوير الموسيقا الشرقية . فبماذا تستغلونها الآن؟

الزوجة : مازلنا حائرين بين الباليه والموسيقا .

الزوج : عظيم . عظيم . وبرامج الاصلاح الزراعي هل اكتملت؟

الزوجة : الى حد كبير .

الزوج : إذاً ، اصبح كل شيء متوفرا ورخيص الثمن بالنسبة للطبقة الكادحة .

الزوجة : طبعا وخاصة الفاكهة .

الزوج : رائع . رائع . ولكن حذار ، لا تكثروا من التفاح . فهو يسبب "الكتام" . ولا تسرفوا في التهام الموز على الطالع والنازل فهو يزيد نسبة النشويات ويشوه اجسام العمال العرب ويعوقهم عن أداء واجبهم .

الزوجة : اطمئن من هذه الناحية .

الزوج : وبالنسبة للمشاريع الاقتصادية الكبرى؟

الزوجة : كالمطر . ونحن الآن نقطف ثمارها .

الزوج : إذاً ، فالاموال العربية لعبت دورها كما يجب . فنحن أغنياء كما اذكر .

الزوجة : بل من اغنى اهل الأرض . ولولا هذه الأموال لانهار الاقتصاد البريطاني والاميركي ، منذ سنوات .

الزوج : "بعد تفكير" على كلٍ ، ما دامت هذه الأموال فائضة عن حاجة الوطن العربي ، بعد ان قضى على الفقر والجهل والأمية والبطالة ، فلا مانع من مساعدة الغير . انها من شيم العرب كما تعرفين؟

الزوجة : هل تريد شيئا آخر؟

الزوج : ما اخبار فلسطين؟

الزوجة : ارفع صوتك انني لا اسمع .

الزوج : لا استطيع ذلك . والا استيقظت ارواح الشهداء العرب من حولي .

الزوجة : معك حق . وأنا تعبت والطبخة على النار . ماذا تأكلون عندكم؟

الزوج : لا تغيري الموضوع . ما اخبار فلسطين؟

الزوجة : ولو ، وهل هذا سؤال يسأل بعد هذه السنين؟

الزوج : اعرف ذلك . ولكنني مازلت قلقا على اليهود . لا تلقوهم في البحر . خيّروهم بين العيش بيننا بسلام او العودة الى بلدانهم الاصلية .

الزوجة : تكرم .

الزوج : ولا تقسوا عليهم أثناء التسفير ، فالعفو عند المقدرة ، لأن العرب كما تعلمين اثناء الفتح الاسلامي وأثناء حروبهم مع الفرس والروم كانوا . .

أحد الجيران : ولك سد بوزك العمى شو أجدب .

* * *

سوبر ماركت الشرق الأوسط

طالب : عندك ديوان (قرارة الموجة) لنازك الملائكة؟

البائع : عندي ديوان (كيف تركب الموجة) .

الطالب : تأليف من؟

البائع : أبرز الشعراء والكتّاب العرب .

* * *

عامل : عندك خبز؟

البائع : بالخبز وحده لا يحيا الانسان .

* * *

مثقف : إذاً ، اعطنا كيلو حرية .

البائع : ليس عندي سوى حرية استيراد وتصدير .

المثقف : وحرية التعبير؟

البائع : بالمشمش .

* * *

المرضعة : عندك "حفاضات" أجف من القماش بمرتين؟

البائع : كان عندي كمية كبيرة ونفدت . الطلب عليها كثير هذه الأيام .

المرضعة : عجيب ، مفقودة في جميع المحلات . ما السبب؟

البائع : لأن الكبار بدؤوا يهيّؤون لاستعمالها قريبا .
المرضعة : لماذا؟
البائع : المرحلة العربية المقبلة تتطلب ذلك .

* * *

مراهق : عندك صورة لنجلاء فتحي في باريس؟
البائع : لا . عندي صورة بيغن في القاهرة ، وشارون في صيدا .
مراهق : بالمايوه؟
البائع : لا ، بالبيكيني .

* * *

مهاجر : عندك شريط "لبنان يا أخضر حلو"؟
البائع : لا .
المهاجر : "خضرا يا بلادي خضرا" .
البائع : لا .
مناضل : عندك كتاب "قصر الحمراء مفخرة العرب"؟
البائع : لا .
المناضل : قصيدة "وللحرية الحمراء باب"؟
البائع : لا ، لا ، افهموا من أول كلمة ، لم يعد هناك ما هو أخضر أو أحمر سوى شارات المرور .

* * *

مؤرخ : عندك نظارات مقرِّبة؟
البائع : لا .
المؤرخ : مبعِّدة؟
البائع : لا .

المؤرخ : يجب أن أعثر على واحدة بأية طريقة .

البائع : ولماذا؟ فلسطين لن تراها ، قريتك لن تراها ، الحرية لن تراها ، الربيع لن تراه ، المستقبل لن تراه ، فلماذا تتعب أنفك البائس بحملها؟

* * *

مطلقة : عندك فيلم "أريد حلا" لفاتن حمامة؟

البائع : كل الحلول بيد امريكا .

* * *

مقاول : عندك خشب معاكس وحديد مبروم؟

البائع : لا ، عندي ظروف معاكسة وشعب مبروم .

* * *

المروحة والغبار

سؤال : أيها الشاعر هل تريد هدم القصور على رؤوس أصحابها؟
جواب : لا ، أريد فقط أن أتنهد أمام أسوارها .
سؤال : أيها الصحافي ، هل تريد هدم السجون؟
جواب : لا . أريد فقط ألاّ أكون من نزلائها .
سؤال : أيها المسرحي ، هل تريد الاستيلاء على كرسي وزير أو سفير؟
جواب : لا . حتى عند الحلاق صرت أجلس على طرّاحة .
سؤال : أيها الكاتب بشكل عام ، هل تريد مزرعة وجيادا وكلاب حراسة؟
جواب : لا . ولكنني لا أريد أن أنبح معها .
أيتها المرحلة العربية المباركة ، يا ذات القلب الأبيض والأظافر الحمراء .
الخروف يعيش على الكلأ .
والأرنب على الجزر .
والثعلب على الدجاج .
والغراب على الأطلال .
والكاتب الذي هو ، ليس خروفا ، ولا أرنبا ، ولا ثعلبا ، ولا غرابا ، وانما انسان له أنف وعينان ، وأذنان ، ومعدة ، وبنكرياس ، وحجاب

حاجز ، وأظافر ، وزائدة دودية ، وكرامة . . على ماذا يعيش؟
على الخطابات؟
لأنني منذ رأيت الطيور تأكل الحب ، والانسان يأكل الطيور ، قلت :
المعدة هي برلمان العالم .
ثم القاتل يعبر عن رأيه بمسدسه .
والجلاد بسوطه .
والحداد بمطرقته .
والغانية بحواجبها .
والراقصة بخصرها .
والكاتب الذي هو ليس قاتلا ، . ولا جلادا ، ولا حداداً ، ولا غانية ولا راقصة ، بماذا يعبر عن رأيه؟ وكيف؟ صهيلا كالجواد؟ أم عواء كالذئب؟
في نهاية كل سطر ، جندي نازي بمعطفه الرمادي وبندقيته الطويلة .
في نهاية كل قصيدة ، حاجز تفتيش .
في نهاية كل رواية ، مجلس طوارىء .
وفي نهاية كل مسرحية ، مؤتمر قمة .
فاذا لم يستطع الكاتب العربي ، وفي أدق مرحلة تمر بها أمته ، أن يعبر عن رأيه لا في الماضي ، ولا في الحاضر ، ولا في المستقبل ، ولا في حرب لبنان ، ولا في حرب الخليج ، ولا في حرب الصحراء ، ولا عن كامب دايفيد ، ولا عن المقاومة . فماذا يكتب؟ عن وحام الأميرة ديانا!
ثم في هذه المرحلة بالذات حيث تفيض الأرض العربية بالدماء والأشلاء ، والسماء بالرائحين والغادين ، لعقد صفقات البيع والشراء ،

اذا لم يستطع أن يتحرك لا أدبيا ، ولا مهنيا ، ولا اقليميا ، ولا وحدويا ، فهل يضع سلة بيض في زاوية المكتب ، أو المطبعة ، ويرقد فوقها كالدجاجة حتى تمر هذه المرحلة؟

* * *

مأساة الكاتب العربي ، انه يقضي زهرة شبابه وكهولته ، وشيخوخته ، وهو يقفز لاهثا ، مذعورا من الصحافة ، الى المسرح ، الى الشعر ، الى القصة ، الى الصفحة الأولى ، الى الصفحة الأخيرة . وفي نهاية العمر ، لا يجد ما يتبلغ به سوى دمه ، وحطام أظافره .

ومع ذلك ، ما زالت الجمارك والموانىء العربية ، تستقبل على مدار السنة آلاف المطابع الجديدة . ومازالت هذه المطابع تهدر على مدار الساعة ، وتقذف كل يوم وكل ساعة بآلاف الكتب الجديدة ، والمجلات الجديدة . . والأسماء الجديدة . ولكن وأنت تطالع هذه المجلة ، وتتصفح ذلك الكتاب لا ترى غبار القدم بين السطور فحسب ، بل خيوط العنكبوت في كل ما حولك . . بين خيوط المطر ، وتويجات الزهرة ، وأصابع الطفل الوليد .

ولذلك ما جدوى اصدار كتب جديدة؟

وشق طرق جديدة؟

وركوب سيارات جديدة .

بل ما جدوى ان ننتعل احذية جديدة .

ونرتدي معاطف جديدة .

ومايوهات جديدة .

والوطن عتيق . . . عتيق . . .؟

* * *

صلاة بيد واحدة

نحن الآن نستعد لحضور أحد المؤتمرات الثورية الخطيرة المنعقدة في احدى دول المنطقة ، لدراسة أهم ما تعانيه شعوبها وما تحلم به منذ أجيال .

ها هم أعضاء الوفود الذين يمثلون مختلف البلدان النامية بكل اتجاهاتها وسياساتها وتطلعاتها ، يتأبطون مصنفاتهم ويتوافدون الى قاعة المؤتمر بوجوه جادة وجباه مقطبة ، دلالة التفكير العميق والوعي الشامل لأحداث التاريخ . وها هو رئيس المؤتمر يعانقهم بشوق ويصافحهم بحرارة بين حشود من الصحفيين والمراسلين والمخبرين والمصورين . وبعد كلمة ترحيبية قصيرة يطلب اخلاء القاعة الا من رؤساء الوفود فقط لأن الجلسات ستكون سرية وعلى غاية كبيرة من الأهمية .

أغلقت الأبواب واسدلت الستائر ، وأخذ رؤساء الوفود أماكنهم على مائدة طويلة والفوط على صدورهم . . وما هي الا لحظات حتى غطيت المائدة بالصحون والاقداح والأباريق . وتوافد الخدم والطهاة وعلى راحاتهم صواني الأرز والدجاج واللحم والسمك والخضار والكبب والخردل والكافيار ، وغير ذلك من ضروب المشهيات والمقبلات . ولما انتهى المؤتمرون من التهام كل ما على المائدة ، واضطجعوا قليلا الى الوراء وفكوا أزرار ستراتهم وقمصانهم لتأخذ كروشهم دورها الطبيعي في المناقشات ، نهض رئيس الجلسة والفوطة

لاتزال على صدره وقال : والآن سنناقش مشكلة الجوع في العالم الثالث .

وبعد أن انتهى المجتمعون من دراسة هذه المشكلة من جميع جوانبها الاقتصادية ، والتسويقية ، والسياسية ، واتخذوا عددا من المقترحات والتوصيات ، وشكّلوا عددا من اللجان لدراسة هذه المقترحات والتوصيات ، انتقلوا الى الموضوع التالي في جدول الأعمال .

وبعد مرور ثلاث ساعات دون أن يتمكن رئيس الجلسة من ترتيب أماكن الجلوس حول طاولة المناقشات ، وبعد أن هدّد كل من يشهر مسدسا بطرده من الاجتماع ، اضطر الى إحضار طاولات مصغرة عن طاولة المناقشات الرئيسية بعدد رؤساء الوفود . وبعد أن تصدر كل منهم طاولة مستقلة وأمامه ميكروفونه المستقل ومنفضته المستقلة وتصوراته المستقلة . مترفعاً حتى عن النظر الى أي أحد من زملائه ، نهض رئيس الجلسة وقال : والآن . . . سنناقش موضوع الوحدة العربية .

وبعد دراسة مستفيضة لهذا الموضوع من كافة أبعاده التاريخية والفكرية والاسلامية والمسيحية ، وبعد أن اتخذ المجتمعون عددا من المقترحات والتوصيات ، وشكلوا عددا من اللجان لدراسة هذه المقترحات والتوصيات ، انتقلوا الى الموضوع التالي في جدول الأعمال .

وبعد أن أخذ كل من رؤساء الوفود مكانه على طاولة المناقشات ووضع أمامه ملفاته ووثائقه ومقترحاته واستطلاعاته ، بالنسبة للماضي والحاضر والمستقبل ، نهض رئيس الجلسة ووضع على فم كل واحد من الحضور شريطا لاصقا يصل من الأذن الى الأذن وقال : والآن سنناقش موضوع الحرية في الوطن العربي .

وبعد مناقشات صريحة وعميقة وشاملة لجميع جوانب هذا

الموضوع ، اتخذ المجتمعون بعدها عددا من المقترحات والتوصيات ، وتقديم المقترحات والتوصيات اللازمة بشأنها .

وبعد أن أنهى المؤتمر كافة الموضوعات المدرجة في جدول أعماله ، عقد جلسة ختامية بحضور أعضاء الوفود المرافقة والصحفيين والمراسلين والمراقبين . . . وقد أذاع رئيس المؤتمر البيان المشترك التالي :

"في جوٍ يسوده الوئام والتفاهم وروح التبصّر والمسؤولية ، عقد المؤتمر جلساته من تاريخ كذا الى تاريخ كذا . . . وبعد أن درس كافة المشكلات المعروضة عليه ، واطلع على كافة التقارير الواردة اليه ، وناقش كافة المقترحات والتوصيات الموجودة بين يديه ، وبعد أن درس ونظر ومحَّص واتخذ أولا وثانيا وثالثا وعاشرا من القرارات يعلن مايلي :

وأخيرا تكشفت النوايا العدوانية التي تبيتها الدول الأجنبية ضد الشعب العربي ليبقى متخلفا ممزقا جائعا يرزح تحت كابوس لا ينتهي من القلق والرعب والجوع واليأس ، حتى لا ينهض من كبوته ويشارك في صنع قدره وقدر الانسان في هذا العالم ، ولذلك فاننا لن نسمح بعد الآن لامريكا أو لروسيا أو لأوروبا ، ولا لأي بلد أجنبي مهما كانت قوته ونفوذه بأن يعبث بأمن هذا الشعب وحريته وكرامته ، لأن هذا من اختصاصنا .

* * *

القفازات البيضاء

عاد هركول بوارو العربي الى مكتبه متعبا وسأل سكرتيرته فاطمة اذا كان هناك من سأل عنه في غيابه فنفت ذلك . وتصفح الرسائل والبرقيات الواردة اليه بعدم اكتراث وألقاها جانبا لخلوها من أي شيء هام ثم تمدد على اريكته المعهودة وألقى قدميه بحذائهما على الصحف والمجلات الأسبوعية والشهرية الصادرة ذلك الصباح وراح ينفث دخان سيجارته في الهواء وهو يحلم بالقضية الكبرى التي تهز الرأي العام وتنقذه من خموله الجنائي الذي طال أمده ، وتعيد له شهرته الآتية واسمه المدوي في عالم الاجرام والمجرمين كألمع مخبر خاص .

وفجأة رن جرس الهاتف رنينا متواصلا ملحاحا فرفع السماعة واستوى في مقعده مستبشرا متحدثا :

صوت : الاستاذ هركول بوارو العربي؟

بوارو : هو شخصيا .

الصوت : سيدي أنا مفتش الأمن في قطار الشرق البطيء ، وقد وجدنا أحد الركاب مقتولا هذا الصباح وأريد مساعدتك للقبض على الجاني .

بوارو : ومن هو المجني عليه؟

الصوت : مجهول الهوية .

بوارو : ألم تعثروا في أمتعته أو في جيوبه على أي شيء يثبت شخصيته؟

الصوت : لم نجد شيئا ذا قيمة سوى خريطة مهترئة لفلسطين .

بوارو : وبقية الركاب؟

الصوت : معظمهم عرب .

بوارو : وماذا يفعلون الآن؟

الصوت : يؤنبونه .

بوارو : أنا قادم فورا ، لا تدع أحدا يغادر القطار .

وبسبب تجمع معظم المسافرين فوق جثة الجني عليه وتدافعهم لتقبيله ولثم جبينه وذرف الدموع على صدره لم يستطع هركول بوارو العربي لفت الانظار الى قدومه ، كما ان اوامره بالتزام الصمت والهدوء لمباشرة مهمته ضاعت سدى وسط صيحات الثأر وحالات الاغماء ، وتمزيق الثياب ، ودق الصدور بالقبضتين ، وتعداد مآثر الفقيد ، مثل : يا عمود البيت . يا جسر المحبة . يا جسر العودة . يا زهرة شبابنا . يا معيل كفاحنا .

ولذلك استغل هذه الفرصة وانتحى بالمفتش جانبا .

بوارو : في أي مقعد كان يجلس؟

المفتش : في الحقيقة لم يكن له مقعد محدد . كان يجلس تارة هنا وتارة هناك ، الى أن انتهى به المطاف الى الممر حيث يرقد الآن رقدته الأبدية . انه يعوق الحركة في حياته وفي موته كما ترى .

بوارو : عجيب . لا بصمات ، لا آثار عنف . لا خصلة شعر . حتى ولا رماد سيجارة .

راكب : نحن لا ندخن . الدخان يضر بالصحة .

بوارو : ومن ذاك الشخص الممدد الى جانب المجني عليه؟
المفتش : لا أعرف ، ولكنه يقول انه يريد أن يدفن معه .
بوارو : انهض يا هذا وعد الى مقعدك .
الراكب : مستحيل . أريد أن أدفن معه . هاتوا رفشا ومجرفة . لا استطيع الحياة من بعده .
بوارو : أين كنت عندما اكتشفت الجثة؟
الراكب : كنت في مقعدي استمع الى اذاعة فلسطين . آه يا حبيبتي يا فلسطين!
بوارو : وأنت؟
راكب آخر : كنت اقرأ ديوان "عاشق من فلسطين" لمحمود درويش .
بوارو : وأنت؟
راكب آخر : كنت أطالع تحقيقا صحفيا عن ممارسات اسرائيل العنصرية داخل الأراضي العربية المحتلة . آه كم سيتحمل هذا الشعب ويتحمل!
بوارو : وأنت؟
راكب آخر : كنت استمع الى أغنية "عائدون" لفيروز .
بوارو : وأنت ، متى نمت ليلة الحادث؟
راكب آخر : في موعد اطفاء الأنوار ، فأنا نظامي جدا وفورا رحت احلم بليمون يافا وبرتقال حيفا .
بوارو : خذوا احلامه للتحليل .
المفتش : امرك . سيدي .
بوارو : وأنت متى نمت ليلة الحادثة؟
المفتش : سيدي هذا يساري لا ينام ولا يدع أحداً ينام .

بوارو : ومن ذلك الذي يقف وحيدا في آخر القطار ويحك ظهره بالجدران والمساند؟
المفتش : انه جربان سياسيا . لا يقترب من احد ولا أحد يقترب منه .
بوارو : وذلك الممتقع الوجه والمتهالك على الأرض؟
المفتش : مغمى عليه .
بوارو : شمموه بصلا .
المفتش : شممناه بصلا ، ترابا ، برتقالا وكلّ ما نعرف من منعشات دون جدوى . ولكن عندما شممه أحد زملائه دفتر شيكات صحا .
بوارو : أنت يا هذا ، ماذا فعلت عندما سمعت بالحادث؟
راكب آخر : دعوت فورا لرأب الصدع وتناسي الخلافات وحشد الطاقات .
بوارو : وأنت؟
راكب آخر : انهمرت الدموع من عيني ولم تتوقف حتى الآن ولن تتوقف حتى يكتشف المجرم الأثيم وينال قصاصه العادل .
بوارو : ماذا تعشيت في مثل هذا اليوم قبل ٢٥ عاماً؟
الراكب : وما علاقة هذا بالحادث؟
بوارو : أنا أسأل وأنت تجيب .
الراكب : لم نكن نتعشى في تلك الأيام .
بوارو : لماذا؟
الراكب : كانت أياما عصيبة يا سيدي .
بوارو : ماذا كنت تعمل؟
الراكب : موظفا بسيطا في أحد المصارف .

بوارو : والآن؟

الراكب : عندي مصارف .

بوارو : وكيف وصلت الى ما أنت عليه؟

الراكب : من دعاء الوالدة .

بوارو : وأنت ما هي مهنتك؟

راكب آخر : محسوبك موظف بسيط في القضايا العامة .

بوارو : هل هذه أول مرة تسافر فيها بالقطار؟

الراكب : وآخر مرة . ولن أسافر بعد الآن الا بطائرتي الخاصة .

بوارو : عندك طائرة خاصة ، من أين لك المال لتشتري طائرة خاصة؟

الراكب : من راتبي يا سيدي .

بوارو : من أين أتيت بالمال؟

الراكب : في الحقيقة ، في الواقع ، في هذه الظروف العصيبة . . .

بوارو : كفى ، كفى ، كيف كانت علاقتكم بالمجني عليه؟

الراكب : اخوية يا سيدي . كانت احاديثنا اخوية وجلساتنا اخوية وسهراتنا اخوية ، حتى اننا كنا جميعا نقرأ رواية "الأخوة كارامازوف" .

* * *

وبعد أن جمع ما حصل عليه من معلومات اختلى الى نفسه في مكتب المفتش وراح ينتقل بتحليلاته من متاهة الى متاهة . وفجأة لمعت في ذهنه فكرة وقف لها شعر رأسه : لقد تذكر قصة "جريمة في قطار الشرق السريع" لأغاتا كريستي ، التي كان فيها عدد الطعنات في جسد الضحية مطابقا لعدد الركاب تماما ، وفي الحال خرج من المقصورة وأعاد التجربة . وعندما وجد أن عدد ركاب القطار مساوٍ لعدد الطعنات

في جسـد المجني عليه صعق وانطلق هاربا من القطار وهو يصرخ : لن أصدق عيني . لن أصدق أذني . لن أذهب الى عملي بعد الآن . لن أعود الى بيتي . لن أسدد ديوني . لن أرسل أطفالي الى الحضانة . ليخرج أبو سلمى وغيره من شيوخ العودة من قبورهم وليذهبوا الى الحضانة .

* * *

مُحاضر الليل

كانت قاعة المحاضرات تغصّ على اتساعها بمن توافدوا اليها بلهفة الظمآن للمطر . . من مثقفين وأميين وعمال وموظفين وفلاحين وحرفيين وطلاب ناجحين وراسبين ، وفي طليعتهم مشوهو الحروب والعاطلون عن العمل ، تركوا بيوتهم ومدارسهم ومزارعهم ومصانعهم متَحَدّين الإنذارات الموجهة اليهم بالفصل عن عملهم ، وجاؤوا للاجتماع الى سيد من سادة الرفض والتنظير في هذه المرحلة العصيبة التي تمر بها أمتهم وشعوبهم وأوطانهم . وكل منهم يحمل في صدره من مرارات الماضي بقدر ما يحمل من الآمال في المستقبل ، لعله يسمع كلمة صدق واحدة تعيد له ثقته بنفسه ، وتنير له طريق العمل والكفاح وسط هذا الغيهب الإعلامي المترامي من المحيط الى الخليج .

وما إن وصل المحاضر حتى هبّ الجميع من مقاعدهم ودوّت أركان القاعة بالتصفيق وصيحات التهليل بالكلمة المحاربة والفكر المقاتل ، ورفضوا الجلوس إكباراً لعلمه واحتراماً لماضيه وكبر سنه .

كذلك عندما تقدّم عريف الحفلة من المُحاضر ودعاه للجلوس وراء المنبر ، رفض هو الآخر بدوره الجلوس وهم واقفون . كما رفض الوقوف وهم جالسون . وعندما اقترب منه ليهمس في أذنه بشيء ما ، رفض الإصغاء اليه ودفعه بعيداً عنه وقال : لا أسرار صغيرة أو كبيرة بعد

اليوم تُخفى عن الشعوب . ويجب مصارحتها بكل شيء لتعرف من هو عدوها ومن هو حليفها . كما أرفض أن يقاطعني أحد وأنا أُلقي محاضرتي ، لأن الرفض يجري في دمي ، وفي عروقي وأوردتي وشراييني ، ومن رأسي الى أخمص قدمي ، وها هي الصور الشعاعية والتقارير الطبية تؤكد لكم ذلك .

العريف : هناك سؤال يدور على ألسنة المثقفين . . .

المحاضر : أعرفه ، أعرفه تماماً ، إنني في جميع أقوالي ومؤلفاتي أرفض جميع الحلول السلمية ، وقرارات الأمم المتحدة ، ومجلس الأمن وتوصيات القمم العربية والإسلامية وعدم الانحياز ، وأرفض حدود ١٩٦٧ ، وحدود ١٠٥٦ ، وحدود ١٩٨٤ ، وحدود ١٩٤٨ ؛ لأنها في النهاية تكريس لوجود اسرائيل كمخلب قط للاستعمار وعلى رأسه أميركا وحلفاؤها في المنطقة .

العريف : وهناك سؤال آخر حول . . .

المحاضر : لا تقاطعني ، كما أنني أرفض الوضع العربي الراهن وأرفض الأسس التي يقوم عليها من خلافات ومصالحات ، وتصفيات واتفاقات ، ومعاهدات لا علاقة لها بالشعوب وأهداف الشعوب . إن هذا ما يريده أعداء هذه الأمة ، وعلى رأسهم أميركا وحلفاؤها في حلف شمال الأطلسي . انني أختنق . انني أختنق من رائحة التآمر والمؤامرات .

العريف : افتحوا الشبابيك . . .

المحاضر : لا ، إنني أرفض التهوية ، وهناك ملايين العمال والفلاحين والمناضلين محرومون من النور والهواء في أعماق السجون والمناجم وآبار النفط في آسيا وافريقيا وأميركا اللاتينية . آه إنني

بردان .

العريف : أشعلوا المدفأة .

المحاضر : لا ، انني أرفض التدفئة وهناك ملايين الرعاة والبحارة والصيادين يكدحون تحت الثلج والصقيع في المزارع والمعامل والمصانع ، في خدمة البورجوازية والاحتكارات العالمية . لا ، لا تصفِّقوا أرجوكم ، ادَّخروا راحات أيديكم لحمل السلاح . لحمل العصيّ والحجارة . لضرب المصالح والاحتكارات الأميركية في آسيا وفي افريقيا وفي أميركا اللاتينية ، وفي كل مكان من العالم ، وشكراً لإصغائكم .

العريف : عفواً استاذ ، ان الحضور مازال متشوقاً للمزيد من هذه الدرر ، ويريد أن يعرف المزيد من الفظائع التي ارتكبتها أميركا في فييتنام وكمبوديا ولاوس وتشيلي والسلفادور ، لأننا نمر في الظروف نفسها التي مرت وتمر بها .

المحاضر : آسف ، فعندي التزامات بمحاضرات كثيرة في معظم أرجاء العالم الثالث والالتزام شعاري ، كما هو معروف . وعلينا جميعاً أن نوقف المؤامرة ، وننقذ الأجيال الطالعة مما تخبئه لها أميركا من مخططات ومكائد .

العريف : رجاءً أستاذ ، هناك سؤال من أحد المستمعين .

المحاضر : ما اسمه؟

العريف : جابر .

المحاضر : أرفض الإجابة على أي سؤال منه لان اسمه يبتدىء بالحرف نفسه الذي يبتدىء به اسم جيمي كارتر وجيرالد فورد وجورج واشنطن . . .

العريف : هناك سؤال آخر من إحدى فتياتنا المشتعلات حماساً لك ولمؤلفاتك ، ويتعلق بدور المرأة العربية في هذه المرحلة . . .

المحاضر : وما اسم صاحبة السؤال؟

العريف : نعيمة .

المحاضر : أرفض حتى الجلوس معها في مكان واحد لأن اسمها يبتدىء بالحرف نفسه الذي يبتدىء به اسم المدمِّرة نيوجرسي . . .

على كلّ حال ، لم تعد الشعوب بحاجة الى أسئلة وأجوبة . فكل شيء باتٍ واضحاً أمامها الآن . ولا عدو لها سوى أميركا وحلفائها في العالم أجمع . والى اللقاء على أشلائهم جميعاً .

وبعد أن غادر القاعة وهو يمسح العرق عن جبينه ، والرذاذ عن شفتيه ، لحق به متسوّل في الظلام . . .

المتسول : حسنة لله يا محسنين . . .

المحاضر : هل معك صرافة مئة دولار؟

* * *

شهيق وزفير

لا يمر يوم على المواطن العربي الا وتطالعه الأنباء من هذا البلد أو ذاك بأن فلانا اجتمع بفلان وأجرى معه محادثات هامة لم يكشف النقاب عنها .

وان الجهة الفلانية اجتمعت مع الجهة الفلانية وأجرت معها مباحثات مستفيضة لم يكشف النقاب عما دار فيها .

وان فلانا اتصل هاتفيا بفلان وأجرى معه مشاورات عاجلة لم يكشف النقاب عن مضمونها .

ومن الطبيعي أن يكون كل هذا الحرص والتكتم والسرية بسبب أهمية الموضوعات المطروحة وجديتها . ولكن العجيب أنه على الرغم من كل هذا الحرص والتكتم والسرية في المحادثات والاجتماعات والاتصالات الشخصية والهاتفية فان الأرض العربية مكشوفة على الملأ مثل راقصة "الستربتيز" .

ثم لا تمر مناسبة وطنية أو تاريخية أو دينية الا وتؤكد هذه الدولة أو تلك ان خطها السياسي واضح ، وخطها القومي واضح ، وخطها الاقتصادي واضح . ومع ذلك فان بيكاسو نفسه لا يعرف خطوط السير في أي بلد عربي كيف تسير .

ثم بمناسبة وبدون مناسبة يسارع الخطباء والمتزاحمون على المنابر

العربية والدولية الى تذكير الشعب بأن كل المؤتمرات والاتفاقيات والتوصيات التي تتخذ والبيانات التي تصدر هي لمصلحته ولتنظيمه على ان العرب صاروا قوة ضاغطة على المستوى الدولي ، وأن العالم صار يحسب لهم ألف حساب قبل الأقدام على أي خطوة في المنطقة أو سواها .

ومع مرور الأيام ، وتوالي المؤتمرات والتوصيات ، يكشف المواطن المسكين ان تأكيد البيانات العربية على أن كل شيء له ولمصلحته لا يعني أكثر من تأكيد التاجر للزبون بأن المحل محله .

وان العرب في نهاية المطاف وبعد كل هذه السنين من ارتياد الآفاق شرقا وغربا وجنوبا وشمالا ، وبعد حضور كل المؤتمرات والوقوف الى جانب الشعوب ، في كل البلدان والقارات ليس لهم أي حساب عند العالم الا في البنوك .

ولكن ما يؤلم المواطن العربي أكثر من أي شيء آخر هو هذا الاصرار على ربط كل ما جرى ويجري في المنطقة من اتفاقيات ومباحثات وتظاهرات ومشاحنات ومصالحات باسمه وبموافقته : الشعب قرر . الشعب رفض . الشعب يؤكد . الشعب يحذر .

وأنا كمواطن عربي من هذا الشعب ومن هذا الوطن الممتد من المحيط الى الخليج ، ومع احترامي لكافة المواثيق والأعراف الدولية ، ومع تقديري لكل ما جرى ويجري على الساحة العربية من مباحثات ومشاورات ومبادرات ومصالحات ومشاحنات ، أقول من باب التنويه لا التنبيه ، بأنني لا أذكر أنني جلست في حياتي الى طاولة مفاوضات أو اشتركت في صياغة توصية أو بيان . وأنني في حياتي السياسية منذ الخمسينيات حتى الآن لم أر الا نقرة تيتو وهو يغادر المنطقة . وحذاء

غروميكو وهو قادم اليها .

ثم : هذه الدولة مع الثورة الفلسطينية دون حركة "فتح" .

وتلك مع حركة "فتح" والثورة الفلسطينية دون العمل الفدائي .

وتلك مع استخدام السلاح والعمل الفدائي والثورة الفلسطينية ومشروع ريغان .

وتلك ضد العمل الفدائي والعمل السياسي وقمة فاس ومشروع ريغان . وضد اليمين وضد اليسار . وضد كل شيء في المنطقة ، وتريد أن تقرر كل شيء في المنطقة .

وارفع رأسك يا أخي العربي لتجد ألف طائرة أواكس بانتظارك اذا لم تعجبك هذه الاستراتيجية المتكاملة لدحر العدوان واستعادة الحق المغتصب .

وعندما تدب النخوة في رأس مسؤول ما في هذا البلد أو ذاك ، ويقدم استقالته احتجاجا على ما وصلت اليه الأمور ، تجد دولته في الحال ألف مسؤول يحل محله قبل أن يجف الحبر عن كتاب استقالته . واذا استنكف كاتب عن الكتابة ستجد ألف كاتب يأخذون مكانه ويكمِّلون المقال أو الافتتاحية التي بدأها قبل أن يعرفوا مضمونها . وحتى لو انتحر او غاب مطرب عن حفلة ما بمناسبة ما احتجاجا على موقف ما ، فستجد السلطة عشرين مطربا يحلون محله . ان وزراءها سيغنون بدلا منه اذا اقتضت الحاجة الى ذلك .

وعندما يتجرد المواطن العربي من أي عاطفة آنية أو انفعال زائل تجاه بعض المنغصات ، يجد نفسه ، شاء أم أبى ، أمام صراع واضح بين اليمين واليسار في هذه المنطقة ، وعليه أن يحدد موقفه منها ويختار .

ولكن ، وبعد أن يقضي نهاره وجلَّ ليله في مطالعة صحف

وبيانات وأقوال وأفعال هذا الطرف ومقارنتها بصحف وبيانات وأقوال الطرف الآخر ، وفي اللحظة التي يكاد يصل فيها الى تحديد موقفه تطلع له في آخر الليل راقصة تهز مؤخرتها خمسين مرة في الثانية ، ذات اليمين وذات اليسار .

فيها تابع الأحداث ، واتخذ موقفا واضحا منها بعد ذلك .

* * *

الكوميديا النفطية

بعد أن اشترت دولة الامارات العربية المتحدة المستر ريفي أشهر مدرب لكرة القدم في ايطاليا ، ثارت حفيظة دولة بترولية أخرى أكثر غنى وأوسع نفوذا ، وتملكتها الغيرة من مثل هذه الخطوة النبيهة الجسور وبعد تفكير عميق ودراسة مستفيضة أوفدت حكومتها أحد كبار خبراء النفط والمسرح الى بريطانيا ، كما بعثت عدداً من الرسائل الشخصية الى كبريات العواصم الحضارية في العالم .

وبعد تجاوز الكثير من البروتوكولات اوقظ وزير الشؤون الثقافية البريطاني من نومه لمقابلة مندوب تلك الدولة لأمر هام . وعلى طاولة مباحثات أعدّت على عجل ، جلس المتفاوضان العربي والبريطاني وجها لوجه ، الأول يفرك يديه من الفرح والثاني يفرك عينيه من النعاس .

المندوب الانكليزي : نعم يا سعادة المندوب؟

المندوب العربي : نريد أن نشتري منكم شكسبير .

الانكليزي : مَنْ؟

العربي : شكسبير ، الشايب شكسبير .

الانكليزي : بالتأكيد أنت تمزح يا سعادة المندوب .

العربي : أنا لا أمزح ، ولم أقم بهذه الرحلة العاجلة لأسباب كوميدية .

الإنجليزي : ولكن حكومتي ترغب بسماع بعض الدوافع والإيضاحات لهذا الطلب العجيب .

ورفع المندوب العربي كأسه الى مستوى الاحداث وقال : بلدنا غني بما فيه الكفاية كما تعرفون . ولكن عندما تسلمنا مقاليد الأمور لم يكن فيه الا الرمال والجمال . وفي أقل من ربع قرن جعلناه يقف شامخاً لا يفلُّه الحديد على أبواب الحضارة والتطور بما عندنا من تصميم ونفط . ولا أريد هنا في هذه العجالة أن اعدد ما أنجزنا وما ننجز في بلدنا من مشاريع عمرانية وصناعية وسياحية . ويكفي أن ألفت نظركم الى أن تسعين في المئة مما تنتجه أشهر مصانع السيارات والطائرات والمفروشات والحلي والعطورات والكرافيتات يتدفق الى أسواقنا . وأصبحنا ، امراءً ورعايا ، لا نستخدم في مطابخنا الا أحدث الأجهزة الكهربائية والالكترونية ، ولا نضع على أجسادنا الا ما تنتجه أشهر دور الأزياء العالمية ، حتى علم الدولة الذي يرفرف فوق الدوائر الحكومية والمدارس والشركات والسيارات الرسمية هو من ماركة "ليونارد" و"لانفان" . ومع ذلك يقول الجميع لمندوبينا في المؤتمرات ولطلابنا الموفدين الى الجامعات ، ولرعايانا في المتاجر والمصايف والمنتجعات : ولكنكم متخلفون . صحيح عندكم كل شيء ولكن لا يوجد عندكم تراث ثقافي وحضاري مثل فرنسا وألمانيا أو أصغر بلد أوروبي آخر . ولذلك قررت حكومتنا أن تحل هذه العقدة نهائيا مهما كلفها الأمر .

الانكليزي : ولكنكم بحاجة الى أدباء عرب من بيئتكم وثقافتكم . والبلاد العربية لا تنقصها الأسماء الشهيرة والمرموقة .

العربي : معظمهم مباع ، أو في الطريق الى ذلك . ولقد اشترينا نحن من جميع الأصناف والمستويات فلم يتغير شيء ، ولذلك قررت

حكومتنا شراء كتّاب خالدين .

الانكليزي : ولكن لماذا تحرجون حكومتي بطلبكم هذا ، والتراث الانساني غني بمن هم بمستوى شكسبير وأكثر . هناك غوتيه مثلا .

العربي : اشترينا غوتيه من ألمانيا ، ودانتي من ايطاليا ، وطاغور من الهند ، ولوركا من اسبانيا ، وأميل مازولا من فرنسا .

الانكليزي : أميل زولا!

العربي : نعم واسخليوس من أثينا ، وهذه نسخة عن الفواتير وبوالص الشحن .

الانكليزي : ومن روسيا ألم تشتروا شيئا . انها بلد العباقرة والنوابغ .

العربي : طلبنا منهم تولستوي وتشيخوف وستويفسكي ، ولكنهم رفضوا وباعونا بدلا منهم "اللينين" .

الانكليزي : ولكن لينين ملحد وأنتم بلد اسلامي متشدد .

العربي : "هامسا" لقد باعونا "لينيناً مسلما" وبسعر الكلفة .

الانجليزي : عجيب! لينين . . . ومسلم؟

العربي : لقد حدثني رئيس قسم المبيعات الايديولوجية في موسكو ، ان عندهم لكل دولة "اللينين خاص" .

الانكليزي : إن سياستهم دائما واقعية وبعيدة المدى .

العربي : وقد سمعت أيضا أنهم يعدون طائرات وصواريخ لمن يريد من الدول الاسلامية في الشرق الأوسط وافريقيا . صوت انفجاراتها رفيع حاد كصوت عبد الباسط عبد الصمد .

الانكليزي : وأين يقيم هذا الخليط العجيب الآن؟

العربي : في ربوع بلادنا .

الانكليزي : وهل هم سعداء عندكم؟
العربي : جدا . ان دانتي مثلا ، منذ ان اطّلع على الحياة الأدبية والاعلامية والسياسية في عدد من البلدان العربية ، عكف فورا على كتابة ملحمة جديدة بعنوان "الكوميديا النفطية" .
الانكليزي : واسخليوس؟ ذلك القادم من بطون التاريخ ألم يشعر بالغربة وسط هذا العالم الجديد؟
العربي : أبدا ، منذ أن تجول في عدد من المدن العربية وأريافها ووقف على الحياة الاجتماعية والسياسية والفكرية فيها ، وزار بعض الازقة وبيوتها ونسائها حتى قال مبتهجا : كم أنا سعيد هنا ، كأنني مازلت أعيش سنة ٢٠٠٠ قبل الميلاد .
الانكليزي : انها صفقة موفقة .
العربي : ولا ينقصها الا شكسبير الخالد . ماذا قلت؟
الانكليزي : لا أستطيع أن أبتَّ بهذا الأمر وحدي ، ولابد من مراجعة مجلس الوزراء ومجلس اللوردات ومجلس العموم .
العربي : "متأهباً للانصراف" : راجع من شئت ولكننا نريده . نريد أن نبني حضارتنا وثقافتنا وأجيالنا ، نريد أن نقضي على التخلف ، وعندما نريد أن تبلغني شيئا ، فأنا موجود في الكباريه المجاور .

* * *

سهرة حب

كانوا لفيفا من أبنائنا ومن أبناء غيرنا في الخارج يتأبطون صحفهم ومجلاتهم ويهيمون على وجوههم في شوارع أوروبا وبين جامعاتها وحاناتها من أجل القضية . مختلفين حول كل شيء ، ولا يجمعهم أي شيء سوى الليل . لقد كان صديق الجميع . ولذلك فقد كانوا بحق "شعب الليل المختار" .

لقد كان أبناء المشرق العربي يقيمون في دارة فخمة تطل على سلسلة من النواعير التي تدور فارغةً .

وكان أبناء المغرب العربي يقيمون في دارة أفخم تطل على الثقافة الفرنسية وتغريبة بني هلال .

وكان الفلسطيني يقيم في فيللا ساحرة تطل على لاءات الخرطوم .

وكان اليمني يقيم في عرزال يطل على شلالات نياغارا وخطابات غيفارا .

وكان المصري يقيم في عوامة حضارية تطل على البلهارسيا وجائزة نوبل .

وكان ابن البترول العربي يقيم في فيللا فخمة تطل على التراث الاسلامي وقداحات ديبون .

وكان اللبناني يقيم في حقيبته .

وكانت الموسيقا الحالمة تنبعث من احدى الحانات الليلية عندما دخلت ضحكاتهم ومناقشاتهم قبل أجسادهم . وفي الحال استبدل صاحب الحانة موسيقا شوبان بأغنية لسميرة توفيق وصباح فخري . وثبت الأقداح والأطباق والمقاعد كيفما كان . واتصل بالشرطة والاسعاف . . . للاحتياط . فيما تقدم الكرسون بابتسامته ولائحته .

الكرسون : أهلا وسهلا ماذا يريد الاخوان؟

العربي : نريد أن نناقش .

الكرسون : تناقشون ماذا؟ ومع من؟

العربي : أي موضوع . مع أي كان؟

الكرسون : ولكن الوقت متأخر وقد حان وقت النوم .

العربي : آه أيها الاوروبيون . متى تقدرون قيمة الوقت . . . حتى تبددوه بهذا الشكل .

الكرسون : سنحاول في المستقبل ، ولكن المهم الآن ، هل تريدون شيئا قبل الطعام؟

الباكستاني : أريد رأس ضياء الحق .

الايراني : وأنا أريد رأس الشاه .

زبون أجنبي من بعيد : أنا أريد الحساب .

الايراني : لن يخرج أحد من هنا ، والا احتجزتكم جميعا كرهائن . سنناقش أي موضوع في أي بلد في العالم ، ما عدا ايران .

عربي : أنا أريد أن أؤكد لكم ان اتفاقات كامب دايفيد لن تفيدكم شيئا .

عربي آخر : وأنا أريد أن أوضح لكم أن نظام السادات سوف ينهار .

والمسألة مسألة شهور أو سنوات لا أكثر .
عربي آخر : وأنا أريد ضرب المصالح الأمريكية في المنطقة .
عربي آخر : وأنا أريد تعزيز التضامن العربي واثبات وجوده على الساحة الايرانية والساحة الافغانية والساحة الدولية .
اللبناني : أنا أريد ساحة الدباس .
ابن البترول : وأنا أريد استعادة القدس و . .
عربي آخر : وأنا أريد أن أكون قائدا أو حاكما في مقتبل العمر لأقضي حياتي في تركيز راية النضال والتحرر في كل مكان .
عربي آخر : وأنا أريد أن أكون أمّا في الثمانين أو التسعين من عمرها لاجئة أو نازحة أو مهجرة . تلبس شمالا رومانيا وشحاطة بلاستيك هنغارية تقف وراء الميكروفون في برنامج سلاما وتحية ، وتقول وحول فمها آثار برغل امريكي : أنا فلانة بنت فلان . أهدي سلامي الى فلان وفلان . يا خيي طمنونا عنكم . من عنا كل شيء بخير والحمد لله . بس عمتك "الوحدة" تطلقت . وستك "الحرية" عطيتك عمرها . وخالتك "الاشتراكية" حردانة عند بيت عمها بالسعودية . وجدك "التضامن" بالعصفورية . وخالك "الصمود" طافش من شهرين . . ناس بيقولو مريض عم يتعالج بروسيا وناس بيقولو بأمريكا . اذا سمعتوا شيء عنو خبرونا بواسطة الصليب الأحمر .
عربي : قبل تصفية الاستعمار والامبريالية والاقطاع ، يجب تصفية كل من يريد تصفية القضية الفلسطينية .
عربي آخر : أنت مزاود موتور .

عربي آخر : وأنت رجعي حقير .
أصوات : اخرس . جبان . انهزامي . سلطوي . تصفوي . يميني . فاشست . مخرب . انتهازي . عميل .
عربي : عيب يا جماعة . عيب . انتم أبناء منطقة واحدة ومشاكلكم واحدة واعلامكم واحد . ومستقبلكم واحد . هيا تعانقوا جميعاً وقبلوا شوارب وجرائد بعضكم البعض ودعونا نكمل السهرة على خير .
وصفّى الجميع كؤوسهم على البار .
وصفوا ما شربوه في دورة المياه .
ثم صفوا حساباتهم في الشارع ، وواجباتهم في التقارير ، ودموعهم على الوسائد .

* * *

بث تجريبي

منذ أن أعلن لأول مرة عن اعتزام الدول العربية وعلى رأسها دول النفط ، تمويل مشروع علمي فذ لانتاج أول قمر صناعي عربي ، وأنا اتابع باهتمام بالغ كل ما ينشر في الصحف بين حين وآخر عن المراحل التي قطعها هذا المشروع . ولأنني بطبعي لجوج ضيق الصدر ، فلم أعد احتمل الانتظار أكثر من ذلك حتى ينتهي العمل في هذا المشروع . ولذلك سأفترض أنه انتهى . وأن القمر العربي العتيد قد أصبح جاهزاً بعقاله الذري وجدائله الالكترونية للعد التنازلي والانطلاق بأمان الله من احدى قواعد اطلاق الصواريخ والتصريحات العربية .

وبما أن هذا القمر مصمم في الاساس لبث والتقاط البرامج السياسية والأدبيةوالفنية وسواها من العالم والى العالم ، فانني اقترح على المسؤولين عن رحلة القمر العربي الأول ، البرنامج التالي لبثه فوق العواصم والقارات التي سيمر فوقها :

ـ مبدئيا ، وفور انطلاقه من كبسولته ، يقدم كلمة صغيرة تؤكد أن الزمن يعمل لصالح العرب . وبعدها يقدم أغنية "رباعيات الخيام" لأم كلثوم .

ـ وعندما يأخذ مداره الصحيح فوق العالم الخارجي يبث برنامج "لغتنا الجميلة" لفاروق شوشه ، وهو مقتطفات مما تتبادله الاذاعة

المصرية مع الاذاعات الشقيقة في دول الرفض منذ المبادرة حتى الآن .

فوق صور ، صيدا ، البقيعة ، القليعات : كلمة بعنوان "الحداثة في احداث لبنان" للشاعر ادونيس .

* * *

فوق حطين ، اليرموك ، بواتيه : حديث يكشف اسرارا جديدة عن معارك العرب الكبرى في التاريخ ، يقدمه نزار قباني المستشار العسكري لخالد بن الوليد .

* * *

فوق مبنى الأمم المتحدة والمؤتمرات الدولية الأخرى التي تهتم بالقضية العربية : برنامج "وأخيرا هذا رأينا" وهو عبارة عن حديث يعبر عن آخر تصور لحقوق الشعب الفلسطيني ، يقدمه "١٧" عضوا ينتمون الى "١٧" فصيلا من فصائل المقاومة .

* * *

فوق جميع السفارات الاسرائيلية ومكاتبها التجارية والثقافية في عواصم العالم برنامج "صوت الخليج العربي" وهو أن على اسرائيل ان تفهم ولآخر مرة ، بأنها اذا لم تستجب لرغبة المجتمع الدولي ولم تنسحب من جميع الأراضي العربية المحتلة ، ولم تعترف بجميع حقوق الشعب الفلسطيني في أقرب فرصة فان ساعتها تكون قد حانت . مع الإشارة إلى أن هذا التوقيت دقيق كل الدقة ، لأنه سيكون حسب توقيت ساعات رولكس .

* * *

فوق مقاهي الحي اللاتيني ومونمارتر وغيرها من مقاهي المشاهير من الكتّاب والأدباء المتمرّدين في العالم : حديث يبين كيف يحاجج

الأديب ويناقش طول النهار في المقاهي والشوارع والحانات ، في الرفض والتمرد وغيفارا ودوبريه .وفي الليل ينكب في بيته على كتابة المسلسلات والقصائد البدوية لتلفزيونات قطر ودبي .

* * *

فوق أشهر دور الأوبرا ومسارح الرقص في اوروبا : حديث فني يقدمه احد رجال المخابرات العربية ، يميط فيه اللثام عن حقيقة فنية كبرى . وهي أن الانسان العربي متجاوز اخاه الانسان في الغرب بمراحل في هذا المجال . لأن الفرصة متاحة له باستمرار وفي أي وقت يشاء لتعلم كل أنواع الرقص وغناء الاوبرا في "حفلة" واحدة .

* * *

فوق الكرملين : حديث يبين كيف نبني الاشتراكية والجوامع جنبا الى جنب .

* * *

فوق مسارح بريخت وبرودواي والكوميدي فرانسيز : كلمة وداعية لعميد المسرح العربي يوسف بك وهبي ، يعلن فيها انه الآن يستطيع أن يلاقي وجه ربه وهو مطمئن كل الاطمئنان على مستقبل المسرح العربي ، بعد أن أصبح الوطن العربي كله مسرحا .

* * *

فوق أكبر دور الصحف ووكالات الانباء والاستقصاء في العالم : "حزورة البرنامج" .

خلافاتنا استراتيجية!

خلافاتنا تكتيكية!

خلافاتنا لا استراتيجية ولا تكتيكية!

خلافاتنا مرحلية .
احزر الآن ما هي خلافاتنا؟
الحل : اقلب الصفحة . اقلب المنطقة .

* * *

فوق البيت الأبيض : أغنية . . . سألتك حبيبي لوين رايحين .

* * *

الحافلة

أصبح من تقاليد الركوب في وسائط النقل العامة في المدن العربية الكبرى ، أن يكون الراكب مصارعاً لكي يصعد ، وراقصة شرقية لكي ينزل ، وسياسياً محترفاً لكي يحافظ على توازنه اذا كان واقفاً . أما أصحاب الامتياز الجالسون في مقاعدهم من قبل ، فكان الله في عونهم من النظرات المصوبة اليهم من أعين الركاب الواقفين والمتمايلين فوق رؤوسهم ، لأن العربي بطبعه يحسد الجالس ولو على كرسي تواليت .

عالم عجيب غريب ، لا يجمعه شيء سوى جدران الباص . هذا يشتم السائق لأنه انطلق قبل ان ينزل . وذاك يتوعّد المعاون لأنه أغلق الباب قبل أن يصعد .

سيدة لا يغطي ثوبها أكثر مما يكشف ، تنظر بحقد لكل من حولها ، وكأنهم المسؤولون ، لأن المخرجين لم ينتبهوا اليها ولم يسندوا لها دور البطولة في أي فيلم حتى الآن . وأخرى نقيضة لها تماما تتململ داخل ملاءتها وأكمامها الطويلة قبل أن تقدم النقود لقاطع التذاكر بأصابع مرتجفة لا تكاد تُرى كأصابع المعارضة في البرلمانات العربية .

الجميع صامتون متلاصقون ، وكل منهم يحدّق في نقرة الآخر ، أو يتثاءب قبالته ، ما عدا امرأة عجوز ، حيوية اللسان ، نادرة الأسنان ، لم تسكت لحظة واحدة وكأنها مذيعة في استوديو البث المباشر ، تعطي

النصيحة تلو النصيحة في تفادي الزحام ، وآداب الجلوس ، وتقاليد الوقوف ، وهدفها المستتر من وراء كل هذا هو تأمين الجلوس لبنات جنسها ، داعية للجميع بالصحة والعافية وطول البقاء في الحياة لا في الباص طبعاً . وعندما لم يستجب أحد لرجائها راحت تصب جام غضبها على ركاب وسائقي هذه الأيام ، وهي تخبط على كتف الذي أمامها كأنه منبر خطابة . ولما أشاح عنها مترفعا عنها وعن نصائحها انصرفت الى سواه تروي له كيف كان حتى السائق في تلك الأيام ، وان لم يقدم مقعده فعلا لهذا العجوز أو تلك المرأة ، فقد كان على الأقل يعرضه عليهما . وتمنت متنهدةً عودة الحافلات القديمة وعربات الخيول ذات الأجراس . ولما لم يعلق أحد على أمنياتها أو يتبنى توصياتها ، زفرت زفرة طويلة خشي البعض من أن تنهيها ببيتين من العتابا حنيناً لتلك الأيام .

وفجأة شغر أحد المقاعد من راكبه ، فاندفعت اليه بعينيها ويديها قبل قدميها لتحجزه وتحميه لا لتجلس هي بل لتقدمه لامرأة حبلى صعدت تتأوه وتتمايل لتوها ، بينما ظلت هي واقفة بظهرها المحدودب ويديها المعروقتين الباحثتين عما تتمسك به في هذا الباص ، وفي هذه الحياة . انها مدمنة على العطاء كأنه أفيون في دمها ، أو "قات" تحت لسانها . ولكن ، لم يعد عندها ما تعطيه لهذا الوطن ، غير النصائح بعد أن أعطته ولدها الوحيد المتبقي لها في هذه الدنيا .

بينما ، وفي الوقت نفسه ، كان هناك راكب مخيف رأسه كقلعة الشقيف ، ينهض عن مقعده ويجلس وينفض ثيابه ويفتش تحت المقاعد للمرة العاشرة ، ويرفع أرجل الركاب واحدا واحدا كالبيطري بحثاً عن قطعة نقدية صغيرة سقطت منه أثناء شرائه التذكرة . وقد

خُيِّل للبعض من سرعة شهيقه وزفيره أنه سيحمل الباص الى ما فوق رأسه ، ويخبطه بركابه ، اذا لم يعثر على تلك القطعة النقدية الصغيرة التي فقدها على أرض الوطن . آه لو يعرف هذا الراكب ، بل هؤلاء الركاب جميعا أنها أم هذا الشهيد الذي تملأ صوره جدران الشوارع وواجهات المباني الرسمية لقدموا لها أحسن المقاعد في الباص مع مساند طرية للظهر والمرفقين ، لأنها بثيابها الخلقة ، وظهرها المحدودب ، ويديها المعروقتين الباحثتين عما تتمسك به في هذا الباص وفي هذه الحياة ، كانت تستحق أن تجلس دون الركاب جميعا قبل السائق وقبل وزير المواصلات نفسه .

صحيح أنها لا تعرف حتى الآن لماذا استشهد ابنها بالضبط ، لأن أحدهم قال في حفل تأبينه انه استشهد من أجل إسقاط المؤامرة على لبنان وآخر قال من أجل الحفاظ على عروبة الخليج ، وثالث قال من أجل الثورة في التشاد ، ورابع قال ان دمه منارة على طريق الوحدة ، وخامس قال انه نقلة نوعية على طريق التحرير أو غيره من الطرقات . لم تعد تذكر . كما انها لا تعرف حتى اين استشهد . وكل ما تعرفه انهم جاؤوا به ملفوفاً بأعلام شتى ، وعلى عجل كطعام الرحلات .

ولكن لابد أن يكون قد استشهد لأهداف عظيمة سيقدرها الشعب حق قدرها . . ولذلك ، ستبني له قبرا يكون حديث الأموات قبل الاحياء . . وستزينه بالنقوش والآيات الكريمة والقصائد الجميلة التي قيلت في تمجيده .وراحت تتحسس صرة النقود التي جمعتها من عرق جبينها في خدمة الآخرين ، والمخبأة في صدرها لهذه الغاية . وفجأة امتقع لونها وتجمدت أصابعها حيث هي .

وفيما كانت تقعي وحيدةً في عتمة الليل على أحد الأرصفة

ويدها على خدها ، كان اثنان من ركاب ذلك الباص يفكّان صرة ريفية مضحكة ويحصيان ما فيها من نقود وهما يتساءلان في أية حانة ، في أي ماخور سيسهران بهذه النقود في هذه الليلة ، في هذه المرحلة .

* * *

الزرافة

مع كل ما تزخر به الأرض العربية من امكانات بشرية ومعنوية ومعدنية ، ومع كل ما يقع تحت أيدي أولي الأمر فيها من أموال طائلة وأيد عاملة وصناع مهرة واختصاصيين ومستشارين ، ودراسات ، وميزانيات ، وجامعات ، ومعاهد حرفية ومدارس تطبيقية ، ورجال تخطيط وبعثات علمية ودورات تدريبية واطلاعية وخبراء اميركيين وروس وأوربيين وصينيين وكوريين ومهرجانات خطابية واتفاقيات وتبادل خبرات فان أيا منهم لم يستطع حتى الآن أن يقدم :

رغيفا ناضجا لمواطن .
أو علفا مستساغا لماشية .
أو حذاء مريحا لعامل .
أو جريدة محترمة لقارىء .
أو منهجا مقنعا لطالب .
أو تزويرا متقنا لانتخابات .
أو نهاية معقولة لمسلسل .
أو سريرا نظيفا لمريض .
أو قبرا لائقا لشهيد .
أو رصيفا مستويا لمتسكع .

أو ثقابا مأمونا لمدخن .

لا حسب المواصفات الاميركية أو الاوروبية أو السويدية . . بل حتى حسب المواصفات الصينية أو الكورية . لماذا؟

لأن الاهتمامات الخارجية تأخذ جلَّ وقتهم من أجل القضية ، على أساس أن العلة في الخارج لا في الداخل ، والمأساة هنا أن الخطوات أو القرارات العربية لهذه الغاية مرهونة أبداً بتطور الاحداث العالمية دون ان يستطيعوا التحكم بها أكثر مما يتحكم الرهائن باتجاه الطائرة المخطوفة .

مثلا : كل شيء يتجمد على الساحة العربية ويتحول الى مستنقع . . حتى تنتهي الانتخابات الاسرائيلية ، وتتضح سياسة الحكومة الجديدة . وعندما تنتهي هذه الانتخابات وتتضح سياسة الحكومة الاسرائيلية الجديدة تتحرك الدبلوماسية العربية وتبدأ المؤتمرات والمشاورات والاتصالات والخلافات والمصالحات والتسهيلات والتعقيدات ، دون الاتفاق على شيء طبعا ، حتى تبدأ الحملة الانتخابية في اميركا . فيتوقف كل شيء من جديد حتى تنتهي هذه الانتخابات وتتضح سياسة الرئيس الاميركي الجديد . وعندما تنتهي هذه الانتخابات وتتضح سياسة الرئيس الأمريكي الجديد تبدأ المؤتمرات ، والمشاورات ، والاتصالات ، والخلافات ، والمصالحات ، والتسهيلات ، والتعقيدات ، ودون الاتفاق على شيء طبعا . . حتى تبدأ الحملة الانتخابية في فرنسا . فيتوقف كل شيء حتى تنتهي هذه الانتخابات وتتضح سياسة الحكومة الفرنسية الجديدة . وعندما تنتهي هذه الانتخابات وتتضح سياسة الحكومة الفرنسية والايطالية والبريطانية والاميركية والإسرائيلية وحكومة المانيا وإسبانيا ومالطا يموت

فجأةً زعيم سوفياتي فيتوقف كل شيء ، حتى يعلن رسميا عن وفاته وموعد دفنه ، وتتضح شخصية الزعيم السوفياتي الجديد : خطه وسياسته وتفكيره وعدد أفراد أسرته ومزاجه . وعندما تتضح كل هذه الأمور ، ويستعد لفتح ملف قضية الشرق الأوسط تكون فترة رئاسة الرئيس الاميركي قد شارفت على الانتهاء ، فيغلق هذا الملف وغيره استعداداً لبدء الحملة الانتخابية الجديدة . وهكذا يتوقف كل شيء ، وتبدأ السياسة العربية دورتها الأولمبية من جديد .

ولذلك ، فمن أين لهذا أو ذاك أن يعرف بعد هذا الغياب الطويل ما حل بمواطنيه ورعاياه ، مَن ظُلِمَ ومَن ظَلَم . ومَنْ جاع ومن عطش . . من استقر ومن تشرّد . . من أثرى ومن أفلس . مَن قطع رزقه ومن قُطعت يده . مَن دهسته سيارة أو لبطه مسؤول ، أو أجهز عليه محقق . كم شاعرا عظيما انطفأ . وكم شاعراً تافها تألق . مَنْ مِنَ الكفاءات هاجر ومَنْ مِنَ التفاهات عاد . مَن يستورد ثيابه وعطوره من باريس ولندن وروما . . ومَن لا يجد دواء او دماً لمحتضر .

طبعا ، لن يعرف . ومن الطبيعي الا يعرف ، اذ لو افترضنا أنه سرق من وقته خمس دقائق في اليوم فقط لمتابعة كل من :

الحملة الانتخابية الاميركية والانتخابات الاسرائيلية .

ونشر الصواريخ في اوروبا .

وتوقف محادثات نزع السلاح .

وتصعيد الموقف العسكري في الهند الصينية .

وغزو غرانادا

وغزو افغانستان

وحرب الفوكلاند

وحرب لبنان
وحرب الخليج
ومناورات حلف الأطلسي
ومناورات حلف وارسو
ونتائج مؤتمر هلسنكي
ونتائج مؤتمر مدريد
وأنباء الحرب الأهلية في ايرلندا
والاضطرابات الطائفية في البنجاب .
وحركة الباسك الانفصالية
ومصير منظمة "تضامن"
ونشاطات الألوية الحمراء
ومحاكمات جماعة بادر ـ ماينهوف
ونتائج الحملة الاعلامية على منظمة اليونسكو
ونتائج العجز المالي لمنظمة الوحدة الافريقية .
والتهديد بإغلاق مضيق هرمز
ونشاط المقاومة في السلفادور
وتجدد الاضطرابات في الهندوراس
والجفاف في افريقيا .
والتمييز العنصري
واعتقال الأسقف موزوروا
واغتيال المناضل سبينوا
ثم . . توتر الوضع في الكاميرون
والتعزية بوفاة أحمد سيكوتوري

وتهنئة خلفه تيرا روري

ومتابعة المباريات الأولمبية

ثم . . آخر أخبار المنافسة الفضائية بين اميركا وروسيا وآخر اخبار الحملة العالمية لحماية الفقمة وحيوان الكنغارو من الانقراض .

وآخر الخلافات الاميركية ـ الألمانية حول انبوب الغاز السيبيري .

وآخر خلافات السوق الأوروبية المشتركة حول انتاج الحليب .

. . . فكيف سيتاح له الوقت بعد ذلك للاهتمام بشؤون بلده ورعاياه؟

ولذلك . . . تتولى الأصابع الأجنبية هذه المهمة .

* * *

اللوثة

مواطن عربي : اترك كل شيء من يدك ، واصغ اليّ يا دكتور .
الطبيب : وهؤلاء المرضى الذين قبلك . . .
المواطن : اني اتحدث باسمهم ، فكل امراضنا متشابهة واحلامنا متشابهة وخيباتنا متشابهة .
الطبيب : تفضل . . ممّ تشكو؟
المواطن : عندما اجلس الى خريطة هذا العالم الكبير ، وأضع يدي على خدي وافكر : كم في هذه البلدان والمدن البعيدة المتناثرة هنا وهناك من انظمة مستقرة وقوانين مقدسة وبرلمانات حقيقية ومعارضة حقيقية وصحف حرة واذاعات حرة ونقابات حرة وقضاء محترم وحقوق مصونة ومناهج مدروسة ومواهب متفتحة وطاقات منتجة واختراعات متلاحقة وشوارع نظيفة وسلع متوفرة وأسعار محددة ومصاعد سليمة ومرور منظم وشرطة مهذبة وحدائق منسقة وأمسيات هانئة ونوافير متدفقة وتماثيل متعانقة في كل ساحة وحمام مطمئن على كل كتف وسينما ومسرح واوبرا وباليه وتزلج على الجليد في كل ليلة . . .
ومن ثم عندما أجلس الى خريطة الوطن العربي وأضع قدمي على خدي وأحصي على اصابعي كم في هذه البلدان والمدن البائسة المتناثرة

هنا وهناك من صراصير في الصيف وتزلج على الوحول في الشتاء وجوع وقهر واضلاع بارزة وشفاه مشققة وأرجل حافية وعظام مصطكة وازقة مظلمة وكلاب شاردة وأسنان نخرة وانقطاع مياه وانطفاء كهرباء والقاء قمامة من النوافذ وتبوّل على الجدران وكذب في المواعيد ومماطلة في التسليم وسلع مفقودة وجشع تجار وفوضى ركاب وبذاءة سائقين ودعس ارجل في الزحام وقرص نساء في الباصات وأعراس مزعجة وأبواق مخنثة ونميمة في المقاهي وعنتريات فارغة في الشوارع وسلخ زبائن في المطاعم ومخالفات مرور ومخالفات بناء وتجاوز قوانين وفظاظة موظفين واستعطاف مراجعين وسجون ومعتقلين وتطويق شوارع واقتحام منازل واختفاء اشخاص وأيد مرفوعة وبنادق مصوبة وتشفيط سيارات وصحف كاذبة واذاعات اكذب وبرلمانات مرتجلة واستراق سمع وتنسيق تقارير ومنع تجمع ومنع ترشيح ومنع مغادرة ومنع عودة ومنع حمل ومصادرة كتب ومصادرة املاك ومصادرة حريات وتسريح تعسفي وقتل مواهب واحتضان تافهين ووجوه مقطبة في الدوائر وسُحن مقلوبة على الحدود .

ومع ذلك ، ما إن يغيب احدنا عنه أسبوعا أو اسبوعين حتى ينام والدموع تغطي وسادته حنينا وشوقا اليه . ما العمل يا سيدي؟ لا أستطيع البقاء فيه دقيقة واحدة ولا أستطيع الحياة خارجه دقيقة واحدة . هل اقضي بقية حياتي في قاعة الترانزيت؟ ما اسم هذه الحالة؟ انفصام جوي؟ انقذني يا سيدي . أنا مريض حقيقي .

مواطن آخر : انا مريض اعتباري .

مواطن آخر : انا مريض موضوعي .

مواطن آخر : انا معي مناقير عظمية في كتفي .

مواطن آخر : أنا معي مناقير إعلامية في رأسي .
مواطن آخر : أنا معي انزلاق غضروفي في ظهري وأخشى أن يتحول الى انزلاق جغرافي .
مواطن آخر : أنا مريض سياسيا .
مواطن آخر : أنا مريض اجتماعياً .
مواطن آخر : أنا مريض جبهوي .
مواطن آخر : أنا مريض حاسم .
مواطن آخر : أنا مريض تكتيكيا .
مواطن آخر : أنا مريض استراتيجيا .
مواطن آخر : أنا مكبوت عربيا .
مواطن آخر : أنا مقهور تاريخيا .
الطبيب : هل راجعتم اطباء اختصاصيين؟
المرضى : نعم لم نترك طبيب أنف او اذن او حنجرة او عيون او أسنان او هضم او ضغط او غدد او أعصاب . راجعنا حتى أطباء التوليد ولكن دون نتيجة .
الطبيب : لم يعد أمامكم سوى مراجعة الدكتور كيسنجر فله عيادات شتى في المنطقة .
المرضى : لقد ذهبنا الى عيادته يا سيدي فرفض استقبالنا .
الطبيب : لماذا؟
المرضى : قال إن اختصاصه هو معالجة الأنظمة لا الشعوب .

* * *

كلهم أولادي

منذ أن تسلم الرئيس السادات زمام السلطة من المقبرة ، وتعهد لجماهير بلاده بإطلاق الحريات استبشر البعض خيراً وقالوا : "انتعشنا" . وما إن هدد معارضيه في الخطاب نفسه بأنه سيفرمهم قال الجميع "رحنا" .

والمتتبع لخطابات سيادته منذ توليه السلطة حتى الخطاب الأخير الذي ألقاه عشية الذكرى الرابعة والعشرين لثورة ٢٣ تموز ، لابد ان يلحظ ولعه الشديد باستخدام كلمات معينة في مجالات معينة : فعندما يتحدث عن مشاريعه الصناعية ، يكثر من كلمة "الكترون" . بل منذ وعد جنوده قبل سنوات بأنه لن يرسلهم الى الجبهة الا وفي جعبة كل واحد منهم جهاز "الكترون" وهو لا يفتأ يسرف في استعمال هذه الكلمات عند تدشين أي معمل أو جسر أو مخرطة ، حتى ليظن المراسل الاجنبي أن الشعب المصري سيأكل "الفول" عما قريب بطريقة الكترونية .

وفي مجالات التشريع والمراسيم والقرارات ، قلما تحدث الرئيس السادات عن مرسوم أو تشريع أو قرار ولو كان يتعلّق ببناء نافورة ، إلا ووصفه بأنه قرار تاريخي ، أو اجراء تاريخي ، حتى ليظن المستمع ان التاريخ قد اصبح نائبا للرئيس منذ عام ١٩٧٠ واتخذ مكتبا له الى

جانب زميله حسني مبارك .

وفي عالم الحرية والصحافة ، قلما خلا خطاب له من التحذير والوعيد بكلمات أصبحت تقليدية بالنسبة له مثل "الفرم والسحق والطحن" حتى لو عرضت هذه المفردات التي اطلقت على مدى ست سنوات في تقرير مغفل من التوقيع الى معهد للدراسات النفسية والستراتيجية في العالم لابداء الرأي في مدلولها ، لما تردد في القول ، انها لا يمكن ان تصدر عن رئيس دولة مؤمن بالحرية ، بل عن لحام بصطرما .

وفي مجالات الحنان والعاطفة ورفع الكلفة بينه وبين الشعب ، يحرص الرئيس السادات دائما على مخاطبة الجميع بكلمة "اولادي" . اولادي في الجبهة . أولادي في المعامل . اولادي في المدارس . ومع ذلك كلما اضربت جامعة ، او تظاهر عمال في مصنع ، يساق اولاده فورا من الجامعات والمعامل والمصانع الى السجن! وهنا لابد ان يتساءل أي مواطن : ما هذا الاب الالكتروني إذاً؟؟

مأساة الرئيس السادات وغيره ممن يجيئون الى الحكم مصادفةً او ارتجالا باسم الشعب ، تكمن في انهم قبل ان يضعوا المشاريع السياسية او الاقتصادية او الثقافية لتطوير هذا الشعب ، يضعون حاجزا بينهم وبينه . ويبدؤون بمخاطبته من فوق الاساطيح ، او من وراء الابواب كما تفعل المرأة المحافظة عندما يقرع بابها غريب . ويخاطبونه في السبعينيات بلغة الخمسينيات معتقدين بانه مازال بدويا ساذجا يخضُّ اللبن أمام خيمة القرن العشرين يصدق كل كلمة تقال في الاذاعة ، أو تكتب في الجريدة ، دون ان يدركوا ان أي بائع فول في مصر ، أو أي بائع عرق سوس في غير مصر أصبح يحلل الاخبار وما وراء الاخبار

مثل أي مراسل لوكالة تاس او رويتر ، بل اصبح كل مواطن عربي هو بمفرده اذاعة متنقلة ، ولا ينقصه الا "أنتين" وراء اذنه . ولذلك يخطىء الرئيس السادات عندما يعتقد انه بمجرد تجاهله لاتفاقية سيناء حتى يتجاهلها المستمع ويتجاهل معها محطات الانذار التي اعقبتها وكأنها محطات بنزين لا اكثر . وانه بمجرد ان يقول نحن مع المقاومة حتى يصدق المستمع ويقتنع بأنه فعلا هو مع المقاومة ولا ينقصه إلا الاسم "الحركي" .

ويخطىء ايضا وايضا عندما يعتقد انه بمجرد ان يتجاهل اسم عبد الناصر في خطابه ، حتى يتجاهله الشعب وينساه ، ويقتنع على الفور بأن الذي فجر ثورة ٢٣ يوليو وقادها هو الرئيس انور السادات . وان عبد الناصر هو الذي كان نائبا له طول ثمانية عشر عاما لم ينبس فيها ببنت شفة الا بعد ان رد على برقيات التعزية بنفسه .

أليس من العار أن يغار رجل دولة من رجل دولة آخر كما يغار المطرب من المطرب؟

* * *

الشجرة والأغصان

الذي يزور المنطقة لأول مرة ويستمع الى الاعلام العربي وهو يصب جام غضبه على السادات ، ويعدد المآسي والويلات التي حلّت بالوطن العربي بسبب بادرة السادات ، يخيل له ان هذا الوطن كان جنةً قبلها وصار جحيما بعدها . فهل هذا صحيح؟

هل كانت الوحدة العربية قائمةً وجاءت المبادرة وقوّضتها؟

هل كانت القوات العربية على مشارف الأرض المحتلة وجاءت المبادرة وأوقفتها؟

هل كانت الاشتراكية العربية مطبقةً وجاءت المبادرة وألغتها؟

هل كانت السجون العربية فارغةً وجاءت المبادرة وملأتها؟

هل كانت الصحافة العربية حرةً وجاءت المبادرة وقيدتها؟

هل كانت مظاهر النهب والرشوة والاهمال غير معروفة وجاءت المبادرة وابتدعتها؟

هل كان التهريب محرماً فجاءت المبادرة وحللته؟

وهل كان السير منظماً فجاءت المبادرة وخربطته؟

إذاً ، لماذا نضع "خرجا" على كتف السادات ونحمّله كل اخطائنا ورزايانا؟ ثم من هو السادات هذا؟ انه بنظارته وغليونه وتأتأته ليس بداية مرحلة جديدة في المنطقة بل نهاية مرحلة قديمة . وهو لم يأتِ

بالمبادرة من جيبه ، لأنها امتداد لما حولها وما قبلها كما الكتف امتداد للذراع والذراع امتـداد للأصـابع والأصـابع امتـداد للسـوط . نعم إن السياط العربية القديمة في مصر وغير مصر هي التي وقّعت المبادرة بالأحـرف الأولى منذ زمن بعيـد ، وهي التي أوصلت السـادات الى الحكم ليكمل المشوار وليكمل التوقيع . والأرتال الطويلة التي اصطفت على جـانبي الطريق من المطار الى القاهرة لاستقباله بعد عودته من القدس المحتلة ليست جماهير الشعب العربي في مصر وغير مصر ، بل هي آلات التعذيب بالكهرباء ، أعقـاب السجائر المطفأة على الصدور والظهور . كمّاشات قلع الأظافر .وناتشات الشوارب من الوجوه وناتشات الوطن من الدفـاتر . انهـا أرتال قـوانين الطوارىء ، وصـرخـات الليل الرهيبة ، والهررة التي كـانت تطلق داخل سـراويل النسـاء الريفيـات بتهمة الانتماء لهذه الأرض . . . لهذه الأمة . هي التي رقصت ودبكت على جانبي الطريق وحملت يافطات الترحيب بالمبادرة وبطل المبادرة ، لأنه حامل رسالتها ومعقد آمالها .

ثم من يقتنع بهذا الغضب العارم على صحافة السادات وكتّابه ومطربيه . وبهذه الدموع المنهمرة على الحريات وكم الافواه في نظام السادات . والكل يعلم ان أي حـاكم فرد في المنطقة حتى لو وقع على جدول الرواتب فعنده دائما نسخة بالكربون عن موسى صبري وانيس منصور ومحمد عبد الوهاب . وعنده أيضا اهرامه وأزهره ليحلل ويبارك له خطوته الرائدة ومبادرته التاريخية هذه .

ثم مـاذا فـعلت الدول العـربيـة الأخـرى منذ سنتين حـتى الآن لاجهاض المبادرة ودرء اخطائها عنها وعن شعوبها كما يقولون؟

هل كوفىء مجدّ وعوقب مهمل؟

هل انجزت معاملة؟ أو أسعف مريض بأسرع من ذي قبل؟

هل توقف متطرف أو معتدل عن كرع الويسكي أو غير أنواعه؟

هل نقصت كباريهات الوطن طاولة واحدة وكازينوهات اوروبا زبونا واحد؟

هل نقصت كهرباء التعذيب فولطا واحدا عما كانت عليه قبل المبادرة؟

ماذا فعلت معظم هذه الدول منذ سنتين حتى الآن سوى انها صارت مركز تنبؤات : "مصر ستلعب دور الشرطي في المنطقة" . "السادات سيلعب دور الشاه في الخليج" . "المبادرة ستربط اقتصاد مصر بالامبريالية الامريكية نهائيا" . حتى بعض الدول النفطية دخلت هذا الباب وعلى الله الاتكال كأن اقتصادها مرتبط بغيفارا .

ثم "المؤامرة لن تمر" . "سنحبط المؤامرة" . فبالله عليكم مؤامرة من هذا النوع يدفعها الشرق والغرب وعلى رأسهم أمريكا بالأيدي والأكتاف ، كيف نمنعها ونحن غير قادرين على منع سيارة مخالفة؟

ان الذي سيقضي على العرب في المستقبل ليس الزلازل والبراكين والفيضانات ، بل المزايدات .

لا توجد حرية . . . توجد خطابات عن الحرية .

لا يوجد تحرير . . . توجد يافطات عن التحرير .

لا توجد رؤية واضحة للحاضر والمستقبل . . . توجد مسلسلات بدوية لتعمية الماضي والحاضر والمستقبل .

لا يوجد شعر أو فن أو موسيقا . . . توجد سميرة توفيق .

ومن لا تعجبه هذه الاستراتيجية العربية لمجابهة المبادرة وإحراز النصر ، فليدق رأسه بالجدار الطيب بين لبنان واسرائيل .

التحنيط

هل قرأت "خريف الغضب" للكاتب الكبير محمد حسنين هيكل؟

لا . لم أقرأه ، ولن أقرأه ، ولن ألمسه لأن الكاتب الكبير محمد حسنين هيكل تحوّل ، والحمد لله ، الى تاجر جثث لا أكثر ولا أقل . فمنذ عشر سنوات ونيف وضع قبر صديقه الروحي عبد الناصر في كيس ، وحمله على كتفه ، وراح يدور به من مكان الى مكان يبيعه يوميا للصحف الاسبوعية ، وبالجملة لدور النشر . وعلى ماذا؟ وكل ما فيه :

قال لي عبد الناصر على الغداء ، وهمس لي على العشاء ، واستدعاني الى استراحته ، ولاحقني الى البيت بتلفوناته ، بحيث يختلط الأمر على القارىء ويظن ان هيكل كان رئيسا للجمهورية العربية المتحدة ، وعبد الناصر رئيسا لتحرير جريدة "الأهرام" .

وها هو الآن يضع قبر السادات في الكيس نفسه ، ويحمله على الكتف نفسها ، ويبيعه بالطريقة نفسها بانتظار الجثة الثالثة ، بحجة أنه يزيح الستار عن أسرار كثيرة تتعلق باتفاقيات كامب دايفيد ، وما جرّته على المنطقة من مصائب وويلات .

والحقيقة انه لا يزيح شيئا من كل هذا ، وكل دموعه المدرارة على الثورة المصرية وغضبته على امريكا وتحذيراته من حرب عالمية ثالثة لأن السادات ازاحه من منصبه في جريدة "الاهرام" .

ولا يستغربنَّ أحد ان كاتبا كبيرا مثل محمد حسنين هيكل قد يفكر على هذا النحو ، اذ ليس كالعربي من يحول القضايا الشخصية الى قضايا عامة ، والقضايا العامة الى قضايا شخصية .

والدليل على مصداقية دموعه على الثورة المصرية وغضبته العارمةمن المؤامرات الامريكية عليها انه لا يقبض ثمن أي كلمة يكتبها عنها او عن رجالاتها الا بالدولار .

لا ، لم أقرأ "خريف الغضب" ولن اقرأه ولن ألمسه . ففي ظروف الطغيان ليست البطولة ان تجلس على ظهور الدبابات بل ان تقف امامها .

هل قرأت القصيدة الفلانية؟

هل اطلعت على الديوان الفلاني؟

واقرأ كل ما تطوله يدي من شعر ونقد ودراسات بعيني وأذني وحتى لمساً بأصابعي ، فلا أجد الا مجموعة من النداءات والاغراءات للعودة الى ماضينا التليد في الحب والسياسة والزواج والطلاق والنوم والاستيقاظ ، وكأن هناك من يريد تحنيط الأجيال العربية وربطها بسلاسل الماضي حتى تتفرغ اسرائيل للمستقبل .

فيا أخي القارىء ، ويا أخي الكاتب ويا أخي العاشق ويا أختي العاشقة :

لا تأخذوا فقط بشعر المناهج المدرسية ، ولا تصدقوا ما يقوله حملة جوائزه التقديرية والتموينية . فالشعر القديم الذي تدرسون أصوله

وتستشهدون بنماذجه هو فقط ذلك الذي حظي بموافقة الحاكم في ذلك الزمان ، والذي أمر الحضور بطرف سيفه بتداوله وتناقله من لسان الى لسان حتى وصل الى زماننا ، لأن كل خليفة أو أمير أو رئيس عشيرة في ماضينا التليد كان له أيضاً وزير اعلامه ورقابته الخاصة ومخابراته العامة والظروف الحاسمة التي تمر بها قبيلته أو عشيرته ، ولو من أجل بعير ضائع أو محظية متمنعة .

فالشعر ليس نظاما بل فوضى .

وليس وليد هذا الزمان أو ذلك ، بل لقيط العصور كلها .

انه عزلة المتنبي لا فخره .

حزن أبي نواس لا طرائفه .

جنون قيس لا حبه .

غربة عنترة لا شجاعته .

خريف فرلين لا ربيع البحتري .

موت رامبو وجبران ونجيب سرور وكمال ناصر وكمال خير بك وأمل دنقل ، وانتحار لوتريامون وخليل حاوي وتيسير سبول وعبد الباسط الصوفي في ميعة الصبا ، لا شيخوخة صالح جودت وأحمد رامي وميخائيل نعيمة .

الشعر هو الذي لا يقودك الى الدخل الثابت والمكان المعهود ، والمسلسل المشوق بين أفراد عائلتك ، بل الى المعتقلات النائية ، والمناقشات البائسة والصيدليات المناوبة ومستشفى المجانين .

الى مخاطبة الأحذية في مكاتب الاستخدام .

والنعاس القاتل في مراكز الحدود .

الى الصحافة اليومية .

الى الصحراء بعيدا عن أهلك ووطنك والزغب الناعم على خدود أطفالك ، هناك حيث لا تستطيع أن تسعد احدا او تبعد الاذى عن أحد .

ولكي تكون شاعرا عظيما ، يجب أن تكون صادقا .
ولكي تكون صادقا يجب ان تكون حرا .
ولكي تكون حرا يجب ان تعيش .
ولكي تعيش يجب ان تخرس .

* * *

الكناس

الصهيونية والاستعمار والامبريالية يريدون رأس الثورة الفلسطينية .

الثورة الفلسطينية تريد رأس الصهيونية والاستعمار والامبريالية .

المتآمرون يريدون رأس الأنظمة التقدمية .

والأنظمة التقدمية تريد رؤوس المتآمرين .

اليمن الجنوبي يريد رأس اليمن الشمالي .

واليمن الشمالي يريد رأس اليمن الجنوبي .

البوليساريو يريدون رأس المغرب .

والمغرب يريد رأس البوليساريو .

الشرعية في لبنان تريد رأس سعد حداد .

وسعد حداد يريد رأس الشرعية ورأس الناقورة .

السادات يريد رأس الجميع .

والجميع يريدون رأس السادات .

وفوق كل ذلك بدأت معظم صالات المنطقة بعرض فيلم "الفك المفترس" . . . يا الهي هل نعيش في مسلخ؟

واختبأت في أول وأعمق حفرة صادفتني . ومن كثرة دهاليزها

وتراكم النفايات وعلب المحفوظات الامريكية الفارغة في قعرها ادركت انها أحد خنادق النضال العربي ضد الاستعمار والامبريالية المنتشرة بكثرة في جميع شوارع وازقة العالم الثالث . وهي تحفر في الأصل كاستحكامات لمجابهة أي خطر خارجي . ومع مرور الأيام والسنين تتحول الى كابلات هاتف أو مباول للجماهير الغاضبة من تأخر تلك المجابهة .

وما ان استقر بي المقام وصرت في منأى عن أي خطر داهم حتى اطل أحد الكنّاسين في آخر الليل وسألني مستغربا : ماذا تفعل في هذه الحفرة ، هيا اخرج بسرعة .

فقلت له : أمجنون أنت؟ ألا تسمع الأخبار؟

قال : ولكن اختفاءك سيثير مشكلة . . سيقيم الدنيا ويقعدها .

قلت : موسى الصدر ونسيته الناس بعد اسبوع .

قال بحزن : فعلا . ولكن ألا تفكر بأهلك وذويك؟

قلت : أنا رجل أناني لا أفكر الا بنفسي . ولن أخرج ما لم أسمع أجوبةً واضحةً على اسئلتي . هيا ابعث بطلب مندوب عن الاعلام العربي ليفاوضني .

قال وهو يرفع مكنسته بفخر : أنا من تبحث عنه . قضيت حياتي وأنا أكنس الصحف والافتتاحيات والتعليقات ، وأسئلة القراء وردود القراء . ان مكنستي هذه هي "غوبلز" الاعلام في المنطقة .

قلت : ولكن اسئلتي شخصية جداً .

قال : وكنّست في حياتي الكثير الكثير من القضايا الشخصية والقضايا العامة .

قلت : حسنا . هل مصادفةً ، كلما سافرت من الوطن أو عدت اليه ،

أول جريدة افتحها تطلع لي صورة محيي الدين البرادعي؟
هل مصادفةً أن يموت مطرب مثل كلود فرانسوا من مصباح كهربائي صغير وعندنا كل مطرب محلي لو ابتلع "مفاعلا نوويا" لا تهتز فيه شعرة او موال؟
ثم هل مصادفةً ان الاذاعات والمسارح العربية لم تعد تجد ما تقدمه للجماهير العربية في أية مناسبة وطنية أو قومية أو وحدوية الا سميرة توفيق؟ هل صارت سميرة توفيق ساطع الحصري؟
قال : هذه أسئلة شخصية جدا ، جدا ، اعتذر عن الاجابة عليها .
قلت : حسنا . هل مصادفةً ان تقطع جميع الدول الاشتراكية علاقاتها باسرائيل بعد حرب الـ٦٧ باستثناء دولة واحدة . ثم تصبح هذه الدولة أكثر الدول الاشتراكية اخلاصا للشعوب العربية وأكثرها صداقةً ووشوشة لحكامها وسفرائها؟
ثم هل مصادفةً ، اذا ما أقيم احتفال وطني ما في أي بلد تقدمي فأول من يصل للتهنئة هم الرجعيون والمحافظون؟ واذا ما أقيم مثل هذا الاحتفال في أي بلد رجعي أو محافظ ، فأول من يصل لاهثاً للتهنئة والمباركة هم التقدميون والثوريون؟
ما هذه الطميمة؟ ما هذه "الكلا الكلا" السياسية؟ يجب أن أفهم "مدّ لي يد العون أرجوك" .
فمد لي مكنسته وقال : هذه ليست أسئلة ، هذه مذكرات توقيف . اخرج من هذه الحفرة وعد الى بيتك ودعني أعود الى بيتي .
قلت : لن أخرج حتى أسمع ما أريد سماعه .
قال : وهل تقضي حياتك وحيدا محروما من كل شيء داخل حفرة؟
قلت : نعم . سأعيش وحيداً بلا حب بلا أمل مثل فريد الأطرش .

قال : ولكن الرطوبة ستقتلك . الا ترى الماء يجري من تحتك؟
قلت : هذا ما أعرفه منذ زمن بعيد . الماء يجري من تحتنا والسياسة من فوقنا . . . فأين نطير؟
قال : يبدو أن أوطاناً كثيرة هي التي ستطير .

* * *

ثالثا أم رابعا

من يذكر بيانا مشتركا صدر منذ ضياع فلسطين حتى الآن في ختام أية خطوة أو اجتماع أو محادثات بين أي مسؤول أو جهة عربية وبين أي مسؤول أو جهة أجنبية حول السياسة أو الاقتصاد او الثقافة او التربية أو الرياضة الا وأكد فيه الجانبان أن "المحادثات كانت بناءة ومثمرة ، وأن وجهات النظر كانت متطابقة . وأن التفاهم حول مجمل القضايا كان كاملا" .

ومع أن الوطن العربي خُرِّب ولم يبق فيه حجر على حجر باستثناء السجون وملاجىء الحكام المحبوبين جدا من شعوبهم .

ومع أن المخابرات العربية لم تترك فكا مطابقا لفك في فم كل مواطن يعمل بالسياسة . ومع أنه لم تبق دولة عربية متفاهمة مع دولة أخرى أو حزب متفاهم مع جاره ، حتى أن فيروز والأخوين رحباني اختلفوا . ومع ذلك ، فالبيانات العربية المشتركة مازالت تصدر بالصيغة نفسها وبالكلمات نفسها وبالتحية نفسها للشهداء والاستغباء للأحياء .

فشلنا في فلسطين وفي اليمن وفي أثيوبيا وفي أوغندا وفي الصحراء الغربية وفي لبنان وفي ايران وفي أفغانستان .

فشلنا في امريكا وفي روسيا .

فشلنا في الحوار العربي ـ الأوروبي وفي دول عدم الانحياز .

فشلنا في الوحدة الملكية والوحدة الجمهورية .

فشلنا في هزيمة حزيران وفي انتصار تشرين .

فشلنا في البترول وفي الفوسفات وفي الغاز الطبيعي .

فشلنا في التضامن وفي الصمود . وفي وحدة الهدف وفي وحدة المصير .

فشلنا في مؤتمر الخرطوم وفي مؤتمر الرباط وفي مؤتمر جنيف .

ثم فشلنا في المبادرة . وفي مفاوضات الحكم الذاتي .

فشلنا حتى في الخيانة .

ومع ذلك ، فالبيانات العربية المشتركة مازالت تصدر وفي أولى توصياتها الهلع على هذه المنجزات والعمل على حمايتها ، وتهديد الاستعمار والامبريالية من أي محاولة للمساس بها ، ووعد الشعب العربي بتحقيق المزيد منها .

ولأن الكذب العربي بلا حدود .

والارهاب العربي بلا حدود والتسامح العربي بلا حدود .

والتطرف العربي بلا حدود والتعقل العربي بلا حدود .

صار الوطن العربي بلا حدود .

لماذا نفشل تقدميين ورجعيين . متطرفين ومعتدلين . منتصرين ومنهزمين؟

أولاً : لأن المفاوض الأجنبي يأتي الى المحادثات وهو قابض الموضوع الذي جاء من أجله مئة في المئة ، بينما المفاوض العربي يأتي الى المحادثات وهو غير قابض سوى راتبه وتعويضات سفره .

ثانيا : المفاوض الأجنبي يسافر لاجراء المحادثات وموظفو سفارة بلاده وأجهزة اعلامها ومخابراتها ترقبه وترعاه وتقدم له كل مساعدة

ممكنة للنجاح في مهمته . بينما المفاوض العربي يسافر لاجراء تلك المحادثات وموظفو سفارة بلاده وأجهزة اعلامها ومخابراتها ترصد خطواته وتحصي أنفاسه حتى لو دخل الى التواليت لتعرف اذا ما نطق بكلمة ليس فيها تأييد لنظام الحكم في بلاده بمناسبة وبدون مناسبة .

ثالثا وهو الأهم : المفاوض الأجنبي يجلس الى مائدة المحادثات وخاصة اذا كانت تتعلق بقضية فلسطين وهو هاضم عبر تاريخه الطويل التراث العربي واللاتيني والاغريقي ومعظم الاتجاهات السياسية والاقتصادية والفكرية في المنطقة وفي العالم . بينما المفاوض العربي يجلس الى مائدة المحادثات وهو هاضم عبر تاريخه الطويل ألف طن فول وألف خروف مكتف وفوقها حقوق شعبه وشعب فلسطين .

* * *

الملائكة

أحقاً أن انشقاق فصائل المقاومة ودكّهم لشباب ونساء وأطفال وبيوت بعضهم بالقنابل والصواريخ العابرة للقارات كان فقط بسبب خلافات في وجهات النظر حول بعض التعيينات والترقيات بين صفوفهم؟

وأن رحيل عرفات عن طرابلس في عرض البحر وتوقفه في القاهرة ولقاءه الرئيس المصري كان فقط بسبب الحنين الى الماضي والقاء التحية؟

وأن احداث ايلول الأسود كانت فقط بسبب تجاوز بعض أفراد المقاومة لآداب السلوك وعدم مراعاتهم تقاليد الضيافة؟

وان استضافتهم في جنوب لبنان وعلى مرمى المدفعية الاسرائيلية بحماسة لبنانية وعربية منقطعة النظير كانت فقط بسبب عدم وجود مكان آخر الا ذلك المكان في شبه القارة العربية كلها؟

وان حرب لبنان التي دمرته أرضا وشعبا وسيادة ، وذهب ضحيتها مئات الألوف من القتلى والجرحى واللاجئين والمهجرين ، والتي تدخلت فيها جميع الدول العربية والاسلامية والافريقية ودول عدم الانحياز ودول الشعوب الأوروبية المشتركة والفاتيكان واميركا وروسيا والهند وباكستان والصين . . . كانت فقط بسبب مرور باص للمقاومة

في عين الرمانة واطلاق الرصاص عليه من أحد السطوح في عام ١٩٧٥؟

وان السادات ما كان ليخلف الرئيس عبد الناصر ويوقع اتفاقيات كامب دايفيد وينهي حالة الحرب مع اسرائيل ويتبادل معها السفراء لو لم يكن مصادفةً النائب الأول والوحيد لرئيس الجمهورية حين وفاته؟

وان ما يعانيه العرب حتى الآن من تخبط ومذابح وانقسامات وخلافات ومحاور هو فقط بسبب هزيمتهم في حرب حزيران (يونيو) ، وان سبب هزيمتهم في حرب حزيران (يونيو) هو فقط لأننا كنا ننتظرهم من الشرق فجاؤوا من الغرب؟

ثم ، أحقاً ان اسرائيل فشلت في غزوها الأخير للبنان وان كل همها هو الخروج منه بأقل الخسائر الممكنة؟

وان اميركا هي الأخرى فشلت على الساحة اللبنانية والعربية وخرجت تجرّ اذيال الخيبة والهوان ، وان روسيا نجحت في سياستها وعادت قسرا الى لبنان والمنطقة؟

في الحقيقة ان المواطن العربي لا يصدق أذنيه وهو يسمع هذه الأنباء لأنه لا همّ له ولعائلته ولأطفاله سوى أن تخرج أميركا من المنطقة لتعود اليها روسيا أو لتخرج روسيا لتعود اليها بريطانيا ، أو لتخرج بريطانيا وتعود فرنسا . وان يتحول الوطن العربي بعد كل هذا الاوقيانوسات من الدم والدموع التي سفحت على أرضه الى ملعب عالمي لكرة السلة . فريق يريد ان يرمي الكرة في سلة الغرب والآخر يريد ان يرميها في سلة الشرق ، والقضية الأساسية في سلة المهملات .

نعم في سلة المهملات ، والا فأين هي القضية الفلسطينية الآن

ولماذا انتقلت الى المرتبة الثالثة أو الرابعة من اهتمامات العالم مثلها مثل أية أغنية تروج لفترة ثم تأتي أغنية جديدة لتطغى عليها وتسرقها مستمعيها؟

طبعا إنها اتفاقيات كامب دايفيد وخروج مصر من ساحة النضال العربي أو الكفاح العربي سَمِّه ما شئت . . .

ولكن هل إلغاء هذه الاتفاقيات الآن يعيد المقاومة الفلسطينية الى الساحة اللبنانية؟

وهل الغاء اتفاقيات القاهرة يعيدها الى الساحة الاردنية؟

وهل الغاء اتفاقيات كامب ديفيد واتفاقيات القاهرة واتفاقية سيناء واتفاقيات الهدنة يعيد عجلة الأحداث الى الوراء؟

هل تعيد احمد سعيد الى اذاعته وهيكل الى "أهرامه" وعبد الناصر الى شرفته؟ وحتى لو عاد أحمد سعيد الآن الى اذاعته فماذا سيقول لمستمعيه؟

وحتى لو عاد هيكل الى "اهرامه" و"صراحته" فماذا سيكتب لقرائه؟

وحتى لو عاد عبد الناصر نفسه الى شرفته فبماذا سيخاطب جماهيره؟

ان اسرائيل لا تريد توقيعا بل واقعا .

والواقع يقول من أعماق القبور وشحنات الأطراف الصناعية واشارات النصر البائسة فوق جثث الأطفال والحقائب المدرسية المشتعلة في لبنان : ان آخر ملجأ فوق الأرض في هذا الشرق التعيس لكل من ضاقت به سبل العيش او القول او الكتابة او النضال في بلده قد انتهى .

وان آخر ورقة خضراء في بيداء الارهاب العربي كانت هي الغاية والمبتغى منذ عام ١٩٧٥ حتى الآن . وقد صممت يرقات القز الجاهلية ان تنال منها ، وان تقضي عليها مهما كان الثمن حتى لا يبقى لبلد عربي فضل على بلد عربي آخر الا بالتقوى والدبابات .

وهذا الواقع يصرخ : ها هو الوطن العربي يحترق من اطرافه الأربعة ، فحرب لبنان تبتلعه من الغرب ، وحرب الخليج تبتلعه من الشرق ، واسرائيل تزدرد ما ابتلعته من الجنوب ، وتركيا تتهيأ لابتلاع ما يسمح به خاطر الاجاويد في المنطقة بحيث لا يبقى من ترابه ما هو حر وآمن ومستقل الا ما يكفي انابيب الاختبار في معامل تحليل التربة . وها هو الواقع يهمس في أذن المواطن العربي ان ليس امامه سوى ان يأكل ويشرب وينام ويسهر ويسكر ويمرض ويموت .

* * *

واو الجماعة

إذاً ، حدث الانشقاق داخل صفوف المقاومة وغادر عرفات طرابلس . وزار القاهرة . واجتمع بحسني مبارك .

وقامت الدنيا ولم ولن تقعد بين مؤيديه ومعارضيه فلسطينياً وعربياً ودولياً . إذاً ، دخل الصراع العربي ـ الاسرائيلي مرحلةً جديدة :

إذاً ، هناك شعارات جديدة .

ويافطات جديدة .

ومسيرات جديدة .

وخلافات جديدة .

ووساطات جديدة .

ومنظمات جديدة .

ومساعدات جديدة .

وتجاوزات جديدة .

واتهامات جديدة .

ومؤتمرات جديدة .

وقرارات جديدة .

ووعود جديدة .

وهزائم جديدة .

ومخيمات جديدة .

إذاً ، لا جديد تحت الشمس او القمر او النجوم ، ومازال النضال العربي لتحرير فلسطين يتابع مسيرته المعهودة من نجاح الى نجاح ومن نصر الى نصر منذ زمن أحمد سعيد حتى الآن .

فالعرب يأخذهم الكلام عادةً ، ومن كلمة من هنا وتصريح من هناك يعملون جاهدين ومشكورين على تهيئة الأجواء العربية والدولية والاسلامية والصحفية والثقافية والاقتصادية للحرب : مؤتمرات ، اجتماعات ، تحذيرات ، تهديدات ، ودعوات أقلّها تحرير بيت المقدس والصلاة في القدس حتى اذا ما قامت الحرب خرس الجميع وكأن على رؤوسهم الطير او "اوراكس" ودفنوا رؤوسهم في الزوايا وأيديهم على آذانهم حتى تنهي اسرائيل عدوانها وتداوي جرحاها وتسرح احتياطها وتشحم دباباتها وتشق الطرقات وتبني المطارات وتزرع المحاصيل وتبدأ بجنيها من الأرض التي احتلتها ، يهبّ العرب هبة الرجل الواحد ويبدؤون بطولاتهم على حساب رجال المقاومة ونسائها في تلك الأرض : دمرنا جسرا . نسفنا عبارة ، اعترضنا دورية هنا وتصدينا لشاحنة هناك ، ولا شيء أكثر من ذلك ، يوما بعد يوم . . وشهرا بعد شهر . . وسنة بعد أخرى . حتى يملّ المواطن العربي والعالم معه هذه الأخبار وهذه الانتصارات . وما إن يصبح هذا الاحتلال واقعاً جديداً ، حتى يهيئوا بكلمة من هنا وبتصريح من هناك ، الأجواء لحرب جديدة واحتلال جديد حتى ينسى المواطن العربي والعالم معه الاحتلال القديم وينشغل بالاحتلال الجديد وهكذا دواليك .

حتى ييأس المقاتل من الحرب .

والسياسي من السياسة .

والصحافي من الصحافة .
والكاتب من الكتابة .
والفلسطيني من فلسطين .
واللبناني من لبنانه .
والخليجي من خليجه .
والعربي من عروبته .
والمتفائل من تفاؤله .
والمواطن من وطنه .

والوطن من أبنائه . بدليل أنه بعد ست وثلاثين سنة وأكثر من عمر الكفاح العربي والزحف المقدس نفسه لاستعادة فلسطين ، ها هي فلسطين تسلّم على الأراضي العربية المحتلة . . والاراضي العربية المحتلة تسلّم على لبنان . . ولبنان يسلّم على الشعوب العربية . . والشعوب العربية تسلّم أمرها لله .

ثم ، لماذا تتسابق مختلف الأنظمة والتيارات والجبهات والمنظمات العربية والفلسطينية وأجهزة إعلامها من أقصى اليمين الى أقصى اليسار لتهديد وتحذير وإنذار بعضها من أي خطوة نحو الصلح المنفرد؟

ماذا يريدون إذاً؟
صلحاً جماعيا؟!

* * *

سكتت... عن الكلام المباح

بعد أن أصبحت التكتلات الاقتصادية والمؤتمرات الدولية موضة هذا العصر ، كمنظمة أوبيك ، والسوق الاوروبية المشتركة ، تنادى عدد من فقراء العالم المتنوّرين لاقامة سوق مشتركة للدول المصدرة والمستهلكة للحزن والدموع ، ودعوا الى اجتماع تمهيدي في مكان ما من العالم تحت شعار : يا تعساء العالم اتحدوا وتجمعوا ليسهل على الشرطة مراقبتكم واعتقالكم . وقد لبى هذه الدعوة عدد كبير من الوفود ، وجاؤوا الى مكان الاجتماع مشيا على الاقدام بزيهم الوطني التقليدي وهو السحنة العابسة والاطراف المرتخية . وبعد أن تربعوا على الأرض وتبادلوا اعقاب السجائر واعقاب المبادىء والشعارات ، طلب اليهم رئيس الجلسة "وهو أكبرهم سنا وأكثرهم عبوسا" الوقوف دقيقة صمت حدادا على ارواح شهداء بلادهم وشهداء الانسانية جمعاء ، فحاولوا ذلك ، ولكنهم لم يستطيعوا بسبب الارهاق وسوء التغذية ، وطلبوا السماح لهم ـ مع الاسف الشديد ـ بتحيتهم وهم جالسون ، فوافق على الفور وجلس قبلهم ونام من أول الجلسة حتى آخرها والتي تمخضت عن المهن والاعترافات التالية :

عريف الحفلة : أنا مطرب مغمور اسمحوا لي أن افتتح هذا المؤتمر بموال "خائن يا زمن" وشكرا .

المندوب الأول : أنا كـأجـيـر حـلاق سـأقص لسـان كل من يعارضني . والسلام عليكم .

المندوب الثاني : أنا كأجير صائغ . اينما ذهبت ، واينما جئت لا اسـمع الا شـعـار "الوقت من ذهب" "الوقت من ذهب" يتـردد على السنة السياسيين والموظفين والطلاب والمعلمين والمصححين ، إذاً كيف وصلنا الى هذا الواقع "التنك"؟

المندوب الثـالـث : انا كـفـران ، اسـمـحـوا لـي أن انفض يدي من الطحين أمامكم واسأل : كـيف يتنكّر الجائع للجائعين عندما يشبع . وشكرا .

المندوب الرابع : أنا أجير نجار لا علاقة لي بالسياسة لا من قريب ولا من بعـيـد . . ولكنني أعـتـقـد أن الوطن العـربي ينتظره الكثـيـر من الخوازيق .

المندوب الخامس : انا شرطي سير . . طاقتي محـدودة . . وفـمي مـحـدود لا يتـسـع لصـفـارتين مـعـاً . . واحـدة للمـواطنين وواحـدة للمسؤولين .

المندوب السـادس : أنا شاعـر ومسـتخـدم في "بنك" وقـد أصبح الشعر على الشكل التالي : وللحرية الحمراء باب ، بكل يد "قابضة" يدق .

المندوب السـابع : أنا بائع صحف متجول . واليكم هذا النبأ الـهام : لقد أميط اللثام مؤخراً عن سرّ الصحون الطائرة الذي حيّر علماء الفضاء لأمـد طويل . لقـد تبين ، ايها الزمـلاء ، انهـا ليـست الا الصـحـون التي يقذفها الفقراء من النوافذ عبر الأجيال لأنهم لا يجدون ما يأكلونه . ولذلك لا تستغربوا اذا ما تحدثت الصحف عـما قـريب عن "تمليات

ومطابخ بكاملها" طائرة في الفضاء ايضا .

المندوب الثامن : إذاً انا كمواطن حائر بين القديم والجديد اقترح على الفور ان تحدث كل دولة ننتمي اليها : وزارة جديدة "للرعب" من المستقبل ، ووزارة "عتابا" للحنين الى الماضي .

المندوب التاسع : انا كبائع يانصيب لا أؤمن الا بمهنتي ، ولذلك أقول لكم بأننا قد نربح معركتنا في هذا العالم وقد لا نربح . . ولكن من المؤكد حتى الآن ان الجوائز الكبرى هي من نصيب الدول الكبرى . . أما نحن فلن نربح الا جوائز الترضية والسلام عليكم . وبكره السحب .

وانتهى الاجتماع بسرعة . . . وساروا وراءه صفاً واحداً بثيابهم الخلقة تحت علم من "البالة" وهم يرددون بصوت مرتجف واحد :

نحن الشباب لنا الغد

وبرده المجلد وخبزه المقدد .

* * *

من الصفر

احتفلت الدول العربية في الثالث من شهر تشرين الأول المنصرم بيوم الطفل العالمي ، بناء على توصية رسمية من اليونسكو عممتها على جميع الدول الاعضاء في الأمم المتحدة .

وقد أقيمت بهذه المناسبة مختلف الندوات التربوية والاحتفالات الترفيهية ، والقيت المحاضرات التي تنوه بأهمية الطفل في المجتمع وتحثّ على ضرورة العناية به صحياً واجتماعياً ونفسياً ووطنياً ، لما له من دور بارز في مستقبل أمته وتطورها .

والواقع ، ان الدول العربية ، على اختلاف ميولها وأنظمتها ، بدأت في الأونة الأخيرة تولي اهتماما متزايدا بتربية الطفل والطفولة ، وتقدم كل ما من شأنه ان يساعد في نمو هذه البراعم الصغيرة وتفتحها وصقل مواهبها وامكاناتها ، بما يتفق وأحدث أساليب التربية المعاصرة ، ولذلك ، فهي لا تفوت فرصة لحضور أي مؤتمر عالمي يتعلق بالطفل والأطفال ، حتى ولو كان هذا المؤتمر سيبحث في شؤون "المصاصات والحفاضات" .

أما على الصعيد القطري لكل دولة ، فيبدو الاهتمام بالطفل العربي أكثر جديةً وشمولاً . فعلى صعيد الثقافة مثلا ، بالاضافة الى ما يصدر حاليا من مجلات مخصصة للاطفال ـ كميكي وسوبرمان

وتان تان ، وسمر وبساط الريح والسندباد وسعد وسعدون وحمد وحمدون ـ من أقصى المشرق العربي الى مغربه ، فان المؤسسات الثقافية والتربوية في كل دولة ترصد المبالغ الضخمة في ميزانيات كل عام لاصدار المزيد من هذه المجلات والمطبوعات . وهي تحشد لهذه الغاية أشهر الخطاطين والمحررين ورسامي الكاريكاتير ، لتقدم للطفل العربي الغالي أمتع القصص المصورة التي تغذي خياله ، وأغرب الوقائع التاريخية التي تثير مشاعره ، وأنبل الحكم والمواعظ التي تهذب اخلاقه ، ناهيك عن الطرف والحزازير التي توسع مداركه وتدفع عقله الغض نحو مناهل العلم والمعرفة .

ومن جهة أخرى ، لا يخلو برنامج اذاعي أو تلفزيوني في جميع المحطات العربية من ركن يومي للأطفال يقدم لهم احدث التمارين الرياضية وأجمل الأفلام والتمثيليات الفكاهية والأحاديث التربوية ، يقوم بتقديمها دورياً نخبة من الدكاترة والمختصين في هذا المجال .

وكما أنه لم تعد هناك جريدة يومية أو أسبوعية تخلو من زاوية خاصة بالأطفال وأدب الأطفال ، كذلك لم تعد تقام حديقة في جميع عواصم الوطن العربي ومدنه الكبرى دون أن يكون فيها زاوية خاصة بالأطفال ، تنصب فيها الأراجيح ، وتقام على جوانبها الألعاب و"الزحليطات" لتسلية الأطفال وبعث الحيوية والنشاط في نفوسهم وأجسامهم . ولم تعد صورة أي وجيه رسمي أو أمير منطقة في الوطن العربي تظهر في المهرجانات والاحتفالات الا وهو يحنو على الاطفال ويبتسم للأطفال .

ومن الطبيعي أن الغاية المرجوة من كل ما سبق ، تربية الطفل تربية صحيحة ثقافيا ونفسيا وصحيا لخلق جيل واع في المستقبل ،

متمسك بأرضه وشعبه وتاريخه وعروبته ونظام حكمه ، ومستعد للتضحية بالغالي والنفيس من أجل قيمه ومبادئه التي تعلمها منذ الصغر على حساب الدولة . وفي سبيل هذه الغاية تنفق الدول العربية الملايين سنويا ثمن كتب ومجلات وأفلام وبرامج ومسلسلات إذاعية .

ولكني اعتقد أن كل هذه الملايين تنفق سدى .

فكل ما يتعلمه الطفل العربي في هذه المرحلة وما يكتسبه من علوم ومعارف ومباهج وثقافات أدبية وتربوية هو بلا طائل . لأنه ما إن يجتاز مرحلة الطفولة هذه ويدخل الحياة العربية الكريمة . . . فانه من أول دفشه في باص ، وأول كلمة "رفاع رجلك ولا حمار" (بالعسكرية) وأول لبطة على بطنه في مركز مباحث ، سينسى المسكين حتى الحليب الذي رضعه من ثدي أمه . . . ويبدأ من الصفر!

* * *

جورج اورويل العربي: عام ١٩٩٤

الدورية : قف . اطفىء المحرك . لماذا تتجاوز السرعة القانونية؟

السائق : لألاحق الأحداث .

الدورية : هويتك؟

السائق : من المحيط الى الخليج .

الدورية : اسمك؟

السائق : سر وطني .

الدورية : اوراق السيارة؟

السائق : سر ميكانيكي .

الدورية : نريد اسمك وأوصافك كاملة؟

السائق : سجّل : أنا عربي .

الدورية : العينان؟

السائق : تقدحان شررا .

الدورية : الأسنان؟

السائق : قاطعة؟

الدورية : الأنف؟

السائق : اشم .

الدورية : الجبين؟

السائق : شامخ .

الدورية : الاذنان؟

السائق : موسيقيتان .

الدورية : وجهة السفر؟

السائق : حيث توجد معارك تحرير .

الدورية : مكان الاقامة؟

السائق : حيث توجد معارك استقلال .

الدورية : نريد اسمك وعنوانك واضحا ليستهدي به ساعي البريد؟

السائق : بكل سرور . سجل : أنا عربي .

الدورية : سجّلناه من قبل!

السائق : مرة أخرى أرجوك . إن اعتزازي بعروبتي يستحوذ على كل تفكيري .

الدورية : عظيم . والآن عنوان البيت بالتفصيل؟

السائق : اكتب . اولا ميدان التحرير ، ثم ساحة النصر ، ثم شارع عبد الناصر ، ثم جادة عبد المنعم رياض ، ثم جادة فوزي القاوقجي ، ثم مدرسة كفر قاسم ، ثم مدرسة بحر البقر ،ثم قلعة دير ياسين ، ثم نزلة صبرا وشاتيلا ، ثم شارع الحرية ، ثم ساحة الاحرار ، ثم مكتب الطليعة العربية لتحرير فلسطين ، ثم مكتب الطليعة الشعبية لتحرير فلسطين ، ثم المقر الدائم للجنة التحضيرية لمؤتمر القمة الاسلامي التاسع عشر ، ثم مقر اللجنة التنفيذية لمؤتمر دول عدم الانحياز التاسع والتسعين ، ثم مقر اللجنة المشتركة لمنظمة الدول الافريقية ، ثم المقر الدائم للجنة انقاذ القدس ، ثم هيئة التنسيق العليا ليوم الأرض ، ثم مكتب

مقاطعة اسرائيل ، ثم مكتب الهيئة العامة لنصرة الشعب الفلسطيني ، ثم المقر الدائم لكتّاب آسيا وافريقيا ، ثم المقّر الدائم لمؤتمر الحوار العربي ـ الاوروبي ، ثم المقر الدائم لجمعية "من الشعب العربي الى الشعب الاميركي" ، وبعدها نقابة المهندسين العرب ، وبعدها نقابة المحامين العرب ، وبعدها نقابة المقاولين العرب ، وبعدها نقابة المغتربين العرب ، وعلى يمينها جادة العبور ، وعلى يسارها جادة الكرامة ، ثم مصبغة القدس ، ثم ملحمة البطولة ، ثم بقالية الصمود ، ثم فرن الغضب الساطع ، وبعده دوار التضامن العربي ،وبعده مبولة الشموخ ، وبعدها حلاق الكرامة ، ثم كاراج العودة ، ثم مسرح الشعب الفلسطيني ، ثم دار أبو سلمى للنشر ، ثم دار الكرمل للتوزيع ،ثم معرض التراث الفلسطيني ، ثم معرض الفولكلور الفلسطيني ، ثم حديقة النسور ، ثم نادي الانقضاض ، ثم نادي الصواعق ، وبعد ذلك جريدة الحائط ، ثم جريدة السطح ، ثم جريدة النافذة ، وفي نهاية الشارع سفارة اسرائيل .

* * *

بروتوكولات حكماء العرب

لا تكن ودودا ، فهذا زمن الحقد .
لا تكن وفيا ، فهذا زمن الغدر .
لا تكن نقيا ، فهذا زمن الوحل .
لا تكن عاطفيا ، فهذا زمن الجليد .
لا تكن موهوبا ، فهذا زمن التافهين .
لا تكن قمة ، فهذازمن الحضيض .
لا تكن شجرة ، فهذا زمن الفؤوس .
لا تحن على طفل ، فهذا زمن العجزة والمسنين .
لا تغث ملهوفا ، فهذا زمن الأبواب المغلقة .
لا تستجر بصديق أو جار أو قريب ، بقصيدة أو لوحة ، بجد أو جدة ، فهذا زمن التنكّر والمتنكّرين .
لا تصدر أي صوت ولو في دورة المياه ، فهذا زمن الوشاة والمخبرين .
ثم لا تقطع صلتك بقاض فقد تصبح متهماً .
بمتهم . . فقد يصبح حارسا .
بحارس . . . فقد يصبح لصا .
بلص . . فقد يصبح ثرياً .
بثري . . فقد يصبح متسولا .

بمتسول . . فقد يصبح رصيفا .

برصيف . . فقد يصبح حذاء .

لا تقطع صلتك بشيء ، فأي شيء قد يصبح كلَّ شيء .

ولكن ، الانسان الذي لا يستطيع الا أن يكون ودودا ووفيا وبريئا وشامخا وطفلا ماذا يفعل؟

هل يبقع ثيابه بالوحل ويموّه رأسه بالحشائش والأغصان ، ويختبىء في الكهوف وشعاب الجبال؟

لن يكون أكثر براعة وخبرة من غيفارا .

هل يلجأ الى الأديرة وبيوت الأولياء؟

لن يكون أحسن حظا من البابا شنودة .

إذاً ، لا مفر لنا من أن نظل ودودين وأوفياء وعاطفيين وصادقين وشامخين .

سنظل أبرياء ولو بقوة الرصاص . . فمهما كانت السيوف طويلة لن تكون بطول الزمن . فلقد رأينا وقرأنا عن الكثير من الأقدام المغلولة الحافية تحت لهيب الصحراء وهي تدوس على ظلال المنتصرين .

ولكن ، أنا الفلسطيني المرقّع بألف وطنٍ ولا وطن لي .

أنا الهائم في البحار العربية كبقعة الزيتً العائمة ، كل الشواطىء ترفضها ومعظم الدول تطاردها وتتعقّب آثارها . . . أين استقر؟

فلسطين ،

ليس لي أطفال ، أنت طفلتي .

ليس أصدقاء ، أنت صديقتي .

ليس لي تاريخ ، أنت تاريخي .

ليس لي مستقبل ، أنت مستقبلي .

أنت المشيمة التي تربطني بما تبقى من سحر الوطن والعروبة ، ومن متعة النوم والاستيقاظ ، والتدخين والمناقشة .

ولكن ، كيف أراكِ وقد سملوا عينيَّ؟

كيف أصل اليك وقد بتروا قدمي؟

كيف أشمّ رائحتك وقد جدعوا أنفي؟

كيف أعانقك وقد أوثقوا يديَّ؟

كيف أنطق باسمك وأكياس الرمل حول فمي؟

يا إلهي!

امنحني قوة الفولاذ ورقّة الفراشة .

جمود الحجر ومرونة الراقصة لأعبر يومي بسلام .

امنحني عقل انشتاين لأستوعب ما يجري على الساحة العربية .

وجسد سميرة توفيق لأتحمل ما يجري .

امنحني غباء الأوزة لأصدّق ما أرى .

وبراءة جان دارك لأؤمن بما أسمع وأرى .

امنحني أرجل العنكبوت لأتعلق أنا وكل أطفال الشرق بسقف الوطن لتمرّ هذه المرحلة .

* * *

هموم صغيرة

يجب أن تحب السماء لكي تمطر .
والأشجار لكي تزهر .
والفنان لكي يبدع .
والعاقر لكي تنجب .
والجيوش لكي تنتصر .
والشعوب لكي تؤمن .
ولكن آه ما أكثر الواجبات في هذا الزمن وما أقلّ الحقوق .
ما أكثر الأبطال وما أقل البطولات .
وما أكثر الأعياد وما أقل السعداء .

ولذلك ، فالانسان العربي الذي تأكد له بعد طول انتظار بأنه لن ينال من الحب الا ما تقدمه له الأفلام المصرية والهندية ، وانه بعد الصفعات المدوية التي تلقاها عن كل سؤال سأله أو فضول بَدَرَ منه ، لم يعد يتوقف عند الأنهار الكبيرة الهادرة من حوله على امتداد الأرض العربية أو منابعها ومصبّاتها في نهاية الأمر ، وصار يكتفي بالطحالب والأعشاب النامية على ضفافها .

فهو ، مثلا ، يستطيع أن يفهم ويتفهم ، وبكل بساطة ، الدوافع والأسباب التي تجعل المبدعين والمتفوقين العظام في الشعر أو الفن أو

العلم أو الفلسفة يتعالون على من حولهم من الناس العاديين، ويتصرفون على أساس أنهم من طينة غير طينة البشر، وبالتالي، فهو يستطيع أيضا أن يفهم ويتفهّم الأسباب والدوافع التي كانت تجعل أيا من اخوته العاديين هؤلاء يتقبل هذا التعالي بكل رحابة صدر، ولا يترك فرصة أو مناسبة تمر دون أن يعبّر عن ترحيبه واعتزازه به، كأن يسارع مثلا وبكل طيبة خاطر لتقديم مقعده في الحافلة لبيكاسو، وفي الحانة لرامبو، وفي المسرح لغوته، ودوره في الفرن لماكسيم غوركي، وفي الجمارك لساره برنار، وفي الدوائر الرسمية لتشيخوف، وعلى اشارات المرور لهمنغواي، وفي العيادات الطبية لأينشتاين. ولكنه لا يستطيع أن يفهم أو يتفهم لماذا عليه هو أن يعطي مقعده في الباص والطائرة والمسرح والملاعب الرياضية ودوره في الطوابير الاستهلاكية والدوائر الرسمية والبعثات التعليمية والقروض المصرفية وعند الشارات الضوئية والعيادات الطبية و"بالصرماية" لمن ليس متفوقاً في شيء، سوى أنه ينتمي، وبالمصادفة، لهذا النظام أو ذاك أو إحدى القوى الدائرة في فلكه.

مع أنني رأيت بأم عيني هاتين اللتين سيأكلهما التلفزيون وزير داخلية بريطانيا في أحد مطاعم لندن يقف عند الباب مستنداً إلى إحدى العضائد مع زوجته العجوز وهو ينظر الى ساعته بانتظار أن تفرغ إحدى الموائد. طبعاً لم أصدّق عيني ولا أذني، ولكن عندما أكد لي مضيفنا ذلك وقال: هنا أو في أي بلد أوروبي، وزير داخلية.. وزير خارجية خارج مكتبه مثله مثل أي مواطن عادي، ولا أحد يعيره انتباهاً. فقلت له: والله لو كان هذا في أي بلد عربي رجعي أو تقدمي ودخل الى مثل هذا المطعم أو سواه لا وزير الداخلية أو الخارجية بل

وزير بلا وزارة ولم يجد مائدة شاغرة لألقى بالزبائن كلهم في الحلّة وجلس مكانهم ، هذا اذا بقي في الأصل زبائن ، ولأقيم في الحال جسر جوي بين المطبخ ومائدته ، ولانصرف جميع العاملين في المطعم لخدمته وتلبية طلباته وانتظار إشارة من أصبعه أو مسدسه أو خنجره .

لماذا لهم أحسن الفواكه وأجود السلع وأعذب المياه وأحدث السيارات وأشهر الفنادق وأرقى المقاصف والكازينوهات في أرقى الدول؟

لماذا لا يأكلون الخبز الذي يأكله الشعب؟

ولا يلبسون الموديلات التي يلبسها؟

ولا يسكنون الأحياء التي يسكنها؟

ولا يرتادون الأماكن التي يرتادها؟

ولا يجلسون في حدائقه؟

ولا يسيرون على أرصفته؟

وحتى لا يضحكون على نكاته؟

بل يريدون نكاتاً خاصة بهم لم تستعمل بعد ليضحكوا لها .

ولا ترى الواحد منهم في بلاد اليمين أو في بلاد اليسار إلا مقطبا مع موظفيه أو عاقد الحاجبين أمام مراجعيه شامخاً بأنفه وراء مقوده ، ملقياً بالصحف المحلية والعربية والأجنبية وراء ظهره الى المقعد الخلفي بقوة وإهمال ، وكأنه هو أهم من كل أنباء وأحداث العالم .

وعلى ماذا . والله لا أعلم!

على فلسطين التي استعادوها!

على الوحدة العربية أو الاسلامية او الافريقية التي حققوها!

على العلوم التي طوروها! أو السفن الفضائية التي أطلقوها!

ومع ذلك ، يستغربون أشدّ الاستغراب لماذا لا تشاركهم شعوبهم الأفراح والمسرّات في أعيادهم ومناسباتهم واحتفالاتهم دون أن يعلموا أنهم بالنسبة لشعوبهم كالزوج الذي يضرب زوجته ويقتّر عليها ويهينها ولا يترك لها دمعة تجف طول النهار ، وفي حفلات الاستقبال يريدها ان تظهر الى جانبه شابكةً ذراعها بذراعه وهي تنظر اليه متيّمةً مولهةً أمام الضيوف والزوّار .

* * *

المحامي الطائر

شعب؟ أي شعب هذا الذي تكيلون له المديح اطراف الليل وآناء النهار؟ وهو يتثاءب بفم واحد وبإيقاع واحد من المحيط الى الخليج .

اسلقوه بألسنتكم أيها الشعراء والكتّاب والقوّالون .

العبي برقابه أيتها السياط .

انهبي أمواله ايتها الامتيازات .

قرّحي أجفانه أيتها الدموع .

فتتي أكباده أيتها البلهارسيا .

أتلفي أعصابه أيتها المهدئات .

مزّق رئتيه أيها السعال .

افتك بأحشائه أيها الجوع .

شقق شفاهه أيها العطش .

وأنت يا أنظمة اليمين واليسار والوسط ، فيما شقيقتك الأنظمة الأخرى في آسيا وأفريقيا وأميركا اللاتينية يجهد كل منها بمفرده وعلى هواه لتملق شعبه ،والتحايل عليه بترخيص الأسعار وتخفيف اجراءات السفر وتلوين المجلات وتزويق الانتخابات ، والإطناب بدوره في النضال والكفاح من أجل الحرية والأمن والاستقرار في العالم ، كوني أنت كتلةً "واحدةً" متماسكة كعضلة المحارب في تماثيل الإغريق ، وألقي

بشعوبك وراء ظهرك ولا تبالي .

لا تزفتي شوارعها ولا تضيئي قراها ولا تستخرجي بترولها وثرواتها .

سدّي الطرقات عند سفرها .

زفّتي الأنهار عند عطشها .

لوّثي الهواء عند تنفسها .

أطلقي المنبهات عند قيلولتها .

وانشري البعوض في مواسم اصطيافها .

عطّلي سيارات الإسعاف حتى لا يسعفها أحد .

اقطعي أسلاك الهاتف حتى لا تتصل أو يتصل بها أحد .

اقطعي عنها رواتبها واحرميها من التعويض العائلي والضمان الصحي والرواتب التقاعدية وعجز الشيخوخة . وألقي عليها حتى أعقاب لفائفك من الأدوار العليا ، فليس لها عندك أي حق في تذمر أو شكوى أو عمل أو ذهاب أو إياب أو مأوى .

أأنا أتحامل على شعبي لأنني أكرهه وأحقد عليه؟

أبداً . فأنتم مخطئون أيها السادة . فأنا لا أحبه فقط ، بل أعبده : أعبد جبنه وغروره وتردده وفظاظة حديثه وسماجة غزله وتجشؤه بصوت مرتفع وطريقة مبالغته في الكلام وترويج الشائعات ونميمته على أصدقائه ، واختلاقه النكت على حكامه وتظلمه من ظروفه ، وشكاواه من أمراضه ، وشماتته بكل حدث يصيب سواه ، أو إطراقته الأبدية في غرف الانتظار .

لأنني كنت أعرف أنه ما انحط الى هذا الدرك ، وما تدهورت صحته وسمعته وتبدلت طباعه إلا لأنه كان مسلوب الإرادة طول

عـمره ، ولا يملك ، من حقـوقه ، عبـر التاريخ سـوى أن يراها بأمّ عينيه تنتـقل من تحت خفّ هذا الزعـيم الى خفّ ذاك الوزير الى خفّ ذاك السلطان . . ومـا تبـقى منهـا انتـهى واستـقر أخيـراً تحت أحـذية بيـار كاردان .

ولهذه الغاية ، درست الحقوق وانتسبت الى نقابة المحامين وأعددت قـائمـة شـاملة بهـذه الحقـوق موثقـة بالأرقـام والتـواريخ وأقـوال الشـهود لاستصدار أمر قضائي باستعادتها من أعلى هيئة قانونية في العالم : من محكمة لاهاي الدولية نفسها وهي : حرية القول والكتابة والتفكير والمعـتـقـد والتنقل والإقـامـة وإبداء الرأي في السلم والحـرب والعلمنة والاخـتـلاط والتعـبيـر غيـر المشروط في الصحف والاذاعـات والتلفـزة والمسـرح والنحت والتـصوير وحـرية التـجـمع والتظاهر ، والانـتـخـابات وتأليف الأحزاب والجمعيات (لقد شبعنا جمعيات سكنية وخيرية وتأليف وفود تعزية وتهنئة وتأييد واستنكار) .

وبطائرتي الخاصة التي يعمل محركها بإرادة الشعوب أقلعت من مدرج احدى كليات الحقوق العربية وأنا ألوِّح بيدي ووثائقي للجماهير المتثائبة التي زحفت لوداعي ، وأنا أكـرر على مسـامعهم المرة تلو المرة : انتظروني ولا تبـرحـوا مـقـاهيكم ودوائركم أو تفوتوا دقـيـقـة واحـدة من مـسلسـلاتكم ومـبـارياتكم ، الى أن أعـود ومـعي ذلك الأمـر القـضـائي العتيد .

ومـا إن بدأت الطائرة بالصـعـود حـتى أخـذ كل شيء بالتـلاشي والغـيـاب : الجـمـاهيـر ، البـيـوت ، الأشـجـار ، الأغنيـاء ، الفـقـراء ، الانتصارات ، الهزائم ، الخلافات ، الوساطات ، الاتفاقيات . ولم يبق أمـامي سـوى المهـمـة التي أنا بصـددها وسط هذا السـديم الأزرق

اللامتناهي . طبعاً في بداية الرحلة واجهتني بعض التيارات الهوائية والمطبات العقائدية ولكنني تجاوزتها وتغلبت عليها بنجاح بفضل براعتي وخبرتي الطويلة في التحليق فوق أرض الواقع . وبعدها لم أتعرض لأية مفاجآت غير متوقعة . ولكن ، ما إن أخذت أحلق فوق جبال الألب والبرينيه ، وفي خلوة رومانسية بين الغيوم سمعت وشوشات وتمنعات . وعندما خففت من سرعتي فوجئت بسفينة فضاء سوفياتية وقمر صناعي أميركي غارقين في قبلة طويلة محمومة ، و"خذ على تأوهات وتنهدات وعتاب وبث أشواق . ." ولكن ، ما إن شعرا بوجودي حتى انفصلا عن بعضهما مذعورين مرتبكين وراحا يشتمانني ويدعيان أنها مجرد قبلة علمية لا أكثر . فقلت لهما : يجب أن تعلما ويعلم العالم أجمع بأن الشعوب العربية لن تدع أحداً يهنأ بشيء ، لا في الأرض ولا في السماء ، ما لم تسترد كل حقوقها المسطورة في هذا الملف . ولوحت لهما مودعاً وأنا أطوي الجبال والوهاد والبحار والبحيرات والنوافير والقارات حتى بلغت رحلتي نهايتها . ولأنني وصلت في ساحة متأخرة من الليل فقد أيقظت أعضاء المحكمة من نومهم وقلت لهم : حقوق شعبي ضائعة وأريد استردادها . . وها هي كل الوثائق والمستندات التي تطلبها محكمتكم الموقرة .

فسألوني وهم يتثاءبون ويفركون عيونهم :

ـ منذ متى ضاعت حقوقكم هذه؟

ـ منذ بدء التاريخ .

ـ ولم تطالبوا بها من قبل؟

ـ كلا .

ـ والآن ، وبعد قرون جئتم تطالبون بها؟

ـ نعم .
ـ آسفون يا بني . لا حقوق لكم . إسأل أكبر القضاة والمشرّعين .
ـ لماذا؟
ـ لقد ماتت بسبب التقادم .

* * *

المأخوذ

أيها الشعر الأليف كسعال أبي .

أيها الشعر القديم كطفولتي ووشم يدي .

ضع رأسك على هذا الرصيف ، واسمعني يا ناكر الخبز والملح والسياط .

في طفولتي حاولت أن أصير لحاماً ففشلت ، لأنني كنت آكل أكثر مما أبيع .

وحاولت أن أصير خيّاطاً ففشلت ، لأنني كنت أغرز الأبر في لحم الزبون أكثر مما أغرزها في ثيابه ، خاصة إذا كان تقدميّاً .

وحاولت أن أصير رياضيا ونجما في كرة القدم ، ففشلت ، لأنني كنت أعتقد بأن هناك أشياء كثيرة يجب ركلها بالقدم ، قبل تلك الكرة المطاطية البائسة .

وحاولت أن أصبح مطربا شعبيا ففشلت ، إذ قالوا لي بأن حبالي الصوتية تصلح لشحن البضائع ، لا لشحن العواطف والأحاسيس .

ثم حاولت أن أعتزل الدنيا وأصير متصوفاً أتعبّد ربي ، ففشلت ، لأنني لم أكن أملك من كل الأراضي العربية ولو مساحة جبيني ، لأركع عليها وأصلّي .

وأخيراً ، حاولت أن أصير زعيماً سياسياً يتبعني اللحام والخياط

والمطرب والرياضي والمتصوف ، فلم يتبعني سوى المخابرات .

وفي تلك الأيام وأنا بحاجة الى من يطعمني ، أطعمتك ، والى من يؤويني ، فآويتك ، وجففتك بلساني من الوحل والمطر والدموع ، كما تفعل البهيمة مع وليدها .

كنت مطرودا من الكتب ، نازحا من المجامع اللغوية ، تقيم في مخيمات مؤقتة في ضواحي المدن والمدارس والجامعات ، بانتظار العودة . وبدون منظمة تحرير ، أو مؤتمرات قمة ، أو هدير طائرات ، أعدتك في ليلة واحدة ، ودموع الفرح تغمر وجهي وأسمالي ودفاتري . . لأنني كنت مؤمناً بعودتك ، لا متاجراً بها .

وماذا كانت النتيجة؟ لم تتركني في يوم من الأيام ، أو ليلة من الليالي ، أهنأ بوجبة ، بإغفاءة ، بتثاؤب ، أو أنهي مناقشة ، أو مصافحة أو رواية عاطفية ، أو فيلما بوليسيا كما أريد . مع كل لقمة تذكرني بجائع ، مع كل كأس تذكرني بسجين ، مع كل قبلة تذكرني ببناء مستوطنة أو غياب حبيب .

والآن ، بعد أن احدودب ظهري وقلمي ، بدلا من أن تأخذ بيدي وتساعدني في الجلوس والنهوض ، وتكون سميري في ليالي الشتاء الطويلة ، تتنكر لي وتهجرني؟

لا ، لن أسمح لك بذلك أبداً . تعال لنتفاهم بصوت منخفض ، ولا تدع المارة يتجمعون حولنا ويشمتون بنا ، فكلانا في النتيجة سمكتان بائستان ، تقتتلان في شبكة واحدة .

تعال يا صغيري ، سأغسل لك وجهك كل صباح ، وأسرح لك قوافيك وأزرر نقطك وفواصلك ، لنزورَ شوارعنا القديمة ، ومقاهينا القديمة ، وسجوننا القديمة ولكن من . . . بعيد .

ولكن قبل كل شيء سنزور قبر جدك المتنبي ، الا اذا صار قبو مخابرات أو معمل بطاريات .

وفي الطريق سأروي لك ملحا وطرائف مما جرى معي في غيابك ، كيف سافرت وبأية حالة عدت .

كنت أول من صعد الطائرة وأول من هبط منها الى أعماق الصحراء العربية ، وأنا أتحسس قلمي ودفاتري وعروبتي كما يتحسس الملاكم عضلاته قبل الدخول الى الحلبة ، اذ كنت أشعر ، وفي مثل هذه السن ، أنني في سباق مع الزمن ، مع التخلّف ، مع الشعر القديم ، والمسرح القديم ، مع كامب دافيد ، وحلف الأطلسي ، ومع كل القوى المعادية لأمتنا ومستقبلنا . وبعد سنتين ، لم يكن متاحا لي الاشتراك حتى في سباق الهجن .

كما تعرفت هناك على أبرز الوجوه الأدبية والفكرية والنضالية في الوطن العربي في غدوهم ورواحهم الى تلك المنطقة ، حيث يقضون الليل بطوله في الاجتماعات المغلقة والمفتوحة ، والمحادثات الشاملة والجانبية عن التضامن العربي ، وكامب دافيد ، وحشد الطاقات وحتمية المعركة ، وساعة الصفر ، وفي الصباح ينتهي كل شيء بساعة رولكس او سيتيزن .

لا تضحك بصوت مرتفع . انتبه . هناك دورية قادمة . تماسك ، ولا تبل بسراويلك الورقية الصغيرة ، وتفضحنا أمام الشعر القديم ، والجيل القديم ، فلا تنس أننا نحن جيل النصر والتحرير .

أين أنت يا صديقي؟ لماذا لا تجيب؟ انني أسمع وقع خطواتك ودقات قلبك . لا لن تهرب مني بهذه البساطة . لن تأكلني لحما وتتركني عظما ، أمام سخريات الملايين . قف الى جانبي ، قف على

رأسي ، ولكن لا تتركني وحيدا في حقيبة فيليب حبيب . فأصابعي من دونك دون شعر . . . مفزعة كأنياب الجمجمة .

تمهل ، لا أستطيع اللحاق بك ، أو فلتذهب أنت وكل أدب العالم الى الجحيم ، كنت أسخر منك ، وأصرّم الوقت معك لا أكثر . فمشكلتي معك أو مع سواك . مع الشعر القديم ، أو الحديث ، مع المسرح التقليدي ، أو المسرح الدوار ، مع اليمين أو اليسار ، مع هذه المجلة ، أو تلك الصحيفة . مشكلتي في البر أو في الجو ، في الوطن أو في المنفى هي : نسر خائف أو فأر مطمئن .

* * *

غداً

أيها البحر العظيم
أيها البحر المناضل
أيها البحر الطاغية

مع إطلالة هذا الصيف المحرق ، وبعد سنوات وسنوات من الحشمة والتردد والوقار ، آتي اليك لاهثا مهرولا ، دون موعد ، ودون مقدمات ، ودون مايوه ، لأحيطك علماً بأن الملعقة والصحن أصبحا سيف العرب وترسهم في مقارعة العدوان ، وأن رغيفهم اليومي صار المستشار السياسي لكل زعيم والناطق الرسمي لكل شعب والأغنية الوطنية على كل لسان .

وتهيم على وجهك في طول البلاد العربية وعرضها تقرع الأبواب وتسأل :

أيها المذيع . . . لِمَ تقرأ أخبارا لا تعرف مصادرها وأرقاما لا تثق بصحتها ووعوداً لا تؤمن بجديتها والزبد يتطاير من شفتيك وكأنك ماض لتوّك الى المعركة؟

ـ أريد أن أعيش .

أيها الصحفي المبدع والحامل لواء الصدق والحقيقة الى ما فوق رأسك كالشعلة الأولمبية ، لِمَ تغطّي ندوات لا تؤمن بجدواها وتحلل

توصيات لم تقرأها وتعانق ضيوفا وتلثم خدودا تتمنى عضّها؟
ـ أريد أن أعيش .

أيها المعلم الوقور . . يا مربي الأجيال تلو الأجيال ، لِمَ تدرِّس مناهج غير مقتنع بها وتلتزم بتعليمات لا تحترمها وتحيّي أعلاما تَجهل حتى ألوانها؟
ـ أريد أن أعيش .

أيها الشاعر الملتزم بقضايا الجماهير والمنظومة الاشتراكية بأسرها ، يا خليفة مايكوفسكي في الجرأة ، وبريخت في وضوح الرؤية ، وناظم حكمت في الثبات على المبدأ ، كيف تنتقل على مدار السنة ما بين وارسو وبراغ وبودابست وفي نهاية العام لا تقيم أمسياتك الشعرية وندواتك الفكرية الا في دول النفط؟
ـ أريد أن أعيش .

أيها الأب العجوز الملتاع ، لِمَ تذرف الدموع وتعصر المناديل في سرّك حزناً وشوقاً لابنك المنسيّ في غياهب السجون وفي مركز عملك لا تعترف ببنوته وتستشيط غضبا من كل من يأتي على ذكره أمامك؟
ـ أريد أن أعيش .

أيها الجد ، أيتها الأم ، أيتها الطفلة ، لِمَ تتركين بلادك تحت القنابل وتجرجرين حقائبك وأطفالك من بلد الى بلد ومن مطار الى مطار تغطين دموعك وآثار التعذيب القديمة على جسدك بالمساحيق ، وتبالغين في انحسار الثوب عن الركبتين أمام حواجز الأمن والتفتيش في المطارات؟
ـ أريد أن أعيش .

أيها الشرطي ، لِمَ تجلد الأبرياء؟

أيها الموظف ، لِمَ تبتز الغرباء؟
أيها البريء ، لِمَ لا تصرخ في وجه مضطهديك؟
أيها القاضي ، لِمَ تصدر أحكاما لا تؤمن بعدالتها؟
أيها الممثل ، لِمَ تقبل أدوارا تخجل من ذكرها؟
ـ نريد أن نعيش .
حتى أنطوني كوين صار يمثّل ليعيش .
حتى فيروز صارت تغني لتعيش .
حتى نجوى فؤاد صارت تكتب وتنظِّر لتعيش .
وعماد حمدي يهرّج ويتخلع ليعيش .

فيا أيها البحر الهادر العظيم ، يا قاهر الاسكندر وهنيبعل ونابليون ، يا ملهم هرمان ميلغل وبول فاليري وهمنغواي .

يا رمز القوة والكبرياء والعطاء والعنفوان . إفتني في هذه الحال التي وصلنا اليها؟

فنظر اليّ البحر من خلال صخوره المهترئة وزبده الأبيض العتيق المتسخ كياقة موظف عجوز وقال لي والدموع تغطي أمواجه المنهكة وأصدافه الرثّة البالية : وأنا أيضا صرت أهدر لأعيش .

أيتها الملعقة أنت عدونا .
أيها الرغيف أنت وثيقة الاستسلام التي تقدم لنا كل صباح .
أيتها اللقمة الصغيرة ، أنت "اسرائيل الكبرى" .

* * *

العصفور

أيها الشعب الكريم

أيتها الجماهير العظيمة المستضعفة .

في غمرة المشاكل اليومية والنزاعات العشائرية التي يعاني منها وطننا المفدى ، وفي حمى الصراعات العالمية . . . لم نكن غافلين للحظة واحدة عمّا حلّ ويحل بهذه الأمة الحبيبة من مصائب وويلات ، وكان الألم يفتت أكبادنا ونحن نرى الدول الكبرى والصغرى تتغذى على ما تبقى من تاريخها وسيادتها وكرامتها كما يتغذى العلق على الدم .

فما العمل؟ ولمن نلجأ في مثل هذه الحالة؟ وبمن نستجير؟

بالرسل والموفدين والمسؤولين؟ وهم من كثرة تنقلهم وأسفارهم من بلد الى بلد ، ومن مؤتمر الى مؤتمر في أجواء الفضاء نسوا ما يجري على الأرض .

أي ، لا الذين فوق باتوا يعرفون ماذا يجري تحت ولا الذين تحت يعرفون ماذا يجري فوق .

ولذلك ، انصرفنا الى ضمائرنا ووثائقنا وتقارير مندوبينا ، ورحنا نجمع المعلومات ونتقصّى الحقائق ، ونربط هذا بذلك لنصل إلى الأسباب التي أوصلت أمتنا الى هذا الطريق المسدود حضاريا وسياسيا

واجتماعيا . بل الى هذا المأزق التاريخي الذي لا يبرىء أحدا ولا يشرّف أو يستثني أحدا .

ثم لجأنا الى التاريخ نستجوبه ، والى الأحداث نستقرئها :

معظم الأمم كانت جائعة فشبعت .

جاهلة فتعلمت .

مستعبدة فتحررت .

مضطربة فاستقرت .

متوحشة فتمدنت .

إلاّ نحن العرب :

فقد كنا متخمين فجُعنا .

متعلمين فتخلفنا .

مستقرين فتشردنا .

أحرارا فاستُعبدنا .

متطورين فتحجرنا .

متمدنين فتوحشنا .

لماذا؟ ماذا ينقصنا لنكون مثل بقية الأمم والشعوب على ظهر هذا الكوكب العجيب؟

أدب؟ عندنا أدب .

موسيقا عندنا موسيقا .

فكر؟ عندنا فكر .

ثروة : عندنا ثروات لا تأكلها النيران .

إيمان! كل الأديان هبطت عندنا .

علم! كل العلوم خرجت من عندنا ولم تعد .

شعب! عندنا شعوب .

ومع ذلك ، كلما حاولنا النهوض كبونا ، أو الوحدة تفرَّقنا .

مثلما يهبط الوحي على الشعراء في صوامعهم هبطت علينا الحقيقة ساطعةً كالشمس في كبد السماء ، متلألئة كالنجوم في الليلة الليلاء .

لأننا كنا دائما نتمسك بالقشور على حساب اللب .

وبالشكل على حساب المضمون ،

وبالفروع على حساب الأصول .

الأدب مهم في حياة كل أمة ولكن أهم من الأدب هو الذي يكتب .

وأهم من الموسيقا هو الذي يعزف .

وأهم من الآلة ، هو الذي يديرها .

ومن الطائرة ، هو الذي يقودها .

ومن الشجرة ، هو الذي يزرعها .

ومن البندقية ، هو الذي يحملها .

فمن هو يا ترى الذي يكتب ويعزف ويطير ويهبط ويزرع ويصنع ويقاتل؟

انه الانسان أيها الأخوة المواطنون . فهل نال هذا الانسان المسكين حقوقه ليؤدي واجباته؟

هل أحس ولو للحظة بوجوده وكيانه وكينونته؟

أبداً .

انهم يُصغون الساعات والأيام والسنين لكل من هبّ ودبَّ على هذه المنطقة الغالية ، من صحفيين ومبعوثين أجانب ليعرفوا ما يريدون وما لا يريدون . ولكن من منهم أصغى في يوم من الأيام ، ولو لثانية

واحدة ، لابن هذه المنطقة المسكين ، وعرف ما يريد وما لا يريد؟

لماذا؟

ونقولها والألم يحزُّ في نفوسنا ، والدموع تغطي وجوهنا : كل ذلك بسبب غياب الحرية وانعدامها من حياتنا .

الحرية التي من دونها لن تتحرر أرض ، ولن يستعاد حق ، ولن يشبع جائع ، أو يُنصف مظلوم ، أو يُعاقب ظالم ، ولن يبتسم طفل في مهد ، أو يغرد عصفور على فنن .

لأن الحرية أيها الأخوة المواطنون هي بالنسبة للانسان كما الجناح للطائر ، والزهرة للفراشة ، والزيت للقنديل ، والمطر للأرض ، والروح للجسد .

فهيا يا أخي العربي : انهض من كبوتك وتحرَّك . قل كلمتك ، وعبّر عن آرائك ومعتقداتك كما تشاء . فقد آن لرأيك أن يقال ، ولمواهبك أن تتفتح ، ولطاقتك أن تستغل ، ولصوتك أن يُسمع ويدوي في أرجاء هذا الوطن الحبيب .

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

(اللجنة العربية الدائمة للحريات العامة)

سيف الدين

سيف الرحمن

سيف بن المنذر

سيف بن النعمان

سيف بن لقمان

سيف بن ذي يزن

الاحتفال

اخوتي الفقراء والكادحين

اعذروني . لقد تجاهلتكم ساعتين في هذا العمر ، وذلك عندما ضعفت وتحللت من كل التزاماتي السابقة تجاهكم ، ولبيت دعوة وزارة السياحة لحضور حفلة عشاء في فندق الميرديان . ولكن هل تظنون بأنني قضيت وقتا ممتعا في هذه الحفلة؟ أبداً . لقد كادت الحفلة أن تنتهي وأنا لم أكل فيها سوى الجزر ، كأنني دعيت كأرنب لا كصحفي . والحقيقة أن هذا لا يرجع الى تقصير كل من القائمين على الحفلة أو المشرفين عليها . بل يرجع إليّ أنا بالذات . اذ ما إن دخلت باب الفندق وواجهني صف من موظفي الاستقبال والاستعلامات بثيابهم الفخمة حتى انصبت كل عقد العالم على رأسي ، وأخذت تعابير وجهي تتغير ألف مرة في الثانية . ولم أعد أعرف على أيها يجب أن أستقر . وجه صحفي ، وجه مقطب ، وجه مبتسم ، وجه يميني ، وجه يساري . لم أعد أستطيع التحكم بشيء . وكأن ملامحي طيور في قفص أعيدت الى غاباتها الأولى . ولم يبق منها متعثرا على ممرات الميرديان الفخمة سوى وجه فلاح بائس يسعى جاهدا لأن يظهر براءته وزهده في كل هذه الفخفخة والترهات والكماليات في وقت نحن أحوج ما نكون فيه الى التقشف وشد الحزام على البطون . ولكن ما إن

رحبت بي أول مدعوة وقدمت لي كأس حتى تمنيت أن أكون مراسلا صحفيا الى الأبد بين موائد الميرديان . . حيث استطيع ان اوافي جريدتي بكل تطورات ازمة الشرق الأوسط منذ بدايتها من خلال تطور صنف المقبلات والمازاوات التي تقدم للزبائن كل يوم .

ويا لها من مائدة . اذ ما إن اقتربت منها حتى شعرت نحوها ونحو اصنافها بالرهبة والاحترام . لقد كانت مائدة غاصة بكل ما يخطر على البال من ألوان الطعام والشراب حتى ليحتاج المرء الواقف أمامها والصحن بيده الى بوصلة ليعرف أين يقع هذا الصنف من ذاك . ولكنني من اللقمة الأولى شعرت بأنني شخص غير مرغوب فيه . اذ واجهني فروج رابض في الوسط بنظرة عدائية واضحة ، حتى خشيت ان تقدمت اكثر أن ينقرني على يدي ويسألني عم يفعله واحد من امثالي في مثل هذا المكان . واتجهت الى الطرف الآخر من المائدة حيث وقع نظري على ما يشبه الخريطة المكتظة بالرسوم والكلمات والمانشيتات . فسألت أحد المشرفين على الدعوة . ما هذا؟

قال : قالب كاتو .

وسألت : وما هذه الكلمات والحواشي الأجنبية؟

قال : انها تحية ترحيب بالمدعوين .

قلت : هل تصدق انه أجمل واغنى من الصفحة الثقافية في تشرين؟

فقال : هذا شيء عادي بالنسبة لبقية الحفلات والمناسبات .

ثم ما بك خائفا وجلا لا تمد يدك الى شيء ، كأنك في ديرا خذ حريتك . كلهم كانوا فقراء مثلك .

فقلت له : احقا بلغت فاتورة الكهرباء في الميرديان (٢٠٠) ألف ليرة .

قال : تقريبا .

ـ وهل كلفت ستائره ومفروشاته وثرياته الملايين؟
قال : ومع ذلك ، هذا فندق عادي بالنسبة للشيراتون الذي يبنى على مقربة منه .
فقلت : هل تقصد ان فاتورة الماء فيه ستبلغ البلايين؟
قال : لا . أقصد انه ارقى بكثير حيث سيكون الفروج على الالكترون والكبة على الذرة ، والويسكي على التلكس ، بحيث كل ما على الزبون أن يفعله هو أن يتجشأ ويقول : فعلا الأرض لمن يعمل بها .
فقلت له : وهل يعرف أحد شيئا عن رقيّ هذا الفندق المنتظر؟
قال : ابداً .
فقلت : حسنا ، هذه بشرى سأزفّها الى الفقراء والكادحين بمناسبة اول أيار .

* * *

الخروج

نحن الجائعين أمام حقولنا . . .
المرتبكين أمام أطفالنا . . .
المطأطئين أمام اعلامنا . . .
الوافدين حتى في سفاراتنا . . .
نحن . . . الذين لا وزن لهم الا في الطائرات . . .
نحن وبر السجادة البشرية التي تفرش أمام الغادي والرائح في هذه المنطقة . . .

ماذا نفعل عند هؤلاء العرب من المحيط الى الخليج؟
لقد أعطونا الساعات وأخذوا الزمن .
أعطونا الأحذية وأخذوا الطرقات .
أعطونا البرلمانات وأخذوا الحرية
أعطونا العطر والخواتم وأخذوا الحب .
أعطونا الأراجيح وأخذوا الأعياد .
أعطونا الحليب المجفف وأخذوا الطفولة .
أعطونا السماد الكيماوي وأخذوا الربيع .
أعطونا الجوامع والكنائس وأخذوا الايمان .
أعطونا الحراس والأقفال ، وأخذوا الأمان .

أعطونا الثوار وأخذوا الثورة .
فلننفض أفواهنا من طعامهم .
وجلودنا من ثيابهم .
وأقدامنا من أحذيتهم .
ومعاصمنا من ساعاتهم .
وآذاننا من أخبارهم .
وعيوننا من مناظرهم .
وحناجرنا من أناشيدهم ، كما ينفض البجع الأبيض ريشه من ماء البحر .
فلتنعم الأنظمة ومخابراتها وأبواقها بكل شيء .
ولتسرح على هواها من المحيط الى الخليج .
لتكتب وحدها الشعر . ولتؤلف الموسيقا . ولتمثّل على المسرح ولتغنِّ في الاذاعات .
لتأكل وحدها كل المحاصيل ، ولتشرب وحدها كل الانهار . ولتلبس وحدها كل الثياب . ولتنتعل وحدها كل الأحذية . ولتتزوج وحدها كل النساء . ولتصطف وحدها على كل الجبال . ولتتشمس وحدها على كل الشواطىء . ولتتنفس وحدها كل الهواء .
لتزقزق على الأغصان بدل العصافير . وتتمايل في الحقول بدل السنابل . وتركب الأراجيح بدل الأطفال . ولنرحل عنها في تيه هذا العالم عراةً كقبائل السيخ . ولنسرْ رتلاً أحادياً وراء بعضنا حسب النظام والأصول :
الشعراء وراء الشعراء .
والمسرحيون وراء المسرحيين .

والروائيون وراء الروائيين .
والمخرجون وراء المخرجين .
والممثلون وراء الممثلين .
والرسامون وراء الرسامين .
والصحافيون وراء الصحافيين .
ومشوّهو الحرب وراء مشوّهي الحرب .
ومشوّهو التحقيق وراء مشوّهي التحقيق .

ولتكن جراحكم أنيقة وضماداتكم نظيفة . ودموعكم صافية ومرتبة على خدودكم بانتظام كأزرار المعاطف العسكرية في الاستعراضات ، لتعطوا صورة حسنة عن شعبنا وبلادنا لكل من سيراكم في بلاد الله الواسعة .

ولكن . . أرجوكم . . دعوني في المقدمة . فأنا أكبركم سناً ، وأكثركم خبرة واحتمالا . لأننا لن نذهب باكين مستعطفين الى الجامعة العربية أو الأمم المتحدة ، او لجنة حقوق الانسان ، أو لجنة حقوق الحيوان . بل سنقطع الجبال والوهاد والأدغال والبحار والأنهار سيراً على اقدامنا حتى نصل الى قبر "بلفور" الشهير في بريطانيا . وهناك ، ونحن نتحلق حوله ، سأضع قدمي على قبره وأقول له بصوت تخنقه الدموع : نحن ضحايا المحرقة العربية نريد وطناً قومياً جديداً ولو على مزبلة .

* * *

الربابة هي الأولى

في مطلع حياتي الأدبية ، كان ملجئي المفضل مقهى في بيروت ، غضب الله على صاحبه ، وقال لي ذات يوم على شكل زلة لسان : اعتبر أن المحل محلك . ومن يومها صرت أسبقه إليه في الصباح ، وأغادره بعده في المساء .

ومع أن المقهى المكان المفضل أيضا لالتقاء العديد من الطلبة العرب الذين يدرسون في الجامعات اللبنانية ، فلقد بقيت وحيدا ولم استطع تكوين أية صداقة مع أحدهم ، أو المشاركة في أي حديث من أحاديثهم ، لأنهم لا يتكلمون الا اللغة الانكليزية أو الفرنسية ، وهذه ظاهرة كانت تستفزني كثيرا ، اذ تجد الطالب منهم عربيا وبدويا من قمة رأسه الى أخمص قدميه ، ولكن ما ان يسجل اسمه في الجامعة حتى يخرج الى الشارع وقد فك خمسة أزرار من قميصه وبدأ بالـ "يس" والـ "نو" . ولذلك كانوا لا يتناولون من الطعام الا الاصناف الاجنبية ، ولا يسمعون الا الأغاني الأجنبية ، بل كانوا يناقشون أهم القضايا العربية في تلك المرحلة باللغة الأجنبية . فتولدت عندي عقدة منهم ، وأخذت تصدر عني ردود فعل عنيفة تجاههم ، لم أستطع التعبير عنها نظراً لفقري وغربتي الا بالأغاني . اذ ما إن ينهض أحدهم الى صندوق الموسيقا ويضع أغنية لاديث باف ، أو نات كينغ كول ، حتى أنهض في

الحال وأضع بعدها مباشرة خمس أغانٍ لفايدة كامل وكارم محمود ومحمد قنديل ، مما جعلهم لا يطيقون وجودي ، ويتعوذون بالله كلما وضعت يدي في جيبي واتجهت الى صندوق الموسيقا . إلى أن جاء صاحب المحل ولفت نظري الى أن سلوكي هذا ، عدا عن كونه يسيء الى سمعة الشعر الحديث والقديم ، فانه يسيء الى سمعة المحل وهي الأهم ، ولذلك طلب مني مراعاة هذه الناحية . فقلت له : ولكنني لا أستطيع ، هذا موقف وطني ، فقال بغضب : أنا عندي مقهى لا برلمان . وانتقلت الى مقهى آخر وآخر فواجهت المشكلة نفسها . وتحدياً للجميع ، صرت أحمل بيدي "ترانزستور" وافتحه على مداه بالاغاني العربية التي أحبها واتسكع أمام المقاهي التي حظر عليّ دخولها ، لعلّ بعض الانصار يلتفون حولي في هذه المعركة . ولكن في النتيجة لم يلتف حولي سوى الخادمات .

ويبدو أن ما آلت اليه أحوالي قد أثرت في بعض الطلبة فقرروا تثقيفي موسيقيا ، واخذوني الى مكتبة الجامعة الموسيقية لهذا الغرض .

اسمعوني اغاني سيناترا وسامي ديفز .

داليدا وايف مونتان .

بحيرة البجع . بحيرة الأوز . لم ينفع معي شيء . فما كان من أحدهم الا ان هجم عليّ بصندوق الموسيقا وكاد يحطمه على رأسي وهو يصرخ : ما جئنا للدراسة هنا الا لكي نعود الى بلادنا ونقضي على التخلف والميوعة لا في الغناء وحده ، بل في الاقتصاد والسياسة وفي كل شيء .

ومرت الأيام ، وأنهوا دراستهم وعادوا الى بلادهم . بعضهم

سجن ، وبعضهم شرّد ، وبعضهم هاجر الى أقصى الأرض ولم يعد أبداً .

ومنذ مدة التقيت بأحدهم فلم أكد أعرفه . شعر أشيب ، جبهة مجعدة ، وأصابع مرتجفة ، فقلت له على الفور :

يا له من زمن طويل!

فقال : نعم طويل . . طويل .

وسألته : أما زلت تحب الموسيقا والأغاني الغربية؟

فقال : لم أعد أعرف ماذا أحب وما لا أحب . لقد مات نات كينغ كول . . مطرب البارات والخمارات . وماتت أم كلثوم وفريد الأطرش مطرب الآهات والحسرات ، ومات عبد الحليم حافظ مطرب الشباب والمراهقات . فمن الذي سيحل محلهم؟

فقلت له : هوِّن عليك يا رجل . ما يلزم العرب الآن مطرب للحل السلمي .

* * *

ذكريات مع السيّاب

في عام ١٩٦٠ ، كنت عاطلا عن العمل . وكانت العروبة نفسها عاطلة عن العمل ، ويا ليتها ظلت كذلك . . وكنت حينذاك ضيفا على مجلة "شعر" وأسرة التحرير كلها ضيفة على صاحبها يوسف الخال . ويوسف الخال ضيفا على شارع السادات في رأس بيروت . في هذه الاثناء حل بدر شاكر السياب (بأناقته المعروفة) ضيفا على الجميع ، وهو يمشي قدما في الشرق وقدما في الغرب بسبب تباشير الروماتيزم في ركبته ولما كان بريئا وساذجا ولا يعرف أن يتحرك بمفرده فقد كلفني يوسف الخال بمرافقته طول اقامته هناك ، وأوصاني وهو يسلمني اياه : لا تعذبه ، انه شاعر كبير .

ومن أول المشوار توطدت عرا الصداقة فيما بيننا ، خاصة بعد أن أهداني في لحظة انفعال "كرافيت" من نوع سيلكا أو سمكا ، لم أعد أذكر ، عربونا على صداقتنا الأبدية ، وبدأت مهمتي في اطلاعه على الحياة الثقافية في بيروت فأخذته من ذراعه وقلت له : هذا هو الشارع الفلاني ، وهذه هي السينما الفلانية . في هذا المطعم يجلس أركان الناصريين ليهاجموا القوميين ، وفي هذا المطعم يجلس أركان القوميين ليهاجموا الناصريين والشيوعيين . وفي هذا المقهى يجلس أركان مجلة "شعر" ليهاجموا الجميع ، متخذاً كل واحد منهم أفضل طاولة وأفضل

واجهة من الصباح الى المساء على فنجان قهوة وخمسين كأس ماء بنصف ليرة . وعند هذه الزاوية بالذات سحبني صاحب المقهى من يدي وقال لي : إما أن تخلصني منهم ، وإما أهدم المقهى وأحوله الى محل لبيع الشاورما ، كرمى ليوسف الخال وشعره الحديث .

وكان بدر يضحك كالأطفال من هذه المعلومات ، وكنت بدوري أكثر سعادةً منه وأنا أقوم بمهمتي خير قيام لصالح الشعر والحرية حسب مفهومي . ولكن ما إن انتهينا من الشوارع العريضة والمناطق السكنية ، وبلغنا منطقة الأسواق التجارية والشوارع المزدحمة بالواجهات والمتفرجين ، حتى أخذت بعض المتاعب تواجهني في مرافقته . . فقد اكتشفت أن المسكين لا يستطيع التسكع كالمراهقين أكثر من عشر دقائق أو ربع ساعة . . بعدها يأخذ في الترنّح والدوران حول نفسه وحول مرافقه ، ولذلك كنت أجده في لحظة على يميني وفي اللحظة التالية على يساري . وعندما لا يجد مرافقه الى جواره ، يدور حول أي شيء ، حول عمود كهرباء أو شرطي سير ، أو حول نفسه . ويتابع طريقه وحديثه عن الشعر الحديث والشعر القديم . وفي باب ادريس حيث رافقته لشراء بعض الهدايا "لأم غيلان" أتعبني أكثر من ثلاثة صفوف في سن الحضانة ، اذ ما إن يمر بزقاق أو زاروب فرعي حتى يترك طريقه الأصلي ويسلكه ، وما إن يرى أي باب مفتوح حتى يدخله . باب دكان أو باب مستودع ، ويتابع حديثه عن صلاح عبد الصبور وعمر أبو ريشة .

مثلا ، فيما نحن نهم بدخول "نوفوتيه" ، يدخل هو صيدلية أو مكتب طيران أو فرن كاتو . وعندما زادها بعض الشيء قلت له أمام المارة ، إما ان تظل ملازماً لي في كل خطوة وفي كل اتجاه ، وإما أن أمسك بيدك أو أربطك بخيط وأعرّف قراءك عليك وأنت في هذا الوضع .

لكن في الأمسية الشعرية التي أحياها مساء في بيروت ، انقلب الى شخص آخر لم أعرفه ولم أرافقه خطوة واحدة من قبل . حتى أنني عندما رأيته يحدق بالحضور فردا فردا بكل ثقة وثبات ، خفت منه ، وانتقلت من الصف الأول الى الصف الثامن أو التاسع . ومن هناك أخذت أراقبه ، كان كل ما فيه كبيرا . قلبه ، موهبته ، رأسه ، أذناه ، ما عدا جسمه . كان المسكين ، رأس .

وعندما تقدم من الميكروفون تحت الاضاءة نصف الخافتة ، امحت ملامحه كلها ، ولم يبق بارزا منها أمام الجمهور سوى أسنانه ، كانت جاحظة من خلال شفتيه بوضوح فيزيولوجيا وايديولوجيا حتى كادت تغطي الصف الأول من الحضور . ووسط الصمت المطبق ، صرح بقصيدته الجزائرية الشهيرة "من قاع قبري أصيح حتى تضج القبور" .

وما إن انتهت الأمسية حتى كنت في الصف الأخير بسبب تدافع المعجبين والمعجبات للوصول الى الشاعر الكبير ، شاعر الحرية والثورة الجزائرية مقرظين مهنئين . ولكن ما إن سلمت عليه أول معجبة وهي تتنهد حتى ارتخى ، وأخذ يصرفني من بعيد باشارات متلاحقة من يده . وكلما ازداد عدد المتحلقات من حوله بثيابهن الفاخرة وعطورهن المثيرة ، ركبه الغرور أكثر وأكثر ، وراح يحلق في أجواء من المواعيد الوهمية والأجواء الكاذبة . إذ قال لي ما معناه ، بأنه يعتذر عن مرافقتي تلك الليلة وربما لا يستطيع أن يراني أو يرى غيري حتى بعد يومين أو أسبوعين . وعاد لتبادل كلمات الاعجاب والاطراء مع المتحلقين من حوله . ولما كانت السماء ممطرة ، وأعرف جيدا هذا النوع من الانبهار وتبادل العواطف والمجاملات أثناء ارتداء المعاطف والتهيؤ للانصراف على أبواب النوادي والمراكز الثقافية ، فقد أشفقت على بدر .

كان المطر ينهمر ، والرؤية معدومة فوق البحر وفي الشوارع ، عندما أخذت مصافحات الوداع والتمنيات باللقاءات في مناسبة أخرى تتوالى على مسامع الشاعر الكبير مع انغلاق أبواب السيارات وانطلاقا بمعجبيها ومعجباتها في ظلمات بيروت الضاجة الساهرة . وبقي بدر خارج القاعة وحيدا كالميكروفون في داخلها ، وفجأة نسي كل شيء . وأقبل عليّ يدور حول نفسه كعادته ، ووضع ذراعه في ذراعي وانطلقنا باتجاه منطقة البارات ضاحكين ساخرين .

وفي الطريق ، أخذ يحدثني عن زيارته الأخيرة لايطاليا ، وعن شغفه الجديد بالمعكرونة ، ثم انتقل من المعكرونة للحديث عن شعر عبد الوهاب البياتي . ومن ثم عاد للحديث مرة أخرى عن ايطاليا ثم انتقل الى ثرثرة المضيفات ، وعن ولعه بالبحر ، وتصميمه على تعلم السباحة بالمايوه . ثم انتقل من الحديث عن السباحة الى الحديث عن ثورة الشواف في الموصل . وعندما قلت له : وما علاقة هذا الموضوع بحديثنا؟ نظر اليّ عابسا وقال : هات "الكرافيت" .

وفي البار تولى بدر شؤون السهرة . فأوقعنا بين يدي غانية ايطالية دوختنا قبل أن تحضر كؤوسنا دون أن نأخذ منها حقا أو باطلاً ، وخاصة أن "بدر" من أول كأس لم يعد يعرف روما من بورما . حتى اذا جاء آخر الليل لم يكن معنا قرش واحد الا ودفعناه على مائدتها . ثم انصرفت مع بدر وهي تدعي الوقوع في غرامه من أول نظرة والاخلاص له الى الأبد .

وغادرت البار ولحقت بهما متباطئا دون أن يغيبا عن ناظري . وبينما كان بدر يرقص ويدور حولها كعادته ويغني لها الأغاني العراقية بصخب الأطفال ، واذ به يصمت فجأة ويختفي ، وعلى الرصيف

المقابل فوجئت به يجلس القرفصاء وحيدا على عتبة فندق ، فسألته ، ماذا تفعل هنا؟

- انتظرها .
- وأين ذهبت؟
- صعدت الى غرفتها لتغير ثيابها .
- والى أين ستذهبان بعد ذلك؟
- لا أعرف .

فسحبته من يده وقلت له منفعلا ، قم وكفاك جنونا . . امرأة على هذا القدر من السكر والنعاس ، أتظنها قادرة على تبديل ثيابها والتبرّج لجنابك في هذه الساعة من الليل . أؤكد لك أنها لن تصل الى غرفتها حتى تنام على لحافها وحقيبتها في ذراعها . فقال بدهشة ، غير معقول ، لقد وعدتني .

فقلت له : ومن هي التي وعدتك؟ سهير القلماوي ، انديرا غاندي؟ قم ولا تشرشحنا أمام الناس لقد طلع الفجر .

ونهض ، ومر بنا حارس ليلي فقال : ماذا تفعلان هنا؟ فقلنا له : لا علاقة لك بهذا الأمر . نحن من رواد حركة الشعر الحديث .

وانطلقنا في أول تاكسي باتجاه الفندق ، ولكن في اللحظة التي وصلنا فيها وصل ترامواي وتوقف فترة هناك لجمع الركاب . وبعد أن ودعته ، مضيت على أساس أن هذه الليلة انتهت على خير ، ولكنه ، وبدلا من دخول الفندق ، دخل الترامواي وانطلق به وأظن أنه بهذه الطريقة دخل الحزب الشيوعي من قبل .

* * *

رعب آخر الليل

فيما مضى من الأيام والسنوات .

أيام التنظير في مطعم فيصل ، وسنوات التحليل والمناقشات في مقاهي الجبل والروشة . عندما كان أحدنا لا يأكل حتى السندويشة التي في يده قبل أن يناقشها ويحلل لها الموقف العربي والدولي من جميع جوانبه .

نعم في تلك الأيام والسنوات الغائبة كعيون المحتضر ، ومع أن كل عشرة كانوا ينامون في غرفة واحدة ، وكل عشرين يجلسون الى طاولة واحدة ، كان أحدنا اذا ما لمح من بعيد صديقا أو جارا قديما يغيب في الزحام ، سرعان ما يقفز من رصيف الى رصيف ، ويتجاهل اشارة المرور ، ويقفز فوق شرطي المرور ، ليلحق به ويأخذه بالقبل والأحضان ، ويمطره بالأسئلة عن الصحة والعافية ، وأحوال الأهل والجيران ، ورفاق المدرسة ، ورفاق الطفولة وعن العمل والراتب ، وهل يقيم في فندق ويأكل في مطعم كالغرباء ، وله بيت وأهل في المدينة؟

أما الآن ، وفي مثل هذه الأيام ، فاذا ما لمح أحدنامن بعيد أو قريب في بيروت أو سواها ، صديقا قديما أو جديدا يغيب في زحام الشارع ، فسرعان ما يقفز من رصيف الى رصيف ، ويتجاهل اشارة المرور ، ويقفز فوق شرطي المرور ، وفوق ادارة المرور كلها ، هربا وتهرُّبا من أي سلام أو

كلام أو ذكريات . فلم يعد يعنيه صديق أو قريب ، زميل مدرسة أو زميل سجن ، رفيق طفولة أو كهولة أو حضانة .

لا يثق بأحد ولا أحد يثق به .

لا يقرع بابا ، ولا أحد يقرع بابه .

لا يعود مريضا ، ولا أحد يعوده .

لا يستضيف أحدا ، ولا أحد يستضيفه .

لقد أصبح البشر كصناديق البريد المقفلة ، متجاورين ولكن لا أحد يعرف ما في داخل الآخر .

* * *

فيما مضى ، كانت الصداقة تستمر أعواماً وأجيالا كحروب الثأر ، والحب خالد كشجر الأرز .

حتى لمسة اليد بين العاشقين ، كانت آثارها لا تزول لأشهر وسنوات . أما الآن ، فآثار العدوان تزول في اليوم نفسه . . والخطبة والزواج والطلاق تنتهي بأسبوع . كأن هناك من يدأب منذ الخمسينيات حتى الآن على تفريغ الجماهير العربية من كل ثمين ونادر كالبيوت القديمة قبل الهدم .

وإلا أفليس من المعيب والمهين حتى الموت ، بعد ثلاثين سنة من الكتب والمجلدات ، والخطب في الشرفات ، والدبكة في الساحات ، والتعليقات والمعلقات في الصحف والاذاعات عن الوحدة والتضامن والتكاتف ، والتلاحم النوعي والمصيري بين الجماهير العربية ، لم تعد ترى سريرا مزدوجا في غرفة ، أو قدحين متقابلين في مقهى أو فردة حذاء بجوار الأخرى في منزل؟

حتى وفي أكثر الغابات كثافة ، وفي أشد العواصف جنونا وهيجانا ، لم تعد ترى شجرة تحتكُّ بشجرة ، أو غصنا يلامس آخر .

الكل ينمو ويتحطم ويتألم وحيدا بمفرده .
الشاعر وحيد في غرفته .
الرسام وحيد في مرسمه .
العاشق وحيد في سريره .
السجين وحيد في زنزانته .
المسافر وحيد في مقعده .
الطفل وحيد في حضانته .
المقاتل وحيد في خندقه .
والوطن وحيد في خارطته .

أهذه هي إذاً ، الوحدة التي ناضل الشعب العربي عشرات السنين من أجلها ، وقدّم آلاف الشهداء لتحقيقها؟

في دولة الامارات قال لي مناضل سابق يسهر وحيدا في شرفته : لم أعد أريد فلسطين في الوقت الحاضر . أريد فقط : مرحبا يا جار . . . فوبختـه على هذا الموقف الانهزامي ، وانصرفت عنه آخذاً عليه سوداويته وعدم استيعابه لابعاد المعركة التي نخوضها . وفي الليلة نفسها كدت أصافح جملا في شوارع دبي واسأل عن صحته وأطفاله ، لعله يسألني عن صحتي وأطفالي .

ان سائق عربة الخيل المفجوع بابنه في قصة تشيخوف الشهيرة ، عندما لم يجد أذنا صاغية من أحد ركابه ليروي له مأساته . . . رواها في آخر الليل لجواده .

والانسان العربي المفجوع بأكثر من أبنائه وأرضه ومستقبله لمن يروي مأساته في آخر الليل؟!!

لمرسيدس!

مكتبة المستقبل

أول مرة تعرفت على "البفتيك" شخصيا في بيت يوسف الخال عام ١٩٥٨ ، وذلك في واحدة من أحلى أمسيات مجلة "شعر" الاسبوعية وأكثرها أهميةً بالنسبة لي شعرياً ، وفكرياً ، وسياسياً . . لأنها ، أولا ، كانت مكرسة بجملها لاطلاعنا لأول مرة على قصيدةاليوت الشهيرة "الأرض الخراب" . . وثانيا ، لأنها انعقدت في الصالون القريب من المطبخ .

لم يتخلف أحد عن الحضور . وفور وصولنا ، أخذ كل منا مكانه كيفما اتفق . . على الأرض ، على المقاعد ، على الطربيزات . . ولبثنا خاشعين منتظرين ، ورئيس الجلسة يوسف الخال ، يقطع الصالون جيئة وذهابا ، وهو ينضد أوراق القصيدة التي انتهى لتوه من ترجمتها واعدادها لهذه الأمسية الخالدة . كانت جميع العيون شاخصةً اليه ، الى إليوت ، الى العبقرية العالمية المجنحة في سماء الابداع والمعرفة . أما أنا وفؤاد رفقة فكانت عيوننا مصوبةً نحو المطبخ وذلك لاسباب لو استطردت في شرحها لوصلت إلى سياسة الخطوة خطوة .

المهم ، ما إن شرع يوسف بالقاء القصيدة ، حتى غاب عمن حوله من حياة أو جماد ، وحلّق هو والحضور مسافة ألف سنة ضوئيةبعيدا عن الواقع اللبناني والعربي والدولي ، وغير ذلك من الأمور الدنيوية

الفـانيـة . وكنت أنا وفـؤاد في هذه الأمـسـيـة ، كـمـا في غـبـرها من الأمسيات السابقة ، ننتظر لحظة انسلاخ الآخرين عن الواقع على أحر من الجمر .

حتى إذا تأكدنا من أن الجميع قد صاروا في غيبوبة ، وأن العيون كلها شاخصة الى السقف ، ولا يمكن لأحد أن ينتبه إلينا ، انطلقنا الى المطبخ ، نلتقم بسرعة وعجلة كل ما تطوله أيدينا من البراد ، وخاصة "الحمص" فقد كنا في تلك الفترة نحبه أكثر من اليوت وعزراباوند . ثم عدنا مسرعين إلى أماكننا بين الحضور ، نشخص بأبصارنا مثلهم الى السقف ، ونتابع المضغ والاصغاء .

في احدى الأمسيات الشعرية ، وكان قد مضى علينا يومان لم نتذوق شيئا سوى الشعر والمناقشات ، مسحنا كل ما في البراد حتى مكعبات الثلج ، ولم نبق فيه على شيء سوى اسم الشركة وماركة البراد .

وكان يوسف يتابع قراءة القصيدة والحضور لا يفتأ يعقب على كل صورة جميلة أو مقطع غريب بكلمة : مدهش ،مثير ، مذهل ، وهكذا حتى وصل يوسف بالقصيدة الى المقطع الذي يقول :

نيسان أقسى الشهور

ينتج الكمـأة أو "القلقـاس لـم أعـد أذكـر" من تحت الشـجـر والصخور .

عند ذلك ، قُرع جرس البـاب ، فلم ينتبـه اليـه أحـد سواي ، واذ ببقّال الحارة ومعه فاتورة الديون الشهرية . ومن غريب المصادفات أنها كانت عن شهر نيسان . فأخذتها منه وقدمتها ليوسف ، فتناولها مني دون أن ينظر اليها .وضمها الى أوراق القصيدة . وكان بعض الحضور

مازال يعتقد بأن ما يسمعه هو امتداد للقصيدة ، ولذا كان يتابع إعجابه وتعقيبه : مدهش ، مثير ، غير معقول .

وعندما تنبه يوسف الى الالتباس الذي وقع فيه ، ارتبك وغضب وثار ولم يعد يعرف كيف يتصرف مع الحاضرين أو مع البقال الذي مازال واقفا يريد حسابه . فأسرعت من المطبخ لنجدته وتدارك الموقف ، ورحت أصبّ جام غضبي على البقال متهما إياه بالجهل والتخلف لأنه أعادنا من عالم اليوت والتمايز الى عالم البندورة والموزات والشرحات ، فقال لي يوسف : دعه بلا مزايدة . ماذا في فمك؟ فقلت : "حمص" . والتفت الى فؤاد وسأله ، وأنت ماذا في فمك أيضاً؟ فقال : "متبل" . فقال : عظيم . هكذا سنغير العالم ونمضي قدماً بقضية الشعر الجديد وقضية فلسطين وغيرها من القضايا المصيرية التي تربض على أكتافنا . إنكما في الواقع لا تختلفان بكثير أو بقليل عن هذا البقال من حيث عمق التفكير والنظرة الى المستقبل . نحن نشقى ونكابد في البحث والتنقيب والترجمة لاطلاعكم أسبوعيا على أحدث التجارب الأدبية في العالم وأنتما مستنفران أبداً أمام البراد . سوف أحطمه ، هل هو مكتبة ، فقلت له : نعم انه مكتبة المستقبل .

وبعد عقد من الزمن تعرفت على (شيخ الشعراء وأبو القضايا) شاعر العودة "أبو سلمى" ، وذلك في مطعم "حلويات مهنا" في ساحة المرجة بدمشق ، حيث كان يقدم أشهى "فطاير باللحمة" في الستينيات . وكنا نواظب على هذا المطعم ، ونتناول في حديثنا كل القضايا المطروحة على الساحة العربية . . شعر قديم ، شعر حديث ، وحدة ، انفصال ، وبشكل خاص قضية القضايا فلسطين . وكان أبو سلمى يغيب عني فجأة شهرا أو شهرين ثم يعود فنلتقي مصادفة في

المطعم نفسه فأبادر الى الترحيب به وسؤاله :

ـ أين كنت؟

ـ في مصر ، من أجل القضية .

وبعد شهرين أو ثلاثة أعود فأسأله أين كنت؟

ـ في الجزائر من أجل القضية ، في بغداد ، في أبو ظبي من أجل القضية .

ومرةً ، غاب عني لفترة طويلة فلم أعد أرى له أثرا أو خبرا في مطعم أو مقهى أو شارع . ووقعت حرب حزيران ومات عبد الناصر وظهر السادات ، وغابت وجوه وظهرت وجوه ، وحدثت تطورات عجيبة ، منها مثلا أنني دعيت الى الاتحاد السوفياتي ضمن وفد لاتحاد الكتّاب العرب . وفي آخر يوم من الزيارة ، وأنا في صالة فندق روسيا الواسعة اتأمل مئات الوفود الآسيوية والافريقية والاوروبية ، تموج هنا وهناك ، وكل عضو يضع شارة على صدره ويدور بحقيبته وقضيته في أرجاء القاعة ، هناك رأيت "أبو سلمى" من بعيد ، وهو يدور في أرجاء القاعة بحقيبته وقضيته ، فصحت به بانفعال وقد فوجئت بوجوده : فلسطين ، شعر حديث ، شعر قديم ، كفاح مسلح ، كفاح مهذب ، فلم يسمعني ولم يلتفت إليّ . وهنا صرخت بشكل عفوي : "فطاير بلحمة" وإذ به يلتفت في الحال متلمظا مستطلعا .

فقلت له وأنا أمد له يدي مصافحا : فطاير بلحمة يا أبو سلمى!

فقال وهو يهز برأسه وظلال الدموع في عينيه : نعم . . . فطاير بلحمة .

* * *

الضيف

أروع ما في بيروت خريفها ، وإن كان عابرا كحريتها . . وفي بداية تشرّدي على أرصفتها قبل عشرين عاما وأكثر ، كنت كدول المواجهة ، أعيش على المساعدات الخارجية ، حيث كان لي بالفعل أصدقاء مواجهة ، واصدقاء مساندة ، وأصدقاء استنزاف .وفي مثل هذا الفصل بالذات ، وبينما كنت أتسكّع أو بالأحرى أحوم في فترة الغداء أمام واجهة مطعم فيصل واتأمل فراريجه وأطاييبه الغريبة كأنها بالنسبة لي لوحات سريالية ، دعيت كضيف رسمي أو "احتياط" لم أعد أذكر ، الى حفلة عشاء ساهرة في "الجبل" تكريما لأحد أدباء المهجر . فقبلت الدعوة على الفور ، وشربت عدة زجاجات من الكازوز استعداداً لها ، دون أن أعرف متى وأين وعلى شرف مَنْ؟ لكن واجهتني مشكلة الثياب ، فالبرد في لبنان ، كسياسته ، لا تعرف متى يقضي عليك . وكنت في تلك الأثناء قد نشرت قصيدةً عن الفقر والتشرد لاقت استحسانا عند مختلف الفئات والأحزاب والميليشيات . ولذلك ، جاءني بنطلون من واحد ناصري ، وجاكيت من واحد كتائبي ، وكنزة من صديق قومي عربي ، وربطة عنق حمراء من ناقد شيوعي ، ولذلك عندما ارتديتهم جميعا وتأملت نفسي في المرآة ، كنت أشبه ما أكون بنشيد أممي ، أو مؤتمر قمة متحرّك .

وأخذت أول باص وانطلقت صعدا الى مكان الحفلة . وكنت في

تلك المرحلة من حياتي ، لا أعرف ولم أسمع بشيء اسمه آداب الدخول او الجلوس أو الانصراف . لا أعرف سوى أن أدخل وأجلس على أول كرسي أصادفه في أية حفلة أو مطعم أو حزب أُدعى اليه . ومتى ضجرت أو نرفزت من شيء ، أفتح الباب وأنصرف . ولكن في هذه المرّة كان الأمر مختلفا . إذ ما إن فوجئت بكثافة الحضور وأناقته واختلاطه حتى شعرت بالرعب : تحيات ، انحناءات ، خدم يذهبون ويجيئون ، ضحكات هنا ، ولحمسات هناك ، فلم أعد أعرف كيف أتصرف . وقفت في الباب ، تنحنحت ، سعلت ، تنشقت ، فلم ينتبه لقدومي أحد ، فظننت أنني معروف من قبل الجميع ، وقد رفعوا الكلفة فيما بيني وبينهم ، فأخذت أول مقعد في الصالة وجلست أمسح عرقي . . ولكن ما إن فعلت ذلك حتى جاءت سيّدة وقالت لي : تفضّل الى هنا . وما كدت أجلس حيث أشارت ، حيث جاء خادم وقال لي : تفضّل الى هناك ، الى أن انتهى بي المقام على أيكة ضيّقة بين اثنين من أدباء المهجر المسنين يتحدثان عن الفتوحات العربية وأثرها في حضارة الغرب والشرق ، وكان أحدهما لا ينفك بعد كل جملة ، يفتح زجاجة ، ويلتقم منها عددا من الحبوب والمنشطات ، أو يضع نقوطا في عينيه ، فتجاهلتهما وأخرجت ما في جيوبي من مسودات وقصائد وأخذت اصحح وأضيف وأشطب لألفت نظر المدعوّين الى أنني "أديب" فلم ينتبه اليّ أحد ، ووقفت أتأمل مكتبة ضخمة في احدى الزوايا ، واتصفّح مجلداتها ، وكدت أقرأ أحدها بالكامل دون أن يعيرني أحد انتباها ، فكظمت غيظي ،ورحت أبحث عن حلقة من المتحدثين وقوفا لأنضم اليها ، فانتقيت أقربها الى المائدة ، وكان أفرادها يتقارعون الأنخاب وهم غارقون في الحديث

والفكاهات ، فأقبلت عليهم وغرقت معهم في الضحك دون أن أعرف السبب . ولكن نهاية الضحكة سرعان ما انقلبت الى سعلة فحشرجة بدأت ولم تعرف كيف تنتهي ، وكأن كل تاريخي المخزون في صدري من "المرجان والطاتلي سرت" قد تفجّر في تلك اللحظة ، وطلبت من المضيفة كأس ماء فقالت لي بالانكليزي : دقيقة . . . وانصرفت الى مدعوّيها . وسألت الخادم كأس ليمون فقال لي بالأفرنسي : لحظة . . . وراح يلبّي طلب شخص آخر ، فتركت الجميع ورحت أبحث عن زاوية ما حتى ينتهي سعالي والتقط أنفاسي . ولم أجد نفسي إلا في غرفة "الحمّام" ، والواقع أنني لم أعرف أنه "حمّام" فعلا الا من الصنابير والمناشف المطوية هنا وهناك . لقد كان هو الآخر أشبه بقاعة استقبال مصغّرة . وباختصار ، كانت الاسفنجة الموضوعة أمام العتبة أكثر اتساعا وطراوة من الفراش الذي ولدت وقضيت طفولتي عليه ، أما "البانيو" فلا يمكن لأي إنسان أن يراه إلاّ ويشتهي أن يقيم فيه هو وعائلته الى الأبد .

وفيما كانت أصوات الضحكات وقرع أنخاب الوداع تتناهى اليّ من الداخل ، تلفتّ يمنةً ويسرةً وتمددت فيه بكامل ثيابي ، ووضعت ما أحمل من كتب ومجلاّت تحت رأسي ولففت ساقا على ساق ورحت أفكر : بعد قليل سينصرف المدعوون تباعا ، وكل جماعة تنتظرها سيارتها وسائقها ، أما أنا فماذا ينتظرني في الخارج ، في الداخل ، في الجبل ، في السهل ، في الوادي؟ غير الليل والريح واصطفاق الأبواب؟

وفجأة دخلت إحدى المدعوات لتصلح من زينتها ، وقد فوجئت بتمددي داخل البانيو ، فنظرت اليّ باستعلاء كأنني ليفة أو صابونة ، وقالت : بصراحة . . . تنقصك اللياقة .

فقلت لها : بل ينقصني وطن!!

عمار من أوراق الصحف

في فورة الشباب الأول عندما كان الشعر الأشعث يغطي عيوننا كنا نرى كل شيء . ومع الخطوات التي تلت على طريق النضال المفعمة بالهتاف والهياج والقمصان النضّاحة بالعرق ، كنا ونحن نتناول الطعام نفكر بلومومبا وتحرير أفريقيا . وأحدنا وهو يستحمّ في طشت الغسيل كان فكره مشغولا بالدم الذي سيغسل عار النكبة عن فلسطين ورجس الاستعمار عن آسيا وأفريقيا وكل مكان . وبعد سنوات صار أحدنا وهو يقرأ كيف سُحِل لومومبا وعُذِّب وأُهين يفكر بأسعار الفول والباذنجان . وهو يستحمّ في أنباء الدم المسفوح في لبنان وفيضانات الهند والفليبين ، ينصرف ذهنه الى أسعار الصابون والمناشف في السوق المحلية .

لقد استُدرج ذهن المواطن العربي عاما بعد عام وانقلابا إثر إنقلاب ، من فلسطين المحتلة ، وأميركا اللاتينية ، وأفريقيا الشرقية والغربية . . . من كل قارات العالم الى "مطبخه" وقالت له المؤتمرات الدولية والأمم المتحدة : "هيّا تمترس وراء أكياس الملح والرز والعدس ، وضع ملعقتك في بيت النار ، وكن مُستنفراً الى الأبد" .

لقد أخرجوه أيضا بكل تهذيب من صفحات الشعر والرواية والمسرح والمرسم الى مصلحة المياه والكهرباء وقالوا له هنا شعرُك

ومسرحك وأوبراك .

فَثار وعربد ، وصرخ وراء الميكروفونات ووشوش في الباص ونكَّتَ في المقاهي ثم انصرف الى فواتيره ودفتر البقالة يقرأ ويمحّص .

لقد قالت له الصحف والاذاعات العالمية بلباقتها المعهودة ، إن عجلة الاحداث طاحشة على المنطقة ، فابعد من أمامها والتصق بالحائط . فهي التي سحقت في طريقها لبنان المدعوم من ألف جهة وجهة ولم يرف لها جفن أو برغي ، لن توقفها وشوشة في باص ، أو نكتة في مقهى ، أو عتاب شاعر وراء منبر ، أو ارتعاشة ممثل على مسرح .

وشغلته سلامته الشخصية وكفاحه اليومي لتأمين قوته وكسائه وعلاجه ومواصلاته ، وما يتطلبه ذلك من نفقات لا تتناسب ودخله المحدود عن أي شيء آخر في العالم . لم يعد يفكّر الا في جيبه ، ولذلك حتى لو عثر في الطريق أو في الباص على حقيبة دبلوماسية تحوي كل اسرار المنطقة لتردد كثيرا قبل التقاطها خوفاً من أن "يبرق ظهره" ويضطر للذهاب الى الطبيب . لأنه منذ تحوّلت العيادات الى بقاليات وهو يتحاشى الاصابة بأي داء وخاصة "العصبي" حتى لا يقع في أيديهم . ولذلك ، فهو يرجو بالمناسبة من الحكومات العربية أن تصدرنشرة رسمية كل أسبوع أو أسبوعين ، تتضمن أسماء الدول التي ستتخانق أو ستتصارع معها خلال هذه الفترة وتلصقها على جدران الباصات ومداخل السينما ولوحات الاعلانات في الدوائر حتى يتهيأ المواطن سلفاً لمثل هذه الحالة .

كما يرجو إعلامه مسبقاً عن مواعيد اجتماعات منظمة الدول المصدِّرة للنفط ومنظمة الدول المستهلكة له ، حتى يستعد لذلك

تموينيا ، لأنه أصبح يعرف ان كل صراع بينهما لن تقع نتائجه الا على رأسه . . وعندما أخذت الاذاعات الغربية تتنبأ منذ الآن بأن خسائر الدول المستهلكة للنفط ستبلغ عشرين مليار دولار عندما تُرفع أسعاره في العام القادم ، فهو يعرف سلفا انها ستعوّض أضعافا مضاعفة من أفواه ملايين الفقراء من أمثاله . حتى بات يتطيّر فزعا من كل مؤتمر يعقد في أي بقعة في العالم حتى ولو كان لبحث شؤون المسرح وتطوير الأوبرا .

وفيما عدا ذلك لا يطلب شيئاً سوى حمايته من الجشع الخارجي والداخلي ، حتى يعرف كيف يواجه هذا الشتاء المقبل . وبالمناسبة يرجو النظر بعين التقدير والاحترام لباعة "البالة" وعدم ملاحقتهم من شارع الى شارع ومن زقاق الى زقاق . . . اذ لولاهم لذهب غالبية الموظفين الى أعمالهم بثيابهم الداخلية . لقد كان المواطن يخجل ويرتبك من الاقتراب من عربات الباليه . أما الآن فقد أصبح ينكشها ويقلّبها رأسا على عقب بحثا عما يناسبه ويناسب عائلته وأطفاله دون أن يشعر بأي خجل إلا من شيء واحد : هو أن يجد نفسه بعد ربع قرن من الأمل بالاشتراكية يلبس من "عتايق" الرأسمالية .

* * *

الوتد والخيمة

هل الانسان المثالي هو الذي يخفي عيوبه الفكرية والجسدية تحت الاحزمة والمشدات ، مثل الارتيست قبل النزول الى الشارع؟

وهل إذا رسمت دولة ما حمامة مرفرفة على أبواب سجونها ، أقنعت نفسها ومواطنيها بوجود الحرية في أراضيها؟

أقول هذا رداً على سؤال لأحد القرّاء يعيب عليّ اعترافي بأن معظم مواقفي كرتونية .

أولا : أنا لست فخوراً بذلك .

ثانيا : منذ أن أكلت أول (بوكس تقدمي) في حياتي قبل سبع وعشرين سنة لم أعد أطمئن الى أحد ، بل منذ ذلك الحين أصبح مستقبلي في ملعقتي .

ثالثا : أستطيع أن أقول إن ذلك هو ضريبة التضحية والنضال في سبيل الشعب ،وأستطيع أن أخترع لك تاريخا نضاليا لا غبار عليه . في سنة كذا جُرحت ، وفي المظاهرة الفلانية خُرمِشتُ ولكن الحقيقة هي غير ذلك بتاتاً .

والقصة وما فيها ، هي أنني في الثالثة عشرة من عمري كنت وحيدا فقيرا في قرية أكثر وحدة وفقرا من مواطنيها . وكانت الريح تعصف والمطر ينهمر وأنا أتسكّع في زواريبها المظلمة المقفرة لا أعرف

كيف أصرف وحدتي وضجري . حاولت تلك الليلة الدخول الى البيت فكان مغلقا ، حاولت الدخول الى السينما ، فلم أجد نقوداً ، فقررت الدخول في أحد الأحزاب . كنت كملايين الفلاحين الفقراء في تلك الحقبة أكثر وحدةً وجفافاً من الوتد ، وعليه أن يُدق في أرض ما ويُشدّ اليه خيمة ما .

المهم ، كان هناك حزبان جديدان يتنافسان في القرية ، وفي طريقي للانتساب الى أحدهما اتضح لي أن أحدهما بعيد عن الحارة ولا يوجد في مقرّه مدفأة . . ولأنني كنت متجمّد الاطراف من البرد ، اخترت الثاني دون تردّد لأنه قريب من حارتنا وفي مقرّه مدفأة . . وللآن لم أقرأ مبدأ من مبادئه ، ومنذ أن انتهت موجة البرد بعد أيام لم أحضر له اجتماعا ، ولم أقم بأي نشاط لصالحه على الاطلاق ، باستثناء مرة واحدة كلّفوني بها بجمع تبرعات من احدى القرى التي كنت أعمل في بساتينها فجمعت التبرعات والاشتراكات ، واشتريت بها "بنطلون" وذاك وجه الضيف .

ومنذ ذلك الحين قال الكريم خذ . ونظراً ليفاعتي أولتني السلطات اهتماما بالغا وقرّبتني بسرعة من سن الرجولة والايمان بالوطن والحرية وصار لي فورا لحية وشوارب وعمامة من الضمادات .

ومنذ ذلك الحين وأنا أتحاشى أي لابس قبعة حتى لو كان جابي باص أو بائع بوظة .

فماذا تنتظر من مواطن مرّت عليه ولمدة سنوات وسنوات شاحنة محمّلة بالقيم والشعارات والخطابات ، وكل سائق له مزاجه الخاص واتجاهه الخاص؟ وماذا تتوقع أن يخرج من تحتها بعد ذلك؟ ملكاً للكمال الجسماني؟

اسكت يا رجل ، لو أنني استعملت "عكازاً" لكل عضو محطم في أعماقي لاحتجت الى "منجرة" قرب بيتي .

* * *

الذهب والآجر

١ـ قرأت قصصا قصيرة وروايات طويلة عن الصحراء أكثر من رمال الصحراء . وشاهدت وسمعت مسلسلات اذاعية وتلفزيونية عن الكرّ والفرّ في الصحراء أكثر مما قرأت . من عنتر وعبلة لممتاز الركابي ، حتى فارس بني شيبان ، ووضحا وابن عجلان لخالد كاكا ، ولكنها على كثرتها لم تفعل في نفسي مثلما فعلته بضع صفحات من قصة قديمة قرأتها قبل عشرين عاما لكاتب يكاد يكون مجهولا يدعى "أريك راي" يؤكد فيها من خلال معاناة انسان وحيد في صحراء محرقة لا نهائية ، عبث النضال الفردي ، واستحالة الحياةبعيدا عن الآخرين حتى ولو كانوا صخورا صمّاء . لا تستطيع وأنت تقرؤها إلا وتحجب عينيك بحركة لا شعورية حتى لا تؤذيهما الشمس المحرقة التي يصفها . لا تستطيع في الصفحات الأخيرة إلا وتتعاطف مع ذلك الانسان المشقق الأرجل اليابس الشفتين وتتمنى لو تكون خيمة لتظلله بها ، أو جملا بسنمين لتقلّه على ظهرك الى أقرب واحةٍ في العالم .

٢ـ عانيت في حياتي كل أنواع الجوع بلا استثناء : الجوع الى الحب ، الى الحرية ، الى السفر ، الى الاستقرار ، وعلى رأسها جميعا الجوع الى الرغيف . . ولكنني لم أشعر بقسوة الجوع وبريق أنيابه مثلما شعرت وأنا أقرأ رواية "السكير" لأميل زولا ، إذ يصف الفقر والعَوَز

وجرض اللعاب ومغص البطن ، بصدق وواقعية جعلتني أنهض بين كل صفحة وصفحة الى المطبخ لأتأكد من وجود خبز وطعام وملاعق في بيتي ، بل صرت بعد فترة أقرأ صفحة وآكل رغيفا . . انه يحلل مشاعر امرأة حبلى ضالة في أزقّة باريس الخلفية دون أن تتبلّغ طعاما منذ أيام ، وحولها باريس ، بل اوروبا بأسرها تضج بالذهب والحفلات وأنهار الخمر . يحلل كل هذا بأسلوب يثير الرعب والذعر من المستقبل ، بحيث ما ان انتهيت منها في آخر الليل وتصورت نفسي مثل بطلتها بعدما أهرم وأشيخ ، حتى انتابني هلع رهيب من الجوع وكدت أنام أنا وزوجتي وأطفالي في البرّاد ونقيم حوله المتاريس .

ليس في الرواية كلها كلمة واحدة مباشرة لا مع الفقراء ولا ضد الأغنياء ، انها تعرض الأحداث بحياد ولكن بتأثير لا يجاريه حدّ السيف . إذ مهما كان القارىء بليد الحس عديم الاهتمام بمن حوله لا يجد نفسه بعد اغلاق الكتاب إلا وهو يمد يده الى أقرب كرسي أو مقعد ليهجم به الى حيث يوجد جوع وظلم في العالم .

٣ـ قصتان قرأتهما قبل سنين طويلة ، وأستشهد بهما قولاً وكتابةً منذ سنين طويلة . غلاف متواضع وحواش مهترئة من رطوبة الأرصفة وغبار الأيام الخوالي . بينما عندنا كتب وروايات أنيقة وملمعة على أحدث طراز وكأنها لم تخرج من المطبعة بل من عند الكوافير ، ومحشوّة كديوك الولائم بكل ما هبّ ودبّ من شعارات ومصطلحات التحريض والإثارة ، ومع ذلك ، لا تؤثر في قارئها أكثر مما يؤثر الدبوس في جبهة المصارع الاسباني .

تقرأ قصةً لأحدهم عن الجوع فتتمنى أن تُلقي كل ما يحويه مطبخك من صحون وطناجر الى الشارع .

تقرأ روايةً عن البحر ، فيزداد حنينك للصحراء وقناعتك بالتيمم .

تقرأ قصةً عن الألفة والتآخي بين الجماهير . . . فتقاطع كلٌّ من حولك وتتشاجر حتى مع نفسك أمام المرآة .

مرّةً ، قرأت روايةً لأحدهم عن إحدى الأمهات التعيسات ، ولكن من كثرة ما حمّلها من الشعارات وما أَنطَقَها من الحِكَم التي لا تخطر ببال كونفوشيوس ، كدت أتمنى لأول مرّة في حياتي لو كنت يتيماً .

* * *

المرآة

نعم ، سأحتفل بعيد الميلاد ورأس السنة وعيد الشجرة ، ولن أُفوّت بعد الآن حفلة أو عرسا أو ختانا إلا وأكون أول من يحضر وآخر من ينصرف . فعندي كل الثياب و الأوراق الثبوتية التي تجعل أرقى المجتمعات المخملية تفتح أبوابها أمامي . يكفي أنني أستاذ ذو كرسي أمام الخريطة العربية ، وأستاذ زائر ذو بيجاما وشحّاطة وبطانية في أرقى السجون ومراكز التحقيق في الوطن العربي ، وفوقها أعلى الشهادات في السعال وصفير الصدر من جامعة مالبورو . فمن هو أحقّ مني بعد ذلك في اللهو والمرح والضحك من كل شيء وعلى كل شيء؟

نعم ، سأحتفل ليلة رأس السنة الجديدة ، وسأضحك من أعماق قلبي وحتى تطق خواصري كطفل يشاهد أفلام كرتون . . كزعيم سياسي يشاهد على شرفته تلميذا يحيي علم بلاده في الزمهرير .

كمقاول عربي يشاهد من يلتقط كسرة خبز من الأرض ويدفنها في الجدار بعد أن يقبّلها ويضعها على رأسه ثلاث مرّات .

كمذيع عربي يتلو على زوجته وهو يخلع ثيابه فقرات مما قرأه من نشرة الأخبار والتعليق على الأخبار .

كرونالد ريغان وهو يستمع الى سباب العرب لأمريكا ، وتهديد زعمائهم بتدمير مصالحها ، وفضح سياستها أمام المجتمع الدولي ، بينما

سفراؤهم في الغرفة المجاورة ينتظرون منذ ساعات التماسا لمقابلته والتحدث اليه ولو من شقّ الباب .

ولكن بماذا أضحك؟ بأنفي؟ بأذني؟ وفمي مغلق أبداً بسبب التصليحات . وعلى افتراض أنني حللت هذه المشكلة وفتحناه عنوةً باشراف الضابطة العدلية ومندوب عن وزارة الأعلام ، فمع من أسهر في هذه المناسبة؟

مع صديق؟ كل أصدقائي شهداء تحت الأرض أو فوقها .

مع تاجر؟ بعد السهرة سيبيعني بالتنزيلات .

مع شاعر؟ سيقول لي : "دعني أرجوك ، منذ شهرين وأنا أبحث عن قافية جديدة دون جدوى . لا يوجد سوى (تهريب)" .

مع مناضل من دول المواجهة؟ سيقول لي : راجعني بعد انهيار كامب دايفيد وتحقيق الوحدة العربية .

مع "جمل" في دول المساندة؟ سيقول لي : "آسف أنا مواطن وأنت وافد" .

مع كنّاس في آخر الليل؟ سيقول لي : "لا وقت لدي" فأمامي أكوام من بطاقات التهنئة بهذه المناسبة ، والتي لم تُقرأ ولم تُفضّ أغلفتها .

وعلى افتراض أنني وجدت من يحتفل معي ويرافقني الى الملاهي والبارات بالطريقة التي يتم فيها تدبير المصفقين في الاحتفالات والمقترعين في الانتخابات في معظم بلدان العالم الثالث .

أهذا وجهٌ أُقابل به ربي وعباده في هذه المناسبة؟

أهذا خصر أواجه به شعبي في ليلة فرحه؟

ثم أهذه أقدام أواجه بها تراب وطني وسجاد بلادي؟

آه كم غـرَّر بي الأطبـاء والمجلات الطبـيـة ، وكم خـدعـتني برامج الإرشادات والتوعية الصحية .

الجزر يفيد العيون .

الملفوف يشفي المفاصل .

الزيت ينقّي البشرة .

التفاح يهدىء الأعصاب .

النعنع ينعش القلب .

والجرجير يمنع تساقط الشعر .

وكنت أصدّق مـا يقولون ويكتـبون ، وأنفّـذ تعليمـاتهم طول الليل والنهار ، حتى كدت في يوم من الأيام أن أرعى في الحقول .

ولكن كلما جلست الى المرآة في آخر الليل ، ورأيت وجهي الشبيه بوجه فـريد الأطرش في آخـر أفـلامـه "نغم في حيـاتي" يتـأكـد لي أن هزيمتي أبدية . ولن ينجح معها طب أو علاج أو هراء .

فـهـذه العـيـون التي شـهـدت تقـسـيم فلسطين ، وتقـسـيم لبنان ، وتقسـيم الخليج ، وتقـسـيم المغـرب ، وتمزيق المشـرق ، ورأت مـا رأت من قـوافل الشـهـداء والسـجناء واللاجئين والنازحين والوافـدين والـفـارّين . ورأت السـادات في القـدس ، وبيـغن في القـاهرة ، وشـارون في بيـروت "تلفـزيونيا" ، ورأت هاني شـاكـر ووليـد توفيق "شـخصيا" . أي جَزَرٍ ، وأي لِفْتٍ سيعيد لها بريقها وصفاءها؟

وهذه التجاعيد العميقة المتشابكة كأزقّة المخيمات الفلسطينية في الشتاء .

وهذا الوجه الذي صفعـه اليمين واليسـار أكثر مما يصفـع الخبّـاز رغيفه . أي زيت وأي زيتون سيعيد له نقاءه ونضارته؟

وهذه الركب التي تصطك منذ ولادتها أمام الإقطاع والبرد ، ومدير المدرسة ، ومدير السجن ، ومدير العمل ، وأمام الجمارك ، ونقط التفتيش ، ومراكز الحدود ، ومراكز التحقيق ، ومراكز القوى ، أي ملفوف وأي قلقاس سيعيد لها مرونتها واستقامتها؟

ثم هذه الأعصاب التي تحمّلت ما تحمّلت من الانقلابات السنوية والبلاغات اليومية والخطابات الأبدية ، والأوامر العرفية ، وابواق الاسعاف وصفّارات الإنذار ، وصفّارات المرور . وعانت ما عانت من انتظار نتائج الحروب ونتائج المفاوضات ونتائج الانتخابات ، ونتائج الامتحانات ، ونتائج اليانصيب ، ونهاية الأفلام البوليسية ، والمسلسلات السياسية . . . أي تفاح وأي درَّاق سيهدئها ويزيل توترها؟ إن تشفيط السيارات وحده يحتاج الى صندوق كامل مع خشبه ومساميره كل صباح .

ثم نخب مَنْ سأشرب من المحيط الى الخليج؟

نخب معاطف الفرو وحمامات الشمس وخواتم وخلاخيل السوليتير؟

نخب تاجر الفاكهة والخضراوات الذي صار يسأل عن أسعار الكريستال البوهيمي ، والشاعر البوهيمي يكاد يأكل قشور الفاكهة والخضراوات؟

أم نخب الأحكام العرفية وقوانين الطوارىء التي صارت أبدية كقوانين النسبية والأجرام السماوية؟

ماذا أشرب وأشرب؟

انني بحاجة الى كأس بطول عبد الناصر لأنسى ما حلّ بأعصابي منذ أن "دقّت ساعة العمل الثوري" في المنطقة .

والى جلسـة أطول من خطوط وقف النار مع العـدو ، لأنسى مـا سـيحلّ بي وبأعـصابي وأمـتي منذ أن دقّت سـاعات "رولكس" في المنطقة .

* * *

مقطوع من شجرة

كانت الدنيا أول الشهر وعلى أبواب عيد ، عندما وضعت لفافتي في فمي ومحفظتي في جيبي ، وخرجت من البيت أتجوّل في شوارع المدينة سعيداً بما تبقى من راتبي وعروبتي .وراضياً كل الرضا عن كل شيء فوق هذه الأرض العربية الطاهرة من القاهرة حتى سلطنة عُمان .

عن الفقراء والأغنياء .

عن الصحارى المجدبة والسهول المقفرة .

عن المسرح القديم والمسرح الدوار .

عن التجارب الأدبية والتجارب النووية .

عن البيض والزنوج .

والأطباء والمرضى .

والقضاة والمتهمين والمحامين .

عن هدير الشاحنات وهدير الشعوب .

عن اليمين والوسط واليسار .

ومسيرات التنديد والتأييد والاستنكار .

بل وشعرت في لحظة من اللحظات وأنا أتوغل في الشوارع ، بعيدا عن بيتي وعائلتي بنفحة صوفية ، تقرّبني من العالم أجمع ، حتى لم أكن أتمنى في تلك اللحظة سوى أن تكون معي زجاجة أو بطحة على

الأقل من الماء المقدّس لأرشها على رؤوس المارّة فرداً فرداً كأي مبشّر أو قدّيس يفخر بالماضي ويسعد بالحاضر ويثق بالمستقبل .

وفجأة اعترضت طريقي جمهرة من الناس تتفرّج على شجار محتدم بين شخصين رهيبين منفرين ، بسبب أولوية المرور في شارع ضيّق لا يكاد يتّسع لسيارتيهما الفارهتين المتقابلتين . ووقفت مضطراً أتفرّج مع المتفرجين وأسمع مع السامعين ما يتبادله الاثنان من اتهامات وشتائم وتهديدات ، تتضمن تلميحا وتصريحا أسماء الأشخاص والجهات الداعمة لكل منهما . ويبدو أن أكثر من عابر سبيل وفاعل خير حاول قبل مجيئي أن يقرّب وجهات النظر فيما بينهما ، ويقوم بدور تشاوشيسكو بين سيارتيهما فلم يفلح ، ولما وجدت الصحف والمجلات متناثرة على مقاعدهما الخلفية أيقنت أنهما مثقفان ولابد أن يكونا مطّلعين على اسمي من قبل . ولذلك تقدمت منهما وسط إعجاب المتفرجين وقلت ، أنا فلان .

فقال أحدهما : طظ!

فأجبته وقد امتقع وجهي من الخجل والخوف : عظيم . سنرى .

ومضيت مبتعدا عنه ، ولكنه سرعان ما لحق بي حتى اعترض طريقي بقامته العملاقة وقال وهو يرقّص عضلات ذراعيه كحواجب الأرتيست : ماذا سأرى؟ بمن تهدّد؟ فقلت له وقد انحلّت ساقاي من هذا الموقف خاصة عندما رأيت بأم عيني تراثه الثقافي واضحا للعيان من تحت سترته : انني لا أهددك بشيء . انني مجرد مواطن ، عابر سبيل .

ولحقني مرّة أخرى وقال : كذّاب . أنا ورائي فلان وفلان . ومعي فلان وفلان . فمن وراءك أنت ومن معك؟

فقلت له : حسناً ، وأنا لست مقطوعاً من شجرة ، وورائي الشعب وآلاف القرّاء ، ومعي روماتيزم وضيق تنفّس ، والتهاب أذُن والتهاب مفاصل ، وموعود قريباً بانهيار عصبي .

* * *

الدرع والفارس

أحد المستشرقين الأجانب جاء ليقوم بعملية مسح للثقافة العربية أكثر مما هي ممسوحة . . سألني باهتمام : أين تقف الآن في الساحة الأدبية ، فقلت له :

أقف الآن على آخر طريق الاشتراكية العربية ، وورائي ثلاثون سنة من التمجيد والتسبيح باسمها ، وأمامي ثلاثون مواطنا حتى يأتي دوري في الحصول على رغيفين من الخبز (وغير ناضجين أيضا) .

أجلسُ الآن لاهثاً في آخر طريق الوحدة العربية ، وفي جيبي اثنتان وعشرون جنسية .

آه . . اعط العربي ميكروفونا وقضية ، وبعد شهرين تعال وتفرّج على هذه القضية كيف صارت .

قال : ولكن ما عمر الثورة العربية؟

قلت : لا أعرف . عمرها كعمر كوليت خوري ، علمه عند الله .

قال : كوليت خوري الأديبة المعروفة؟ كم أرغب في مقابلتها . هل أستطيع ذلك؟

قلت : لا أظن ، لأنني قرأت لها منذ مدة مقابلة صحفية في إحدى جرائد الخليج تقول فيها انها منذ ان شاهدت زيارة السادات لاسرائيل على شاشة التلفزيون أصيبت بمرض القلب من

جديد ، وأقلعت عن مقابلة الناس والصحافيين .

قال : أفهم من كلامك انها تعرّضت من قبل للصدمة نفسها؟

قلت : طبعاً ، عندما مات عبد الناصر أصيبت بصدمة ، وعندما اغتيل كمال ناصر أصيبت بصدمة ، ولا أعرف ماذا حدث لها مجددا بعد سقوط "جيفجيفا" في إقليم أوغادِين .

قال : يؤسفني جداً سماع هذه الأنباء . ولكن من جهة أخرى هل أستطيع مقابلة عدد من الوجوه الأدبية البارزة عندكم؟ طبعاً اذا كانوا مقيمين وغير مسافرين .

قلت : طبعا مقيمين . والى أين تريدهم ان يسافروا . انهم جاهزون لمقابلتك في أي وقت تشاء .

قال : عظيم ، هذا شيء مشجع . هل أستطيع مقابلة بدوي الجبل؟

قلت : انه في غيبوبة .

قال : زكريا تامر؟

قلت : ضغطه منخفض .

قال : حنا مينه؟

قلت : معه قرحة .

قال : حسيب كيّالي؟

قلت : معه فتاق .

قال : أخوه مواهب؟

قلت : مات .

قال وهو يكاد يبكي : يا إلهي ، وأنت أطرش وأعرج ، ما الذي فعل بكم كل هذا؟ من الذي أوصلكم الى هذه الحالة؟

قلت : الله والعروبة .

قال : وما الذي يبقيكم هنا . ماذا يربطكم بهذه الأرض؟
قلت : هذه الأرض . نحن لا نحبها كغيرنا بالمراسلة .
قال : هذا موقف مشرّف ولكنه رومانسي . فالأديب يجب أن يعيش تجارب جديدة ، ويتنفس هواءً جديداً ، ويبني علاقات جديدة . . ان يرى العالم كيف أصبح والتقدم الحضاري أين بلغ ، حتى يعيش عصره .
قلت : إننا نقرأ كل شيء في الصحف ونشاهد كل شيء في التلفزيون .
قال : هذا لا يكفي ، كأنك تقبل حبيبتك من خلال ورقة كربون . إن جسراً آلياً على نهر ، ناطحة سحاب في مدينة ، زورقاً في بحيرة أو اغفاءة قصيرة في الريف الانكليزي ، والصحف التي تحمل أنباء العالم وحوادثه مبعثرة تحت رأسك أو حول قدميك ، سوف تعيد لك الثقة بالحياة وبراءتها ، وتعيد لك حتى طفولتك المنقرضة ، بحيث تجعلك ككاتب ترضع من محبرتك قبل أن تكتب بها . ناهيك عن النظام والحضارة والموسيقا والثقافة وسواها .
قلت : ولكن الانسان عندكم مسحوق .
قال : مسحوق!! الانسان الذي تتوفر له كل الضمانات السياسية والثقافية والصحية والسكنية والموسيقية ، ناهيك عن حرية القول والتعبير ، انسان مسحوق؟! والانسان العربي في معظم أوطانه ومضاربه حيث يعاني من أزمة التغذية والثقافة والصحة والتعليم والسكن والمواصلات ، وفوق ذلك اذا قال "قيق" احتجاجاً على ذلك فان الذباب الأزرق لن يعرف أراضيه ، هو

إنسان غير مسحوق . أي منطق ثوري هذا؟ ان الانسان العربي ليس مسحوقاً فحسب بل أصبح بودرة وهو لا يدري .

قلت : وأنا أزدرد لعابي : بودرة؟

قال : نعم . ولاستخدامها فقط في تخفيف الالتهابات السياسية والدولية في المنطقة .

قلت : ولكن عندنا أيضاً غابات ومناظر طبيعية . . هناك مناظر في لبنان والجزائر مثلا كأنها جنة رضوان .

قال : أعرف ذلك ، عندكم غابات وأنهار ومعامل وامكانات . . ولكن المشكلة أنه لا شيء له علاقة بالآخر . فالشجرة لا علاقة لها بالبستان والبستان لا علاقة له بالفلاح ، والعامل لا علاقة له بالمصنع والمصنع لا علاقة له بالعمال ، والعمال لا علاقة لهم بالكتّاب والكتّاب لا علاقة لهم بشيء . كل واحد يدور ويدور حول نفسه كسكّير في عاصفة . بينما عندنا كل شيء متماسك ومترابط مع من حوله كحلقات الدرع . الصناعة امتداد للزراعة ، والزراعة امتداد للصناعة ، والصناعة امتداد للثقافة ، والثقافة امتداد للطب . . وهكذا حتى تصل الى الرقص والغناء والتزلج على الجليد .

وهنا قلت له متنهداً : أنا معك في كل ما قلت وأكثر . كل شيء عندكم جميل ومتناسق ، وأن البحتري وابن زيدون وعمر أبو ريشة لو ركبوا في باص واحد وتجولوا ولو ساعة واحدة في الريف الانكليزي مثلا فلن يستطيعوا وصف بهائه وشاعريته في سنوات . وانك والطائرة تحوم بك عند الغروب استعداداً للهبوط في مطار لندن ، تشعر بأن المطار هو امتداد للأفق ، والأفق امتداد لشكسبير ، وشكسبير امتداد للتايمز . ولكن والطائرة تقلع بك في طريق العودة عند الصباح ، تشعر وأنت

تتذكر ما رأيت وما سمعت وما دفعت بأن الأفق هو امتداد لمجلس العموم ، ومجلس العموم امتداد للمطار ، والمطار امتداد لشكسبير ، وشكسبير امتداد للجمارك ، والجمارك امتداد للتايمز . . وعندما تحلق بك الطائرة أكثر فأكثر في سماء هذا العالم العجيب بشرقه وغربه وتتذكر وأنت تنظر من نافذة الطائرة ، جبال البؤس البشري في اصقاع هذا العالم تشعر بأن التايمز امتداد للسين ، والسين امتداد للراين ، والراين امتداد للفولغا ، والفولغا امتداد للمسيسبي ، والمسيسبي فرع لوكالة المخابرات المركزية . فما الفائدة من أن تكون قادراً على كتابة أي شيء في هذا العالم ، ولست قادراً على تغيير أي شيء في هذا العالم .

* * *

بدويّ على ضفاف السّين

باريس باختصار ، نداء لكل فقراء وبؤساء العالم أن يظلوا حيث هم . . فهي من القوة الجمال والمناعة بحيث تشعر وكأن كل بلاطة في أرصفتها وكل زجاجة عطر في واجهاتها وكل هديل حمامة في غاباتها وكل سيف في قبضات تماثيلها ، تدفعك الى الدهشة ثم الحسد ، ثم الغيظ ثم الرحيل . كل شيء فيها : السياسة ، الدين ، الفن ، الاقتصاد يبدو حرا ومرنا كراقص الباليه ومتماسكا كحلقات السلاسل حول اقدام الأسرى .وفي لحظات الحصار الخانقة أمام مواكب الجمال اللامبالية ثمة ما يدفع الغريب فيها ويستفزه استفزازا كي يتحرش بالمارة ويعترض طريقهم مثل "الانسان الصرصار" في رواية دوستويفسكي الشهيرة للتخلص من وحدته ولفت الانتباه اليه . . وكثيرا ما كنت أتخيّل نفسي وأنا أعترض طوابير "الليدو" أو مواكب "الشانزيلزيه" وأصرخ : ولكن أنا من جبهة الرفض ، من دول المساندة وقضيتنا عادلة واسرائيل مخلب قط للاستعمار . ولكن أي رفض وأية مساندة وأية مواجهة يمكن أن تجديك أو تلفت الانتباه اليك وأنت تتزحلق طول اقامتك في شوارعها كما يتزحلق الصرصور في حوض الحمام .

ولكن بعد يومين أو ثلاثة من اقامتك فيها ينتابك احساس من نوع آخر . . إحساس انسان الكهوف ، عندما يخرج الى الغابة عند الفجر حيث يكتشف أن كل شيء أخضر ومضيء ، وان كل ما حوله يوحي بالدعة والطمأنينة ويدعوه للمشاركة في كل شيء ودخول كل الأبواب حتى أبواب الاليزيه .

برج ايفل يدعوه ويقول له تفضل وخذ لك صورة ذكرى .

نوتردام تدعوه وتقول تفضل وخذ لك ركعة أو قداسا .

والجمعية الوطنية تدعوه وتقول له تفضل وخذ لك درسا في الديموقراطية . .

والحي اللاتيني يدعوه ويقول له تفضل وخذ لك لوحة أو غانية .

والأحياء الشرقية تدعوه وتقول له تفضل وخذ لك مناقشة أو طعنة سكين .

والباستيل يدعوه ويقول له تفضل وخذ لك "فلقة" وتعلم كيف تكون الثورات .

نعم . . الباستيل الذي كان رمزا للظلم والاستفزاز طول قرون ، أصبح مجرد نصب وساحة يتنزه حولها الطلاب والعشاق والعمال والكتاب والشعراء والثوريون والفوضويون من كل أنحاء العالم . ويدوسون على أنقاض الظلم والارهاب مثلما يدوس العصفور على قشور البيضة التي خرج منها . وبالمناسبة ، هذا السجن الذي أدى سقوطه في يوم من الأيام الى تغيير وجه أوروبا والعالم ، عندما اقتحمه الثوار . . . لم يجدوا فيه سوى ثلاثة سجناء فقط بينما أصغر مسؤول في أي بلد في العالم الثالث يوجد في براد بيته أو خزانة ثيابه عشرة سجناء على الأقل .

ولكنك من جهة أخرى لا تستطيع الا أن تصرخ : ما هذا النابليون؟ لم يترك لوحة أوتمثالا أو خابية أو منفضة سجائر أو علبة عطور في كل أوروبا والبلدان الأخرى التي غزاها الا وشحنها وكومها في بلاده . حتى أن الذي يتجول في الجناح المصري في متحف اللوفر بردهاته وصالاته المزدحمة بالتماثيل والنقوش والعقود والأطواق واللآلىء والأقراط والصحون والملاعق والممالح الفرعونية يخيل له أن نابليون نهب كل تاريخ مصر ولم يترك لها سوى السادات . . بل أن أي شرقي ليشعر بالغيظ والمرارة وهو يرى الغزاة الفاتحين كيف نهبوا كل تاريخنا وكوّموه في بلادهم ، وكيف نحن الآن ننهب حاضرنا ومستقبلنا ونكوّمه أيضا في بلادهم .

وفجأة شعرت بالخوف وأنا أجرجر قدمي ذات مساء في ردهات "متحف الاسنان" حيث ترى بالصور والتواريخ والنماذج تطور الانسان والتبدل الذي طرأ على جمجمته وأسنانه وأطرافه ومخالبه منذ بدء التاريخ حتى الآن . كل نموذج معروض ، بأسنانه المكشرة أو رأسه الصلعاء في واجهة زجاجية أمام الزوار وطلاب المدارس والجامعات .

وقد لاحظت فور وصولي أن بعض عمال المتحف قد أخذوا يعدون واجهة زجاجية جديدة لجناح جديد . فقلت في نفسي وأنا أتراجع بحثا عن باب الخروج :ما الذي يمنع من أن يأتي أحد العلماء أو البروفيسورات ويلتقطني من ياقتي ويضعني في هذه الواجهة ثم يقلبني بالقفازات والملاقط أمام الزوار وطلاب المدارس والجامعات وهو يقول لهم : هذا الشيء الذي ترونه والذي يشبه الانسان ، كان لأجيال طويلة يظن أنه من فصيلة الثدييات والفقريات . ولكن تبين لنا ، نحن العلماء ، بعد المراقبة المستمرة والدراسة التقنية انه ينتمي الى فصيلة

الزواحف باعتبار أن الانسان العربي منذ فترات طويلة وهو يزحف على ركبتيه ويديه لينال لقمته وحريته .

وفي الحال مزقت القائمة التي تتضمن أسماء الأماكن التي لم أزرها بعد . وقلت : "بلا لوفر بلا سوربون ، ورأسا الى الفندق ، الى المطار ، الى الخطابات" .

* * *

ولكن وأنا في طريقي الى المطار ما إن رأيت أول شرطي مرور حتى أوقفت السيارة وطلبت من السائق أن ينتظرني قليلا اذ كنت قد علمت أن الشرطي في تلك البلاد كلما اقترب منه أحد المارة وسأله سؤالا يرفع يده ويؤدي له التحية ثم يجيبه على سؤاله . ولذلك تقدمت منه وسألته : أين طريق المطار؟ فرفع يده وأدى لي التحية وأجابني بكل رحابة صدر . ثم ابتعدت عنه قليلا وعدت اليه مرة أخرى وسألته : كم الساعة؟ فرفع يده وأدى لي التحية وأجابني . ثم أخذت أودعه وأعود اليه وأسأله تارةكم عنده من أولاد؟ وكم راتبه؟ وهو يجيبني بالتحية نفسها وبالترحيب نفسه حتى شعرت بأنني اكتفيت . فأسرعت الى السائق راضيا معتذرا فقال : ما قصتك أنت وهذا الشرطي ، لقد أرهقته؟ فقلت : القصة وما فيها ان الشرطي هنا كما ترى عندما تسأله سؤالا يرفع يده ويؤدي لك التحية ثم يجيبك على سؤالك . أما عندنا في الشرق فالشرطي لا يرفع يده الا للضرب ، ولذلك ، فعندي جوع تاريخي للاحترام والشعور بالانسانية ولذلك أخذت معي "زوادة" من هذه الأشياء لا أكثر ولا أقل .

* * *

عربي في هايد بارك

كنت دائما أتمنّع عن السفر ، وأعلن في كل مناسبة بأنني لن أسافر أبداً بعيداً عن شعبي ووطني وخاصة الى بلاد الاستعمار .

ولكن عندما جاءتني دعوة من بعض الأصدقاء لزيارة لندن كدت أنام في حقيبة السفر .

ولقد كانت رحلتي موفقة منذ بدايتها باستثناء شيء واحد . فما إن أقلعت بنا الطائرة وتمنى لنا قائدها رحلة سعيدة حتى دارت علينا احدى المضيفات وقدمت لنا نوعاً من السكاكر العجيبة ، قضيت طول الرحلة وأنا أعضها كاللجام دون أن أنال منها شيئا ، بل لقد وصلنا إلى حدود النمسا ومازال نصفها في فمي لا يذوب ولا يبلع ولا يمضغ ، الأمر الذي منعني من الحديث مع أي راكب آخر في شؤون الساعة . فمن المؤكد أنها سكاكر سياسية وتستعملها كل شركات الطيران العربية في الوقت الحاضر .

وكمعظم الذين يزورون بلداً أجنبياً ويجهلون لغته ، عانيت الأمرّين من هذه المشكلة في الجمارك والفنادق وسيارات التاكسي ، وخاصة مع أصحاب المطاعم . فقد كان هؤلاء يستقبلونني بحفاوة للمرة الأولى فقط ، وفي المرة الثانية كانوا يحاولون صرفي بشتى الطرق ، واغرائي بالذهاب الى مطعم آخر ولو على حسابهم . وهم معذورون في ذلك ،

لأنهم ليسوا مستعدين ، والزبائن فوق بعضها في مطاعمهم ، لفتح حوار عربي - أوروبي معي كلما أردت قليلاً من الملح أو مزيداً من الخبز .

وعندما انصرفت عن ارتياد المطاعم ، وحاولت اللجوء الى المعلبات والطعام المحفوظ ، فشلت فشلاً ذريعاً بسبب اللغة أيضا ، مع أن كل شيء واضح ومرقم ومسعّر ومرتب في قسم خاص في السوبرماركت ، ذلك أنني عندما قصدت أحد هذه المحلات ، تبين لي وأنا أسدد الحساب على الصندوق أن ما انتقيته من أطعمة معلبة كان من القسم الخاص بالكلاب المنزلية .

ومع ذلك لم أفقد أعصابي ، ولم أشعر بأي خجل أو حرج من مثل هذه المآزق ، وأنا أعتبرها تجارب جديدة أضيفها إلى تجاربي الأدبية والوطنية السابقة .

وفي صباح ذات يوم كنت في حديقة "الهايد بارك" مكباً على قاموس جيب وعدد من المطبوعات الفندقية لأجيد بعض المفردات التي تساعدني على اتمام زيارتي على خير . وهناك التقيتها : فتاة رائعة الجمال مستلقية بجسمها البض على عشب الحديقة الأخضر ، كانت هي تعمل "حمام شمس" وأنا أعمل "حمام لغة" . . .ومن القاموس الملقى إلى جانبها أدركت في الحال أنها هي الأخرى تدرس اللغة العربية بدون معلم .

ولما عرفت أنني قادم من البلاد التي تتعلم لغتها وتزمع زيارتها في المستقبل ، اتفقنا في الحال على أن نساعد بعضنا كل في مجاله ، فأفسحت لي مكانا بجانبها باسمة راجية أن احدثها عن البلاد التي تنوي زيارتها ، وفي الحال استلقيت إلى جوارها ، جسدياً ولغوياً ، ورحت أحدثها متنهداً :

"عندنا بلاد يعجز عن وصفها الشعراء والبلغاء .

أرض خصبة ، شمس دافئة ، طقس معتدل . ننتج كل أنواع الزهور والخضار والفواكه والحبوب والبقول والنشويات والبروتينات .

عندنا آبار بترول ، ومناجم فوسفات ، وغاز طبيعي وبوتاسيوم ومغنيزيوم .

وعندنا مدارس وجامعات ومختلف أنواع المعاهد والكليات .

وعندنا شركات استثمار ومقاولات ، وقاعات اجتماعات ،وسكرتيرون وسكرتيرات ، وآلات كاتبة وآلات حاسبة وآلات اختزال .

وعندنا آبار ارتوازية ، وجسور معلقة ، ومحطات اذاعة وتلفزيون ، ومحطات لتوليد الطاقة وتحلية مياه البحر .

وعندنا معاهد موسيقية وفنون شعبية وفرق رياضية .

وعندنا أدب ملتزم وأدب تعبيري وأدب واقعي ، وأحدث الأساليب الشعرية والقصصية والمسرحية .

وعندنا شواطىء من الياقوت واللؤلؤ والمرجان ، وأحدث أنواع السيارات والطيارات والدراجات والقداحات .

وعندنا فصول أربعة وقمر ونجوم وأوكسجين وهيدروجين . كما عندنا أعرق حضارة وأغنى تاريخ" .

ولم تصدق ما سمعت لو لم أؤكده لها مرات . ثم قالت متحمسة : هيا إلى الدرس . أنا أعلمك كلمة بلغتي ، وأنت تعلمني كلمة مماثلة بلغتك .

وبدأ الدرس :

بالانكليزي "سكاي"

بالعربي "سماء"
بالانكليزي "صن"
بالعربي "شمس"
بالانكليزي "مون"
بالعربي "قمر"
بالانكليزي "حرية"
بالعربي "حذاء"

ونظرت إليّ مستغربة ، فقلت لها : نعم ، ان لهما المعنى نفسه في البلاد العربية .

* * *

وجه عربي ومرآة انكليزية

بعد عدة ليال حافلة بالسهر والعربدة والأحلام في أجمل وأشهر ملاهي وبارات وشوارع لندن، سألني صديقي المقيم على ضفاف التايمز، وسيارته الفخمة تتهادى بنا تحت أجمل مطر انكليزي رأيته في حياتي: هل أعجبتك لندن؟

ج: جداً.

س: وهل ذهبت الى "الهايد بارك" وسمعت الناس تخطب بكل لغة وبكل حرية؟

ج: نعم. ذهبت وسمعت.

س: وهل تجولت في الشوارع ورأيت العشاق يقبّلون بعضهم علناً أمام المارة؟

ج: نعم. تجولت ورأيت.

س: وهل سافرت إلى الريف وتأملت خضرته الرائعة وسهوله المتناسقة ومياهه المتدفقة؟

ج: نعم. سافرت وتأملت.

س: وهل ذهبت الى دور السينما وشاهدت الأفلام الجنسية حيث الممثلون والممثلات يظهرون عراةً كما خلقهم الله؟

ج: نعم. شاهدت واحترق ديكي!

س : وهل فندقك مريح ، وطعامك جيد ، وطلباتك مؤمنة؟
ج : على أحسن مايرام .
س : إذاً متى تهز كتفيك وتكتب لنا شيئاً عن انطباعاتك؟
ج : لا أستطيع .
س : لماذا؟
ج : لأنني أخاف .
س : تخاف وأنت في عاصمة الحرية والديموقراطية في العالم . أنت في لندن يا رجل .
ج : في لندن . . في تعز . . أخاف . وفرائصي ترتعد من كل خطوة أو نظرة أو رنة هاتف . تأكد ان عندي في اعماقي "احتياطيا" من "الخوف" أكثر مما عند السعودية وفنزويلا من احتياطي "النفط" . ولذلك نحن تعساء هذا العالم نطالب بمنظمة مماثلة للأوبيك ترعى أمورنا وتصون حقوقنا .
س : انك تبالغ . وما رأيتك الا نهماً في المطاعم . . ضاحكا في البارات والمنتزهات .
ج : تأكد ان كل لقمة شهية أكلتها في مطعم خلال هذه الزيارة ، وكل ضحكة أطلقتها في بار ، أو صخب قمت به في نزهة ، ما هي إلا متع عابرة ومؤقتة كالقبل في البارات ، وكالعصافير على الأغصان .
س : هذا مرض قديم يجب أن تتخلص منه .
ج : مستحيل ، إنني كمن يحاول التخلص من معطف بسبعة أكمام .
س : ألهذه الدرجة؟
ج : وأكثر . تصور ، أنني توقفت اليوم أمام آلة عجيبة في أحد الشوارع

المكتظة بالمارة والسياح ، تضع قطعة نقود فيها وتكبس زراً فتطلع لك الصورة التي تشتهيها من مشاهير النجوم . ومضت ساعة وقطعة النقود في يدي لا أجرؤ على وضعها .

س : لماذا؟

ج : لأنني كنت أخشى أن تطلع لي بدل صورة مارلين مونرو أو جين مانسفيلد ، صورة عبد الحميد السراج .

س : هذا مرض . . وسواس . . جنون يجب أن تتخلص منه في الحال .

ج : ما هو؟

س : الخوف؟

ج : مستحيل . انه الشيء الوحيد الذي أملكه من المحيط الى الخليج ، ولا بديل له للآن ، لأن العربي دون خوف بالنسبة للعالم أجمع كالتركي دون طربوش . . كالانكليزي دون غليون . . كالسجين دون أحلام .

* * *

كرومويل في برميل نفط

بينما كنت أقضي ليلتي الأخيرة ، متسكعاً في شوارع لندن ، لفت نظري فارس من القرن السابع عشر فيه كل جلال الماضي وعظمة المستقبل . يتمنطق بسيفه ويستوقف المارة ويشير الى سيارات التاكسي ويستفهم من شرطة المرور ومكاتب الاستعلامات دون أن يأبه به أحد . فأشفقت عليه ورحت اتذكر في أي كتاب أو مقبرة رأيته من قبل؟؟ ولكنه بادرني على الفور وقال بغيظ وانفعال وعظمة : أنا الثائر الانكليزي الشهير "كرومويل" فقلت له : وما الذي أخرجك من قبرك في مثل هذا الطقس البارد الممطر؟ فأجابني وأنفه الشهير يرتجف غيظاً وانفعالاً : لم أكن أعلم أن الطقس الانكليزي متقلب كالجنيه الانكليزي لا يقرّ له قرار . في الصباح كان الطقس جميلا مشمسا فثار حنيني للخروج من الكلحة الابدية لرؤية النور وتفقد أحوال بلدي وشعبي بعد كل هذه السنين . وأول ما فكرت به هو الذهاب فوراً الى حدائق "هايد بارك" لأنعم بالماء والخضرة والشكل الحسن . ولكن ما إن وصلت الى هناك حتى فوجئت بمنظر امرأة محجبة لأول مرة في لندن . فمن تكون بالله عليك؟

فقلت : هذه امرأة خليجية .

فقال : ولماذا تضع على وجهها حجاباً جلدياً بقطعتين كالبكيني تماماً

فوق الفم والعينين؟

فقلت : هذا أحدث مايوه اسلامي لسباحة المرأة العربية في تيارات الحضارة الأوروبية .

وتابع قائلاً : وفي الهايد بارك راعني منظر العشرات من هؤلاء النسوة ومنظر أزواجهنّ وقد انبطحوا بكوفياتهم وجلابيبهم على العشب الندي وهم يفصفصون البزر ويلقون بأوراق السندوتش وعلب التبغ الفارغة كيفما اتفق . فاتصلت على الفور بمصلحة الحدائق البريطانية ، فأبلغوني أنه يسمح للمصطافين العرب بالاساءة للحدائق العامة والخاصة وبفصفصة البزر على كل شبر من الأراضي البريطانية إذا كان ذلك يخدم مصلحة الاقتصاد البريطاني .

وعندما هبط الليل تحرك حنيني للمسرح لروائع شكسبير وسوفيكس وموليير . فقصدت مسرحي المفضل "تياتروروبال" فهو مسرح انكليزي عريق قدم اعظم الأعمال الكلاسيكية والمدنية الراقية مثل هملت وأوكلاهوما ، وماي فيرليدي ، وكاميلوت . ولكن ما إن اقتربت من شباك التذاكر حتى سمعت أغنية من الداخل لم أفهم منها كلمة : ع الندا الندا الندا وما أحلى البوسة على خدا . وأصوات تعتعها السكر تصرخ بإلحاح : هوي هوي . فاتصلت على الفور بمصلحة الارصاد الجوية للاستفسار عن هذا التعبير العجيب . فأبلغني بأنه تعبير سياحي عربي يستعمل في فصل الصيف ، وسوف يسمح باستخدام الكلمة في جميع المسارح البريطانية وحتى في جامعة كمبردج إذا كانت تخدم مصلحة الاقتصاد البريطاني . فأسقط في يدي ، ورحت أشد عنقي من شبابيك المسرح من شدة الزحام لأرى ما يجري . وقد دهشت من منظر راقصة تتلوى أمام الزبائن وكأن في بطنها

خمسة توائم على وشك الوضع ومع ذلك يتسابق السكارى بوضع مئات الجنيهات في صدرها وعلى مؤخرتها وعلى ساقيها . فما الغاية من هذا التصرف؟

فقلت له : بسبب أزمة الشرق الأوسط بين الأمة العربية واسرائيل ، هناك التزام عربي شامل من دول النفط يقضي بتقديم كل عون ممكن لدول المواجهة . وأثرياء النفط العربي يقومون بالتزاماتهم هذه يومياً في جميع عواصم أوروبا . ولكن بسبب كثرة أعمالهم ومشاغلهم ، فبدلاً من أن يقدموا الدعم إلى دول المواجهة يقدمونه إلى "راقصات المواجهة" .

فقاطعني قائلاً : دعني منكم ومن بلادكم فهذا شيء لا يعنيني . المهم بعد أن فشلت في قضاء سهرة ممتعة في أي مسرح أو سينما ذهبت الى إحدى المكتبات المختنقة بروائع شكسبير لأقرأ في الكتب ما عجزت عن مشاهدته على المسرح .ولكني وجدت المكتبة مغلقة وأحد المصطافين يرفع جلبابه ويفك دكة سرواله ويتبول علناً على جدار المكتبة وهو يتحدث الى زميل له عن احدى الغواني . فطار صوابي واتصلت على الفور بوزارة الثقافة البريطانية أشكو لهم هذه السابقة الخطيرة . فأبلغوني أنه يسمح للمصطافين العرب بالتبول في أي شارع من شوارع المملكة وعلى أية مكتبة وأي مذهب أدبي أو فني طول فترة الصيف إذا كان ذلك يخدم مصلحة الاقتصاد البريطاني .

وعندما درست كل هذه الأجوبة المتناسقة والعجيبة لم أجد بداً من العودة الى قبري . ولكن هل وجدت "تاكسي" يقبل ذلك ، كلهم مشغولون وغادون رائحون بالمصطافين العرب . . وعندما جعت لم أجد

مـائدة واحـدة فـارغـة في كل مطاعم وبارات لنـدن ، كلهـا مـحـجـوزة للمـصطافين العـرب . . وعندمـا نعـست لم أجـد في كل أنحـاء لـندن سريراً فارغاً لأن كل الغرف محجوزة للمصطافين العرب .

ورحت اعدو متمنطقاً بسيفي كما رأيتني وأصرخ : أنا كرومويل ابن بريطانيـا الأول فـاتح الطريق أمـام شكسـبـيـروبرنارد شـو وبايرون وتشرشل وتشمبرلين وإيدن وكالاهان والذي شُقَّ طريق باسمه ودُرِّست قصته في الكتب والجامعات والأكاديميات ، لا أجد مكاناً أنام فيه بسبب المصطافين العرب وأموال النفط . لن أقبل هذا ابداً .

وفي الصباح وجد كرومويل نائماً في أحد براميل النفط الفارغة المهملة في شارع كرومويل نفسه .

* * *

انطباعات عربي في لندن

ما إن رجعت إلى أرض الوطن ، حتى استقبلتني الكوليرا في المطار وزوجتي في البيت . وفي الحال تدفقت الأسئلة منها ومن الجيران الذين توافدوا للترحيب بي بالقباقيب والشحاطات : هات حدثنا عن مغامراتك في بلد الجنس والحرية والضباب . في صوفر أوروبا وبحمدون الأطلنطي . . . في لندن!!

وما كان أسهل علي من أن أجيب على أسئلتهم كما يجيب عادةً أي كاتب عربي مغرور يسافر الى الخارج : تركت كذا من النساء المولهات على درج الفندق وكذا من القاصرات المغتصبات في المصحات والمستشفيات . وكذا من المعجبين والمعجبات على المحفات والنقالات في أرض المطار نتيجة لسفري المفاجىء . ولكنني لا أستطيع إلا أن أكون صادقاً كالموت في الوطن وفي المنفى .

فطول اقامتي هناك ، لم أكوّن صداقةً . ولم اكتسب معجباً ، ولم أحادث من النساء إلا خادمات المطاعم والمقاهي تشبيراً بالأيدي حول ما أريد وما لا أريد . وقد عدت ومعي حقيبة من الثياب ، وثلاث حقائب من التنهدات .

١/ ان أي عربي يزور أوروبا لأول مرة ، لابد أن يجري في الحال مقارنة سريعة بين مظاهر الحياة في الوطن العربي ومثيلتها في البلد

الذي يزور، وخاصة ما يتعلق منها بالأمن والحرية الشخصية . ففي لندن مثلاً قد يكون المواطن مراقبا كالصوص في الحاضنة الزجاجية ، ولكنه لا يشعر بذلك اطلاقاً . وكل من يدب على الأرض البريطانية هو في حل من اثبات شخصيته لأحد . . ولذلك قد يولد ويموت دون أن يوقفه أحد ويسأله عن هويته . أما في الوطن العربي فاذا اضطر المواطن للنزول الى السمان لشراء لوح صابون أو كيلو ملح ، أو إذا أراد أن يسهر عند جيرانه في الطابق الثاني فعليه أن يحمل "احتياطا" جواز سفره وهويته ودفتر الخدمة ودفتر العائلة ودفتر السمان الذي يستدين من عنده في حارته ليثبت شخصيته وعروبته .

٢/ منذ أن ينام الزائر على أول وسادة انكليزية ويستقبل أول صباح انكليزي يلمس في الحال ان النظام هو "تايمز" آخر يجري في عروق المواطنين . فالواحد تراه ينام في ساعة معينة ، ويستيقظ في ساعة معينة . يأكل في ساعة معينة ويهضم ما أكله في ساعة معينة ، حتى عندما تدركه المنية فتراه مطمئناً إلى أنه سيموت في ساعة معينة وحسب توقيت بيج بن .

وعواطفه تجاه الآخرين كمظلته لا يفتحها إلا عند الضرورة . ولذلك قد يتجاهلك ولا يأبه لك إذا كنت غريباً ضالاً تبحث عن عنوان فندق أو مسرح أو مستشفى . فلا يعنيه كثيرا نعاسك أو تثاقلك أو مرضك ، ولكن إذا ما سألته عن عنوان كازينو للمقامرة ، فيكاد تشارلز ديكنز نفسه يخرج من قبره ليرشدك اليه ويدلك على مكان الفيش فيه ، وخاصة إذا ما عرف انك عربي قادم من بلاد المال والجمال .

٣/ ولارتياد كازينوهات القمار البريطانية أنظمة وقوانين لا يناقش

فيها شكسبير نفسه لدقتها وصرامتها وخاصة ما يتعلق بسقف المراهنات والقيافة والهندام ، وخاصة ربطة العنق ، باستثناء الزبائن العرب فعندما قصدت أحد هذه الكازينوهات ذات ليلة للاطلاع وأخذ العلم استقبلوني بدون ربطة عنق ، بل كادوا يسمحون لي بالدخول حتى دون أحذية وجوارب لمجرد أنني عربي من تلك البلاد التي يرن اسمها في ذاكرتهم وجيوبهم .

كانت صالة اللعب غاصّة بروادها ، وتتمثل فيها جميع اللهجات العربية حتى لتبدو وكأنها أحد فروع الجامعة العربية ، ومن غريب المصادفات أن مدير الصالة وموزع الفيش يشبه محمود رياض الى حدّ بعيد . غابة من سحب الدخان الفاخر تنعقد في الجو . . وعلى الموائد الخضراء غابة أخرى من الساعات السويسرية والثياب الاميركية والويسكي الاسكتلندية ، والمازوات الايطالية ، والأموال العربية مكدسةً بالآلاف والملايين تغيب من أمامه في لحظات ليعود أضعافها أمامه في لحظات . ولما كنت لا أحمل في محفظتي وجيوبي سوى السمعة الطيبة والقيم العربية النبيلة ، فقد لبثت واقفاً اتفرج من بعيد ، وأدقق في وجوه اللاعبين واصابعهم وعيونهم . في الساعات الذهبية والخواتم الذهبية والأزرار الذهبية والقداحات الذهبية ، وخاصة قداحات ديبون الشهيرة والتي احترمها بشكل خاص . وكان لاعب خليجي يحمل قداحة ديبون ويلبس ربطة عنق ديبون وأمامه حمالة مفاتيح ديبون ، حتى خطر لي ان هذا الانسان شواربه ديبون وأسنانه ديبون .

كان معظم الزبائن العرب من مختلف الجنسيات يخسرون بالمئات والآلاف في جميع الألعاب وعلى مختلف الموائد باستثناء اثرياء النفط . كانوا يربحون في جميع الألعاب وعلى جميع الموائد ، لأنهم ما

كانوا يراهنون إلا على الرقم (٦) . انه رقم عادي مثله مثل بقية الأرقام الأخرى في لعبة "الروليت" ولا يلفت انتباه أحد بشكل خاص . أما أنا فقد لفت انتباهي وعنقي وتاريخي . لقد تذكرت على الفور (٦ تشرين) . ولذلك لم أعد أرى في كرة الحظ الصغيرة التي تدور في قرص الروليت من رقم إلى رقم إلاّ جمجمة أحد شهداء تشرين ، جمجمة غسان كنفاني أو كمال ناصر تدور وتدور أمام أعين اللاعبين لتستقر في النهاية على الرقم الرابح أمام أثرياء النفط .

* * *

الضباب والتنورة

ما من زميل في حرفة الأدب استوقفني في الطريق ليهنئني بسلامة العودة بعد انتهاء زيارتي الى لندن ، إلا وسألني حالما مغمض العينين كيف الضباب في لندن؟ "وكأن وجود ضباب كثيف في المدن واصطدام رؤوس المواطنين ببعضها في شوارعها شرط ضروري لانتاج أدبي عظيم" .

وكنت أجيب على هذه الأسئلة مغمغمةً وتهرّباً : إنه طبعاً مريح وجميل وشاعري ، وهو في المدن أقل منه في الأرياف ، أو أنه في الأرياف أقل منه في المدن . ولكنني عندما طفح بي الكيل من هذه الأسئلة ، صرخت في وجوه طارحيها : كفاكم سخفاً . لا يوجد ضباب في لندن أو باريس أو موسكو كل شيء هناك واضح وضوح الشمس . ولا يوجد ضباب في العالم إلا عندنا نحن العرب . وإذا كنتم تقصدون بالضباب تلك الأبخرة والغيوم الشتائية المنخفضة التي تغطي المدن والأرياف والجبال ، والتي تعوق الرؤية أمام الملاحين والسائقين فهو موجود ، أما إذا كنتم تقصدون الضباب السياسي ، فإن الوطن العربي فيه ضباب أكثر من فنلنده .

فما الشيء الواضح عندنا نحن العرب وأسحب كل أقوالي؟

هل موقفنا من الدين من الوحدة من العروبة واضح؟

هل موقفنا من الماضي والحاضر والمستقبل واضح؟
هل موقفنا من الاشتراكية من الرأسمالية واضح؟
هل موقفنا من الحرية من الديكتاتورية من الحياة البرلمانية واضح؟
هل موقفنا من جنوب لبنان من جنوب البحر الأحمر، وغرب البحر الأبيض واضح؟
هل موقفنا من روسيا من أميركا من الصين واضح؟
هل موقفنا من بعضنا البعض من مؤتمر جنيف واضح؟
وهل أخيراً موقفنا من حقوق الشعب الفلسطيني واضح؟ وهي التي أصبحت بالرغم من مئات المقالات والخطابات والمقابلات التي تؤيدها وتوضحها أكثر غموضاً من حقوق الشعب الأرمني .

فلماذا إذاً تسألون عن الضباب في لندن أو سواها . وأية وزارة خارجية عربية ولو في رأس الخيمة تحتاج إلى ساحر هندي يقف على بابها ليفسر اتجاهاتها وما بين السطور في مذكراتها . بل أن أي حاجب أو موزع بريد في دوائرها هو أكثر غموضاً وابهاماً من رينيه شار وأندريه بريتوني .

عندما كنت في لندن قرأت خبراً طريفاً في احدى الصحف العربية الصادرة هناك، وهو أن سكيراً انكليزياً كان يتسكع في أحد الشوارع برماً بهذه الحياة، عندما مر به جندي اسكتلندي يختال بتنورته التقليدية . فهجم عليه ليرفع تنورته بأية طريقة أمام المارة فما كان من الاسكتلندي الا أن شهر سيفه وبتر له يده . وعندما سئل السكير أمام القضاة عن سبب تصرفه هذا قال : أريد أن أعرف فقط ماذا يوجد تحت هذه التنورة؟ واعتقد أن أي مواطن عربي يتمنى من أعماق قلبه أن يرفع تنورة السياسة العربية أمام العالم أجمع ليرى ما تحتها .

الفندق الكبير

من قبل ، وفي مثل هذه الليالي المظلمة والغامضة كعيون البدو وأنا أتأبط كتبي ودفاتري ، وأهيم في الشوارع والساحات ، كان مجرد سماع أغنية لشادية من راديو الجيران أو موّال يدندن به عامل محدودب فوق دراجته ، يجعل قلمي يرقص كالهندي الأحمر أمام نيران الحرب ، والكلمات تتدفق وتسيل على صفحاتي كجداول المنحدرات الجبلية .

والآن ، وكل طبول بتهوفن وصنوج فاغنر وذئاب سترافنسكي المكشرة عن أوتارها تدوي وتعوي في غرفتي . ورغم أنباء القتل والتدمير والخراب والاضطراب التي تعم المنطقة : ومع ذلك . . . لا حرف ، لا كلمة . . كل شيء خاو بليد متثائب .

الكاتب يكتب وهو يتثاءب . والقارىء يقرأ وهو يتثاءب .

المعلم يلقي دروسه وهو يتثاءب . والتلميذ يصغي وهو يتثاءب .

اللص يهرب وهو يتثاءب . والحارس يصفّر له وهو يتثاءب .

الجلاد يجلد سجينه وهو يتثاءب . والسجين يتلقى السياط وهو يتثاءب .

القائد يرسم خططه وهو يتثاءب . والشهيد يستشهد وهو يتثاءب .

حتى الطفل ينزل من بطن أمه وهو يتثاءب .

وحتى الديك في الوطن العربي صار يصيح معلنا عن بدء نهار جديد وهو يتثاءب .

وفي وسط هذا الفم المفتوح من المحيط الى الخليج . . مؤتمرات ومفاوضات وتبادل تهم وادّعاء بطولات . وعلى ماذا؟ وموقف أكثر الأطراف صدقا على الساحة العربية وأشدُّهم حرصا واخلاصا لفلسطين وشعب فلسطين ، لا يختلف عن موقف من اقتحم اللصوص بيته فسمح لهم بالمدخل ، ثم بغرفة الضيوف ، ثم بغرفة النوم ، فالحمام ، فالمطبخ ، فالحديقة ، فالسور الخارجي ، فالشارع . . ثم راح يقيم الدنيا ويقعدها من أجل مناشر الغسيل على السطح ، أو هوائي التلفاز ، أو حقه بالمرور في الحارة ساعة يشاء ، ويوقظ الجيران ويجمع عليه المارة ليشهدوا على بطولته وعدم تنازله عن هذه الحقوق التاريخية ، أي لكي يتذكروا الفروع وينسوا الجذور .

لا أيها السيدات والسادة ، فـفلسطين ليست لعبة يمكن فكها وتركيبها حسب مزاج هذا ومصلحة ذاك . انها أطواق الخرز حول أعناقنا ، وخطوط الشيب في رؤوسنا . الغصن الأخضر في كل صباح ، والاطار الأسود في كل بيت . ولذلك لن أنسى ولن أتذكر ولن أسكت ولن أتكلم ، ولن أقيم ولن أسافر ، ولن اتفاءل ولن اتشاءم . وسأظل لغزاً محيراً كاهرامات مصر ، كحدائق بابل المعلقة ، متكئا بقلمي ودفاتري كالقنّاص على سطوح الفقراء والمضطهدين من المحيط الى الخليج . ولن أترك منظّرا يهنأ بمناقشة ، أو عائلة بمسلسل ، أو زعيما بخطاب ، أو سفيرا بمفاوضات ، أو تاجرا بصفقة ، أو ثريا بروليت ، أو عاشقا بقبلة ، أو عميلا بشيك ، أو مطربا بموّال . . حتى ينغلق هذا الفم المفتوح من المحيط الى الخليج على كل ما فيه ما عدا فلسطين ، وسننتصر وليس ذلك بمعجزة :

فكل ما يحتاجه الأمر هو التصميم .

والتصميم يحتاج إلى هدف .
والهدف الى ايمان .
والايمان الى ارادة .
والارادة الى تخطيط .
والتخطيط الى وعي .
والوعي الى فكر .
والفكر الى حوار .
والحوار الى حرية .
عفواً : لقد أخطأنا ، لنعد من تحت الى فوق . . .
كل ما يحتاجه الأمر هو الحوار .
والحوار يحتاج الى فكر .
والفكر الى وعي .
والوعي الى تخطيط .
والتخطيط الى ارادة .
والارادة الى إيمان .
والايمان الى هدف .
والهدف الى تصميم .
والتصميم الى تنفيذ .
والتنفيذ الى شعب .
والشعب الى ثقافة .
والثقافة الى ابداع .
والابداع الى . . . حرية .
عفواً : رجعنا نخربط .

بصراحة ، من فوق الى تحت .

ومن تحت الى فوق .

ومن اليمين الى اليسار .

ومن اليسار الى اليمين ، من دون حرية لا يمكننا الانتصار حتى على دودة القطن .

فعودوا الى تمددكم وتثاؤبكم في المقاهي وأمام عتبات البيوت ، وعلى مسؤوليتي . فالعربي الذي لا يجرؤ من الذل والخوف على رفع رأسه لرؤية القمر ، كيف سينتصر على غزاة القمر؟

ثم يا إلهي ، كل الأوطان تنام وتنام ، وفي اللحظة الحاسمة تستيقظ ، الا الوطن العربي فيستيقظ ويستيقظ ، وفي اللحظة الحاسمة ينام .

* * *

عروض أولى

واحدنا يتوجه الى عمله في الصباح ، حليق الذقن ، مسرّح الشعر ، أنيق الثياب ، يبتسم لهذا ويلوح لذاك ، ولكن وفيما هو ينحني لالتقاط صحيفته اليومية ، أو يهمّ بركوب السيارة ، يشعر فجأة بنخرة في خاصرته أو وهن طفيف في ساقه يزول قبل أن ينتبه له ليتابع طريقه مرحا سعيدا لا يبالي بشيء .

وإذا ما عاودته هذه الأعراض مرة أخرى ، يحتاط لها بالدفء والنوم المبكر والمسكّنات العادية ، على أساس أنها مجرد لفحة برد أو بسبب السهر والإرهاق في العمل . ولكن عندما تعاوده أكثر من مرّة في اليوم ، وفي أكثر من مكان في مفاصله ويفقد معها السيطرة الكاملة على أطرافه كأن يريد الانعطاف في سيره نحو اليمين فتذهب قدماه الى اليسار ، أو بينما يحاول التقدّم يتراجع ، ويبدأ بالدوران على نفسه الى أن ينتهي محدودبا على عكازين ، وقدماه تلوحان بينهما كرقّاص الساعة فيَذْلهم وجهه ويمتقع لونه ويسرع محمولا الى الطبيب المختص . وما إن ينتهي هذا من معاينته سريرياً ومخبرياً ، ومن مطالعة صوره الشعاعية حتى يربّت على كتفه بأسى ويقول له مقطباً : "آسف معك في الأساس خلع ولادة" .

وما ينطبق على الأفراد ينطبق في كثير من الأحوال على معظم

عروض أولى

واحدنا يتوجه الى عمله في الصباح ، حليق الذقن ، مسرّح الشعر ، أنيق الثياب ، يبتسم لهذا ويلوح لذاك ، ولكن وفيما هو ينحني لالتقاط صحيفته اليومية ، أو يهمّ بركوب السيارة ، يشعر فجأة بنخرة في خاصرته أو وهن طفيف في ساقه يزول قبل أن ينتبه له ليتابع طريقه مرحا سعيدا لا يبالي بشيء .

وإذا ما عاودته هذه الأعراض مرة أخرى ، يحتاط لها بالدفء والنوم المبكر والمسكّنات العادية ، على أساس أنها مجرد لفحة برد أو بسبب السهر والإرهاق في العمل . ولكن عندما تعاوده أكثر من مرّة في اليوم ، وفي أكثر من مكان في مفاصله ويفقد معها السيطرة الكاملة على أطرافه كأن يريد الانعطاف في سيره نحو اليمين فتذهب قدماه الى اليسار ، أو بينما يحاول التقدّم يتراجع ، ويبدأ بالدوران على نفسه الى أن ينتهي محدودبا على عكازين ، وقدماه تلوحان بينهما كرقّاص الساعة فيَذْلهم وجهه ويمتقع لونه ويسرع محمولا الى الطبيب المختص . وما إن ينتهي هذا من معاينته سريرياً ومخبرياً ، ومن مطالعة صوره الشعاعية حتى يربّت على كتفه بأسى ويقول له مقطباً : "آسف معك في الأساس خلع ولادة" .

وما ينطبق على الأفراد ينطبق في كثير من الأحوال على معظم

بلدان العالم الثالث . فبينما تكون هذه الدولة أو تلك على أحسن ما يرام داخليا وخارجيا ، وفيما تبدو موفورة الصحة ، مفتولة العضلات ، "واثقة الخطوة تمشي ملكاً نحو مؤتمراتها ، وأهدافها ، ومخططاتها السياسية والاقتصادية والعمرانية تشعر فجأة بنخرة في هذه القرية أو ارتعاشة طفيفة في تلك المقاطعة فلا تأبه لها ولا تعيرها اهتماماً ، على أساس أنها مجرّد لفحة تآمر عابرة سرعان ما تزول قبل أن تتنبه لها . واذا عاودتها تلك الأعراض ثانيةً تحتاط لها بالمسكنات التي أصبحت تقليدية في العالم الثالث ، كصرف المكافآت ، وسفلتة الشوارع ، وضبط الدوام ، وتغيير فرش المكاتب ، وطلاء الواجهات الرسمية باللون المشرق الجميل . ثم تتابع حياتها العادية مرحة سعيدة لا تبالي بشيء .

ولكن فجأةً وبدون توقّع تشعر بوهن في اداراتها وتسرّع في قراراتها وغثيان في إعلامها ونزيف في طاقاتها وترنح في خطواتها كأن تريد الانعطاف الى اليسار فتذهب أقدامها الى اليمين . تحاول التقدّم فتتراجع ، أو الصعود الى أعلى فتتزحلق الى أسفل . ثم تبدأ بالدوران على نفسها الى أن تنتهي منطرحة على الأرض لا تقوى على النهوض فيذلّهم وجهها ويمتقع لونها وتسرع محمولة الى الطبيب المختص . وما إن ينتهي من فحصها سريرياً ومخبرياً ومن مطالعة صورها الشعاعية حتى يربّت على كتفها وأجهزة إعلامها وأمنها وأرقام ميزانيتها وتقارير سفاراتها ويقول لها مقطباً : "آسف هناك في الأساس خلع مبادىء . . . خلع شعارات" .

في منتصف الخمسينيات من هذا القرن وفي سنة ١٩٥٥ ، بالذات . . . تلك السنة التي لا تذكرني إلا بعيني البومة . . كان الوطن العربي في طفولته ، والاستقلال في طفولته ، والجماهير في طفولتها ،

والأحزاب في طفولتها ، والاستقلال في طفولته ، والجماهير في طفولتها ، والأحزاب في طفولتها ، واسرائيل في طفولتها . ولربما في تلك الفترة قررت مؤسسة "شيكو" لألعاب ولوازم الأطفال افتتاح أول فروعها في المنطقة لأن كل الدلائل كانت تشير الى أن ساحتها ستشهد الكثير من اللعب والقفز واللهو بالشعوب والأوطان والمقدرات . كان الذي ينادي أو يهمس مجرّد همس من المحيط الى الخليج بأي شكل من أشكال الوحدة بين أي بلدين متجاورين لا يفصل بينهما جبل أو هضبة أو نهر أو حتى ساقية . . . هو متآمر على العرب والعروبة ، وعميل خطير للاستعمار وأعوان الاستعمار . . . وفوق ذلك خيالي أكثر من بوشكين .

أما الذي يرفض إقامة أي شكل من أشكال الوحدة إلا بين بلدين تفصل بينهما الجبال والوهاد والتلال والبحار والأنهار ناهيك عن مئات اللهجات المنقرضة ، والطباع المتنافرة فهو وحدوي أصيل ومناضل عنيد وعدو لدود للاستعمار وأعوان الاستعمار . وفوق ذلك واقعي أكثر من غوركي . وعندما انتظمت جميع الأطراف ومن معها من مفكرين ومنظّرين وطلاب ومدرّسين وعمال وفلاحين وكُتّاب وشعراء وفنانين حول طاولة تمتد من المحيط الى الخليج وأمامهم حججهم وقرائنهم ومستنداتهم لبدء الحوار . . . برز لهم هيرتزل الحركة العربية المعاصرة : السوط .

ومنذ ذلك التاريخ صار خط الكفاح العربي لتحقيق أهداف الجماهير وشعاراتها ، كذلك الخط الذي رسمه أحد نزلاء مستشفى المجانين على أحد الجدران الاسمنتية الصلبة وطلب من زملائه أن يقفزوا من فوقه .

لاأذكر كل التفاصيل الجانبية عن تلك المرحلة التي عانى ولايزال يعاني منها الكثيرون في الوطن العربي ، وكل ما أذكره أنني خرجت من سجون الوحدة وأنا أحاول المستحيل لتحقيق أي شكل من أشكال الوحدة الكونفدرالية أو الاندماجية بين فكي العلوي وفكي السفلي . ومنذ تلك الأيام وأنا أكتب وأمشي مفتوح الفم كالأهبل تجاه كل ما يجري .

وما أذكره أيضا أنني من بين أرجل المحققين وقضبان سجونهم المتشابكة في تلك المرحلة كنت أرى سماء المستقبل العربي من بعيد . . . زرقاء زرقاء كعيني تاتشر وريغان . وما زلت أعتقد أنه عندما هبط السادات في القدس ، وبيغن في مصر وشارون في لبنان ، لم يترجّلوا من طائرة هليكوبتر ، بل من فوهة مسدس السرّاج وصلاح نصر والجنرال أو فقير وغيرهم .

ولذلك ، حتى لو امتلك العرب كل أسلحة العالم وسيطروا على كل ثرواته ، وضمنوا كل أصواته وقراراته ، فلن يعرفوا طعم النصر . وسيظل الوطن العربي يشعر بنخزة في خاصرته وغصّة في حلقه ، وبالشلل في أطرافه ما لم يرتفع صوت الوحدة من المحيط الى الخليج فوق أي صوت آخر ، ووحدة الجذور قبل وحدة الأغصان .

وبدونه سيظلّ العرب سخريةَ العالم كمن يلعب كرة القدم بيديه وكرة السلّة بقدميه .

* * *

الظهر الى الجدار والجدار الى أين؟

بعد أن استعصى عليّ الدفء في البيت والمقهى ، رفعت ياقة معطفي ودفنت يدي في جيوبي اتقاء للريح ، وقررت قضاء ما تبقّى من يومي في ساحة المعركة مع شعار "برد العرب للعرب" .

وبين ضجيج السيارات وزحام المارة التقيته على غير توقّع ، قطاً منزلياً وجيهاً ، تضاءل حجمه واتسخ وبره وتباطأت خطواته . ولّما كان معروفاً لدي بالشهامة والكبرياء وعزة النفس ، استغربت وجوده مختبئاً في أحد صناديق القمامة . ولما اقتربت منه مستوضحاً ، قال وهو يدفن وجهه بين قائمتيه الأماميتين :

ـ ابتعد عني أرجوك ، إنني مُراقَبْ .

ـ ممن . . .؟

ـ من الفئران .

واعفني من التفاصيل خوفاً من ضربة مكنسة ، أو عظمة كاتمة للمواء ، ودعنا في العموميات ، لأن مشكلتي عامة لا ترتبط بزمان معيّن أو مطبخ معيّن . وكل ما في الأمر أنني كقط أينما سرت ،وأنّى قفزت في هذا الوطن العربي الكريم ، أرى الدموع تتلألأ في كل مكان . . وأشم رائحة الدم في كل زاوية ، دم أحمر كغروب الشمس ينتقل خلسة وتحت جنح الظلام من صدر المُرضعة ، وجهد التلميذ ،

وعرق الفلاح ، وغربة الشاعر ، وكبرياء المناضل الى كأس الراقصة ، وحذاء الأمّي والجاهل والمتبطل .

ثم لم تعد هناك حشمة في لباس ، أو طرافة في حديث ، أو دسم في طعام ، أو أريحية في مطعم . لقد كان الفقراء يحبوننا نحن القطط ، كما يحبون المطر والدفء والحنان ، ننتقل من أريكة الى أريكة ، ومن صحن الى صحن ، يشاركوننا طعامهم وشرابهم وفراشهم مثل أطفالهم تماما .

أما الآن ، فقد باتوا يضيقون ذرعاً حتى بأطفالهم . وكان القصّابون يعاملونني بكل مهابة واحترام . يفتقدونني إذا غبت ، ويهللون لي من بعيد اذا أقبلت ، ولم يكن ينقصهم الا أن يقدّموا لي كرسياً على باب الدكان لأجلس وأستريح من عناء المشوار ، كما لو كنت واحداً من أبناء حارتهم . أما الآن ، فما إن أُطلّ على سوق اللحامين حتى يستقبلونني بالحجارة والشتائم الى أن تدمى كرامتي قبل عظامي . وأنا كقط اذا لم أذهب الى سوق اللحامين فالى أين أذهب؟ الى سوق عكاظ!

ثم أنا أفهم أن تحدث في أية أمة من الأمم ، وفي أي مرحلة من المراحل ، أزمة خبز ، أزمة سكر ، أزمة طاقة ، أما أن تحدث أزمة وفاء فهذا ما لا أفهمه ، ولا أريد أن أفهمه .

يمر بي صغاري وأحفادي في الطريق وجهاً لوجه وذيلا لذيل ، فيديرون وجوههم عني ، لا يبالون بي وبمصيري . وأنا لم تعد لي طاقة على الجدل والمناقشة والعتاب ، وخاصة مع هذا الجيل . لقد تغيّرت الأفكار والأوكار كثيراً في هذه الأيام . ولذلك كلما سمعت أغنية "ذكريات" لأم كلثوم أو "سنرجع يوماً" لفيروز ، تنبعث من أحد المقاهي أو المطاعم في آخر الليل ، أتسلل تحت الموائد وأسمعها باكياً وأنا

مختبىء بين أرجل الزبائن . لا تلوِ شفتيك استهجاناً ، فهذا هو الطرب الحقيقي ، فمن تريدني أن أسمع إذاً؟ وليد توفيق؟ أحمد عدوية؟ أنا أغني أحسن منهما .

لا يا صديقي أنا لست رجعياً متزمتاً أعيش في الماضي كما يتبادر الى ذهنك . فأنا كقط طليعي ، أعشق كل جديد ومتطور ، وأواكب الحركة السياسية والثقافية على الساحة العربية يوماً بيوم ، وساعة بساعة . ولقد حزنت أشد الحزن على خليل حاوي ، ومن قبله على كمال خير بك ، وغسان كنفاني ، وتألمت أشد الألم لما أصاب فيروز والأخوين رحباني ، بحق السماء ماذا حلّ بهذه القمم الأدبية والفنية يا صديقي؟

ـ ليس المهم الآن القمم الأدبية أو الفكرية . المهم الآن قمة فاس .

ـ لا تقاطعني أرجوك ، ثم لست سوداوياً أو مترفعاً عن مباهج الدنيا ومسرّاتها ، فما زلت أحنّ الى الدفء المنزلي ، وأعشق المرح والقفز وراء الأطفال ، وأتمنى من أعماق قلبي أن أشتري جرساً صغيراً في كل عيد ، وذنباً جديداً في كل مرحلة . ولكن من أين لي ذلك؟ من ميزانية "أوبيك"؟

انني بردان يا صديقي : دثّرني بمحرمة ، بطرف معطفك ، كأن في عظامي صقيعاً أبدياً .

اطعمني ، كأن في معدتي جوعاً أبدياً .

احمني ، كأن في مخالبي هزيمة أبدية .

ـ ولكنني ما عهدتك خائفاً مرتبكاً مذعوراً هكذا من قبل ، ما القصة يا صديقي؟

ـ القصة يا صديقي ، يبدو لي أن مفاوضات فيليب حبيب هذه

المرّة لن تشمل مستقبل لبنان والضفة الغربية والضفة الشرقية فحسب ، بل ستشمل حتى مستقبل القطط في هذه المنطقة . ولذلك أرجوك ويدي بزنّارك ، اذا كنت تعرف "الحّاماً" قلبه لله فحدّثه بشأني .

ـ كنت أعرف لحّاما فصار سفيراً ، وأعرف سفيراً فصار لحّاماً .

ـ مشكلة ، لأنه لن يطعمني بقدر ما سيناقشني .

ـ ولماذا تصــــر على أكل اللحم بالذات . لم لا تراعي ظروفك وامكاناتك؟

ـ كما تريد ، لن أصرّ على شيء بعد الآن .

ـ لا تبتئس يا صديقي ، كل ما في الأمر أن أعصابك متعبة ومعنوياتك منهارة . لِمَ لا تخرج من الصندوق وتقوم برحلة استجمام أو استحمام في هذا الوطن العربي الكريم ، لتُريح أعصابك وتسترد معنوياتك؟

ـ لا جدوى يا صديقي ، قضيت عمري وأنا أتجوّل في ربوع مطاعمه ومطابخه وأسواقه ، ولقد خرجت بانطباع واحد ، هو أن كل شيء فيه مذبوح حلالا ما عدا اللحوم .

* * *

العتَبَة

وأنا أهمّ بالخـروج من المنزل ، سـمـعت مـصـادفـةً من إحـدى الإذاعات العربية المبكرة برنامجاً رياضياً موجّهاً "الى احبّائنا الصغار" . فراقني صوت المذيعة وهي تردد بحماسة واهتمام : "واحد اثنين ،واحد اثنين" ، على أنغام البيـانو المرافـقـة للتمـارين ، وأغـراني المشـاركـة في إجراء بعض التمارين الرياضية ، فخلعت معطفي وسترتي ، وشمرت بنطلوني الى مـا فوق الركبـتين ورحت أُصغي الى المذيعـة وهي توالي تقديم برنامجها وهي تقول : "مستمعي العزيز ، قف على مكان مرتفع ، وباعد بين قدميك ، والو جذعك الى الأمام والى الوراء ، ثم اقفز عدة مرّات كل يوم ، فـتـحـصل على ثقـة بالنفس ورشـاقـة في البـدن" . . . ومزايا أخرى لم أعد أذكرها ، لأنني منذ أن قمت بالقفزة الأولى كنت بحاجة الى عدة أشخاص كي ينقلوني من الأرض الى السرير ، وظلّت قدمي ملوية حتى الآن .

ومع أن فترة الاستراحة التي فرضها عليّ الطبيب في البيت قد صادفت الوطن العربي يعج بالارهاصات والمخاضات والأعمال البطولية والمبـادرات الانتحارية ، فكل من كـان يسألني عن سبب مـا حلّ بي ، أجيبه بصراحة : لقد سقطت عن "الصوفا" . مع أنني كنت أستطيع أن أجيبه بكل بساطة : لقد سقطت عن أسوار القدس أو اصطدمت بمجبنة

أو جرّار زراعي وأنا أرصد هموم العمال والفلاحين في أماكن عملهم .

ولقد فرحت فرحاً عظيماً ببقائي في البيت دون عمل لأنه أتاح لي فرصة التعرّف على عالم غريب عجيب ، فيه من التسلية والطرافة بقدر ما فيه من الخطورة والمغامرة ألا وهو عالم الإذاعة والتلفزيون في معظم المحطّات العربية والأجنبية التي تبث برامجها باللغة العربية .

مثلا ، ما من نشرة أخبار في أية اذاعة في العالم سمعتها الا وتضمنت خبرا يقول : لاقى ثلاثة فلسطينيين مصرعهم في مكان . أو لاقى أربعة لبنانيين حتفهم في مكان ثان ، أو لاقى خمسة مغاربة أو غيرهم مصيرهم في مكان ثالث ، حتى صرت أشتهي أن أسمع نشرة أخبار واحدة تقول إن ثلاثة أو أربعة من العرب لاقوا ولو زِراً أو قِرشاً في حياتهم .

ثم لفتت نظري تلك الهجمة غير الطبيعية ونحن على أبواب القرن الحادي والعشرين على البرامج والمسلسلات البدوية في المحطّات الأجنبية قبل العربية "لحن البوادي" ، "النوق الأبيض" ، "فارس ونُجود" ، و"ضحى وابن عجلان" ، "فارس بني شيبان" ، فارس بني حمدان" . . . وقلت في نفسي : إن شاء الله ، يصبح عمّا قريب لكل سفينة سنم . ولكل نورس بحري عقال فوق رأسه ، وتمتلىء دور الصحف والمجلاّت والإذاعات بقطعان الإبل والماعز لترعى الأخبار الخارجية والداخلية .

كما لفتت نظري تلك الموجة العارمة من التنكّر التي تحفل بها معظم شخصيات البرامج والمسلسلات ، اذ لا تخلو تمثيلية أو مسلسل اذاعي أو تلفزيوني من شخصية متنكّرة .

دائماً هناك إمرأة بزي رجل ، وأمير بزي متسوّل ، ومتسوّل بزي

أمير، وخادم بزي خليفة، وخليفة بزي خادم. ولا تظهر الحقيقة الا في الدقائق الأخيرة من كل مسلسل أو مسرحية. بحيث يخرج المواطن بانطباعٍ هو أن الانسان العربي سياسيا كان أم مفكراً أم صحافياً أم عاشقاً لا يظهر على حقيقته الا في "الحمّام". وان هذه الرغبة بالتنكّر في الفن هي امتداد لحلقات التنكّر الكبرى على شاشة السياسة العربية منذ أجيال وأجيال؟ ثم أيكون كل ما أحببناه وكرهناه واتهمناه برآناه وقرأناه وسمعناه من قبل ذهب في مهب الريح؟

وعند هذا الحدّ من التساؤلات أرسلتُ زفرة طويلة تحرّك سفينة شراعية من مكانها، ويممتُ شطر المطبخ وأنا أعرج جسديا وفكريا. وجلست القرفصاء، على عتبته مشيحاً بوجهي بعيداً عن كل شيء. لأنني اكتشفت أن كل السنوات الخصبة التي قضاها أحدنا في الأمل والحماسة والجدل والمطالعة، والتمتمة كالمجانين في الشوارع الممطرة من أجل العدالة والحرية والحقيقة، ذهبت كلها ثمن طناجر كالحة، وعصارات ليمون، ومدقات ثوم، وخرّاطات بطاطا، ولعب أطفال معدنية تبدو وهي مستقرة في أي بيت عربي على البلاط أو تحت المقاعد أكثر طمأنينة وثقة بالمستقبل من الأطفال الذين يلهون بها وهم غارقون في النوم في أحضان أمهاتهم!

* * *

الطريق

ما إن وصلت الى مكتبي القائم في الطابق الأخير من مبنى العذاب العربي . واطلعت على آخر ما حفلت به الصحف والمجلات ووكالات الأنباء العربية والأجنبية من أخبار وتعليقات وتحليلات عن الوضع العربي والسياسة العربية ، حتى أدركت أنني في مأزق ولا بد لنا من وسيلة للخروج مما نحن فيه .

فطريق كامب دافيد مسدود .

وطريق الصمود منسدود .

وطريق التضامن مسدود .

وطريق الحرية مسدود .

وطريق اليسار مسدود .

وطريق اليمين مسدود .

وطريق ضهر البيدر مسدود .

ورفعت سمّاعة الهاتف وطلبت "شرلوك هولمز" :

ـ ألو شرلوك . صباح الخير . أريدك في مكتبي لأمر هام جداً ، نعم نعم . عندي قضية تستهويك وتستفز عبقريتك الى أقصى الحدود . نعم نعم . الشهود والوقائع والإِثباتات ، لا أستطيع الاستفاضة أكثر من ذلك بالهاتف . بالنسبة لبَدَل الأتعاب اطمئن ، فنحن العرب لا نأكل

حقوق الغير أبداً . نحن لا نأكل إلا حقوق بعضنا ، طبعاً بالدولار . فكل القضايا الكبيرة والمصيرية يسدد ثمنها بالدولار ، فهذه من البديهيات .

وأغلقت السمّاعة ، واستلقيت في مقعدي المريح كحذاء ايطالي ريثما يحين موعد اللقاء .

ولم يطل انتظاري كثيرا اذ سرعان ما دخل شرلوك هولمز بأناقته المعهودة وعينيه المتوقدتين وشغفه المعهود بحل الألغاز البوليسية والقضايا المستعصية . فبادرته في الحال وأنا آخذ معطفه وقبعته : سيدي نحن بحاجة ماسة اليك .

فقال وهو يحشو غليونه : ومَنْ أنتم؟

قلت : نحن العرب .

قال : وماذا تشتغلون؟

قلت : نحن لا نشتغل شيئا . العالم يشتغل بنا . صارت قضيتنا مثل صنبور ماء أمام مبنى الأمم المتحدة ، أو مبنى أي مؤتمر في العالم . الشاطر يغسل يديه بما علق بهما من دماء بشرية وزيوت وأتربة عقائدية ويجففها بثيابنا ويدخل بأمان الله . بل كأني بغروميكو وكيسينجر يركبان طائرة هليكوبتر واحدة ويحومان بها في أرجاء الوطن العربي . أحدهما يضع منظارا مقرّبا على عينيه والآخر يحمل على كتفه آلة كآلة رش المبيدات الزراعية . الأول يقول له : هنا حكم مستقر اخلق له مشكلة تموينية . هنا طالب مجد اخلق له مشكلة عاطفية . هنا عالم متفوق اخلق له مشكلة هوية أو براءة ذمة . هنا قائد مخلص أو شعارات مستورة افضحها شرشحها . أنهما في الحقيقة لا يريدان أن يبقى على الأرض العربية أي أمل أو طموح أو قيمة ذات معنى .

ستقول لي :

ولكنهما مختلفان لدرجة التهديد بالحرب النووية حول قضايا كثيرة في هذا العالم ، وخاصة قضيتكم . وأنا أجيبك : لا تصدق ما يقال وما يسمع . انهما متفقان حول كل شيء مثل الأخوين رحباني . واذا ما اختلفا ، فكما يختلف الأخوان رحباني حول اخراج مشهد في مسرحية . . واحد يريد بعض التشويق هنا وهناك ، وآخر يريد البداية حزينة والنهاية سعيدة ، إلى أن يصلا إلى حلٍّ وسط فتكون النهاية سعيدة وحزينة وبسيطة ومشوقة في الوقت نفسه مثل قضيتنا .

قال شرلوك : لا تتشاءم ولا تيأس من رحمة الله فلا بد من ايجاد مخرج لكم ولشعوبكم فقضيتكم عادلة كما يبدو . وأنا تستهويني القضايا العادلة . . ولكن هل لي ببعض الوثائق والمستندات التي تساعدني في مهمتي؟

قلت : طبعا ، كل شيء أمامك جاهز ومبوب ومرقم :

هذا ملف كامب دايفيد .

وهذا ملف الأحزاب والقوى التقدمية .

وهذا ملف الأحزاب والقوى اليمينية .

وهذا ملف الوحدة العربية والقضايا المتفرعة عنها ، فهذا مثلا ملف القضية اللبنانية ـ اللبنانية والقضية اليمنية ـ اليمنية ، والقضية الجزائرية ـ المغربية ، والقضية الليبية ـ التونسية ، والقضية الليبية ـ الفلسطينية . والقضية الفلسطينية ـ اللبنانية ، ثم هذا أخيرا ملف فلسطين منذ أن كانت طفلة بجديلتين ووثيقتين في إحدى مدارس القدس الابتدائية الى أن كبرت ودخلت في ألف مدرسة واعدادية .

قال : عظيم . . عظيم .

وتابعت قائلا : وإذا ما صار عندنا قضايا جديدة أخرى ، من الآن حتى الصباح فسأرسلها لك فورا . وكلي رجاء بألاّ تخيب ظني وظن الشعوب العربية بك وبمقدرتك على الخروج بأفضل النتائج . .

قال : وهو يتناول قبعته ومعطفه وملفاته : الى اللقاء غداً صباحاً في مثل هذا الموعد .

و . . في صباح اليوم التالي حضر فعلا حسب الموعد تماما ، فهرعت اليه مستوضحا :

ـ هل قرأت كل الملفات؟

ـ حتى آخر كلمة .

ـ وهل وجدت لنا الطريق؟

ـ طبعا .

ـ وما هو؟

ـ طريق "الفاليوم"

* * *

السقف

لو كنت أعرف أن التفاهة ستتفوق على النبوغ .
والكراسي المتحركة على أجنحة النسور .
والقردة . . على الغزلان .
ونخالة القمح . . على لينين .
وجوارب النايلون . . على ماوتسي تونغ .
وضجة البورصة . . على أصابع شوبان .
وأحمد عدوية . . على أحمد عرابي .
وبصمة الأمي . . على المعلقات السبع .
وان زكريا تامر سيدور العالم متلمسا نظارته بيد والجدران بيد . . بحثاً عن لقمته ولقمة أطفاله .
وان ابن الشهيد كمال خير بك سيعرج باكياً بين جمال الشارقة .
وان أنسي الحاج سيقضي نصف يومه في تناول المهدئات لينام ، ونصفه الآخر في تناول المنبهات ليستيقظ .
وان عصام محفوظ سيهذي في شوارع باريس الخلفية عن ماركس ، والمخابرات المركزية ، وفتة المقادم .
وان عبد الوهاب البياتي الذي بنى كل أمجاده الأدبية والسياسية على أساس أن جميع أجهزة الأمن العربية والغربية والشرقية . .

تطارده، لم يتدخل مخفرا في حياته ولم يعترض طريقه ولو شرطي مرور .

وإن أمة الجاحظ ، وابن سينا ، وابن رشد ، وابن خلدون ، وابن المقفع ، وأبي العلاء المعري ، وأبي الأسود الدؤلي ، وأبي العتاهية . . سترتعد فرائصها من المحيط الى الخليج من قارىء جريدة بالمقلوب عند منعطف أو في زاوية مقهى .

وان العربي في نهاية المطاف ، لن يستطيع أن يجابه أي شيء أو يهرب من أي شيء .

وان انفجار الأدمغة بين صفوف هذا الجيل سيصبح من الحوادث اليومية كانفجار دواليب السيارات .

لو كنت أعرف كل هذا ، ما كان لكل قوات الطوارىء الدولية ان تفكّ الاشتباك بيني وبين "الداية" التي ولدتني .

أما الآن وقد خبرت كل شيء وعرفت كل شيء ، ماذا أفعل؟
إذا كتبت أموت من الخوف .
واذا لم أكتب أموت من الجوع .
يقال ان الصعود الى قمة الجبل يتطلب بعض الانحناء .
وها أنا انحني ، ولكن لا انحناءة ذل ، بل انحناءة تعب .
لقد تعبت من الكتابة والقراءة
من الاقامة ومن السفر
من الذكريات ومن الأحلام
من التخلف ومن التقدم
من اليمين ومن اليسار
من خلافات المقاومة ومن تماسكها .

من أسمائها الحركية ومن أسمائها الصريحة .
من الاحتلال ومن الاستقلال .
من ثرواتنا القومية ، ومن دورنا الحضاري .
ولذلك سأنام على أول سرير أو رصيف يصادفني حتى يأتي من يوقظني بريشته لا بحربته .
ولكن قبل أن أدخل في سباتي الطويل هذا كالحشرة الافريقية لابد لي أن أصرخ على مسامع العالم أجمع :
أيها الكتاب والشعراء والفنانون
يا قراء القصص البوليسية
أيها المخبرون . . .
يا رجال الأنتربول في كل مكان .
عبثاً تبحثون عن الجريمة الكاملة ، فما من جريمة كاملة في هذا العصر سوى أن يولد الانسان عربيا .

* * *

كيمياء

كما اكتشف "لافوازييه" أن لا شيء في هذا الكون يفنى أو يضيع أو يطير نهائيا "الا الحقوق العربية طبعا" ، اكتشفت أن الانسان العربي لن يجد في هذا الكون الواسع مكانا يضيع فيه أو يطير اليه ، مهما حلق بحقائبه ورفرف بجوازات سفره . فإرهاب الأنظمة مثل صاروخ سام سيظل يلاحقه ويعلو ويهبط معه ووراءه لا ذيلا من الدخان والشرارات المتطايرة بل ذيلاً من الدم والآمال المتطايرة حتى يصيبه ويرتاح منه .

كما اكتشفت أن الوطن ليس من فرق "القصايد" صاير كما تقول فيروز ، بل من فرق "اللبنة والجبنة والزيت والطحينة" صاير كما يقول أي موظف أو مواطن من ذوي الدخل المحدود .

كما اكتشفت أن الأنظمة العربية على الرغم من كل ما يقال عن قسوتها وبطشها وتحجر عواطفها ، فهي مثل "السفن آب" ، تحبها تحبك ، وبذلك فالمزاودة أسلم شيء في هذه الحياة ، وأنا سيد المزاودة وتمسيح الجوخ وتمسيح الدموع :

تتمتع بلادنا بموقع جغرافي ممتاز حيث تطل على آسيا وافريقيا واوروبا "دون أن تستفيد منها شيئا" . كما تمتاز بمناخ معتدل وتاريخ عريق طوله آلاف الكيلومترات ، أمام كل خيمة برلمان وعلى ظهر كل

جمل مجلس لوردات .

هذا من الناحية التاريخية . أما من الناحية السياسية فسأدخل الى المقهى واذا ما سألني الكرسون ماذا أشرب سأقول له : أريد انسحاب اسرائيل من جنوب لبنان والاعتراف بحقوق الشعب الفلسطيني ودعم الجبهة الشرقية وضرب المصالح الأميركية في المنطقة وتعزيز الروابط مع دول المنظومة الاشتراكية ، وبعد ذلك أريد فنجان قهوة .

وسأشتري آلة حاسبة من أدق نوع "سانيو" أو "توشيبا" لأحسب مَنْ مِنْ أصدقائي ومعارفي سيصير مسؤولا لأتملقه وأتقرب منه . ومَنْ مِنْ أصدقائي ومعارفي من المسؤولين قد يطير من منصبه لاتحاشاه وأعرض عنه .

وسألبس المايوه وأسبح في كل تيار . ومايوه بيكيني أيضا .

وأكثر من ذلك ، هذه أجوبتي على كل الاسئلة المطروحة في المنطقة :

سؤال : ما هو موقفكم من ظاهرة التضخم وارتفاع الأسعار؟

جواب : الغلاء ظاهرة اقتصادية ذات تأثير سلبي على المجتمع ، ولكننا نعطيها أبعادا قومية ايجابية . فعندما تكون أسعار السلع والحاجات مرتفعة وكذلك المطاعم والملاهي والمقاهي فان المواطنين يضطرون لملازمة بيوتهم طول الليل والنهار .

وهذا يؤدي الى تمتين العلاقات العائلية وكثرة الانجاب وزيادة النسل . فمعركتنا مع العدو بحاجة دائما الى المزيد من المقاتلين . وهذه ناحية لم ننتبه اليها كما تنبه لها العدو . ففي ثلاثين سنة فقط يكاد يصل عدد سكان اسرائيل الى ثلاثة ملايين ونصف ، بينما نحن وفي

المدة نفسها لم يصل عددنا إلا الى مئة وخمسين مليوناً فقط .

سؤال : ما سبب كثرة الشجار والمشاحنات بين المشاة والسائقين في شوارعكم؟

جواب : أسباب بسيطة للغاية . يكون المواطن عاقدا ذراعيه خلف ظهره ومستغرقا في التفكير بأفغانستان أو الحوار العربي والأوروبي أو أحداث قفصة ، فيأتي سائق الباص أو التاكسي ويطلق زموره وراء أذنه مباشرة ، فيقطع عليه سلسلة أفكاره ويمنعه من الاسترسال في التفكير بهذه القضايا التموينية الملحة .

سؤال : من الملاحظ أن معظم سيارات المسؤولين عندكم مزودة بمساند للرأس ، لماذا؟

جواب : لأن المسؤول عندنا صغيرا كان أم كبيرا لا يفكر بقضايا أمته واحدة واحدة بل كلها دفعة واحدة . ولذلك لابد لرأسه من أن يرتاح من ثقل هذه القضايا حتى يتذكرها بالتسلسل وهو في طريقه الى هذا الاجتماع أو ذلك العشاء . مع أنني شخصيا ركبت ذات يوم في واحدة من هذه السيارات . وعندما أسندت رأسي على مسندها نسيت اسمي . ونسيت الى أين أنا ذاهب؟ ومن أين أنا قادم .

سؤال : لماذا يجلس المواطنون عندكم في واجهات الحوانيت وفي الحدائق العامة وأمام عدسات التصوير المائي وهم دائما عابسون مقطبون .

جواب : ليخيفوا الاستعمار والامبريالية .

سؤال : لماذا تقودون سياراتكم بسرعة جنونية وخاصة السيدات . خذ تلك السيدة مثلا تكاد تأخذ في طريقها شرطي المرور وشارة المرور . الى أين ذاهبة بهذه السرعة الجنونية؟

جواب : الى الكوافير ثم الى الأرض المحتلة .

سؤال : ما هذه الضجة هناك . ماذا فعل ذلك المثقف المتأبط صحفه ودفاتره حتى يجره الشرطي من ياقته وامرأة محافظة تلحقه شاهرة شحاطتها فوق رأسه؟

جواب : هذا كاتب تقدمي صعد الى الباص المزدحم ليحتك بالجماهير ، ويبدو أنه احتك بهذه المرأة أكثر مما تحتمل حركة التقدم العربي في الوقت الحاضر .

سؤال : ما هو موقفك من الوحدة العربية؟

جواب : لم يطرأ أي تغير . . ومازلنا مع أي صيغة أو جهد لتحقيق الوحدة العربية . مع أن بعض العرب الآن مختلفون حتى على توحيد الله . منهم من يريده قبل الفجر بدقائق ومنهم من يريده بعد الفجر بدقائق كما ذكرت بعض الصحف مؤخرا .

سؤال : وموقفكم من الشعب الفلسطيني وحقه في تقرير مصيره؟

جواب : ما زلنا ننظر الى المواطن الفلسطيني نظرتنا الى أي مواطن في بلادنا عليه الواجبات نفسها وله الحقوق نفسها والاضبارة نفسها .

سؤال : هل ينسجم تفاؤلك المطلق مع كل ما يحيط بالمنطقة من أخطار واضطرابات؟

جواب : مهما كانت الأوضاع مضطربة والغيوم السياسية ملبدة فعندي ابتسامة مشرقة من مسؤول على شاشة التلفزيون أفضل عزاء . وخاصة اذا كان مصفف شعره على السشوار ويلف ساقا على ساق بحيث يكون وجهه مقابل وجهي وكتفه مقابل كتفي وحذاؤه مقابل كتبي وأوراقي .

سؤال : يبدو أنك متيم فعلا بأرضك حتى لا تغادرها وبعروبتك

حتى لا تتخلى عنها؟

جواب : آه لو تعرف كم أحبها وأحب أرضها وسماءها وشعاراتها وأهدافها . ثم آه لو أعرف من اللغات الأجنبية أكثر من (يس) و(نو) .

* * *

المتقاعد

انني أرفع قلمي وأوراقي وأطفالي القصّر وأمي المقعدة مستسلما أمام أي شرطي أو حارس ليلي في هذا العالم ،لعلّني أرتاح من هذا الرعب الذي يشلني كالأسلحة الجرثومية كلما سمعت أغنية وطنية أو زمجر مذيع في نشرة أخبار . فأنا لست مسؤولا عن شيء ، ولا علاقة لي بشيء في هذا العالم . لم أجد نفسي الا داخل ذلك الرحم ، وداخل هذه المنطقة ، وداخل هذه الغرفة ، وداخل هذه الثياب . وفي جيبي هذه "الكرتونة" التي اسمها : "هوية" . ثم داخلا الى فرن وخارجا من بقالة على أساس : (اليوم بتعلق ، وبكرا بتعلق) ومنذ ثلاثين أربعين ألف سنة على هذه الحال من الرياضة العربية ، دون أن أعرف لماذا ، ولا أجدادي يعرفون ، ولا أحفادي سيعرفون .

كما أنني لست سياسيا ولا أفهم في السياسة أكثر مما يفهم القرد بنظرية (داروين) التي هو محورها وجوهر مناقشتها . كما لا أستطيع أن أعدد أسماء خمس عواصم في العالم دون خطأ في تهجئتها أو عدد سكانها . كل ما أعرفه أن للانسان العربي منذ أن وجد حتى الآن ، عاصمة واحدة اسمها : الحزن . القهر . الجوع . وكل ما نرجوه ونلتمسه ، نحن الفقراء ، من المسؤولين العرب ألا يعينوا لها محافظا أو واليا في المستقبل .

ثم يأتيك صوت ما من هذه الاذاعة أو تلك ويقول لك بالحاح بائع اليانصيب : "ابتسم أخي المواطن" ، "ابتسم أخي المزارع" ، ابتسم أخي الطالب" . وكأن الابتسام والضحك بهذه السهولة .

والله لم نعد نعرف كيف يبتسم المرء في هذا العصر ، أو من أين يبتسم؟ من فمه؟ أم من أنفه؟ أم من خاصرته؟ يكفي أن المواطن ضحك وبكى مرة واحدة في الخامس من حزيران وانتهى الأمر .

فهناك في هذا العالم غير العنف والرفس والتفجير وقتل الأبرياء . . هناك حب ومطر وزهر ليمون . نزهات عائلية وزغب على خدود الأطفال . وأن هناك غير المؤتمرات والاجتماعات والرهائن وافغانستان وبلوشستان . هناك شعر وموسيقا وظلال أشجار . صار أحدنا حتى وهو يقبل حبيبته يشعر بأن كارتر وبريجنيف وموغابي وكرمال وفالدهايم والرهائن يسترقون النظر اليه من ثقب الباب .

ولكن ، يخطىء من يظن أنني ألفّ وأدور من خلال المطر والحب والورود لأصل الى "الحرية" . فأنا لم أعد أريدها ، ولا أطيق شعرة فيها ، بعد أن هجرتني كل هذا العمر ، وحتى لو صفحت عنها وجاءتني تطرق بابي في احدى الليالي العاصفة وأنا مريض ومزكوم ومتدثر في فراشي ، وقالت بصوتها المعبود : "افتح . . أنا الحرية" . هل أصدقها بهذه السهولة؟ طبعا لا . سأضع منديلا على رأسي وأخاطبها من خلف الباب باعتبار أننا محافظون ولا نظهر على غريب . ثم ، من يؤكد لي أنها الحرية فعلا؟ وأنا الذي لم أسمع لها صوتا ولم أعرف لها شكلا أو لونا أو ملمسا من قبل . سأغلق الباب في وجهها وأطردها كما تطرد الفلاحة العجوز دجاجة غريبة عن بيدرها . اذ ما الذي سيناله انسان ما من غانية مراهقة تأتيه وهو في الثمانين أو التسعين ، غير

الألم والحسرة والنحيب وحيدا تحت الأغطية .

لا . لم أعد أرغب في حرية أو فرح أو زهور . كل ما أرغب فيه فعلا هو أن أكون تاجرا عاديا ملطخ الثياب بالدهن والزيوت في أحد الأسواق أو الموانىء ، أو بصورة أدق ، أن أكون صاحب دكان ، عجوزا في آخر قرية في أصقاع الريف العربي الحزين . دكان متواضعة من النوع الذي تسند أبوابها بحجر عند اغلاقها وعند فتحها . أبيع الحلوى الرخيصة للأطفال ، والصابون وملاقط الغسيل للنساء . وعند الغروب أجلس على سحارة عتيقة أشرب الشاي مع راديو عتيق ، موليا ظهري المحدودب لما يجري بعيدا بعيدا عني على الساحة الفكرية والسياسية والايديولوجية من تنظيرات ومحاضرات ، وخلافات وتصفيات وعناق وزيارات ، وحرد ومصالحات ، محدِّقاً إلى ما تبقّى من خريطة الوطن العربي وأنا أسمع صوت فيروز وهي تغني :

عم يلعبوا الولاد

عم يلعبوا . .

* * *

حكاية قضية اسمها مرمر

كلما سمعت موسيقا "الدانوب الأزرق" لشتراوس أو "بحيرة البجع" لتشايكوفسكي ورأيت الراقصين والراقصات يتخاصرون ويضمون بعضهم بعضا وهم يتأوهون ويتنهدون على أنغامها تنتابني رغبة جنونية بالرقص ولو مع شجرة . مع فاتورة كهرباء . . . مع مذكرة توقيف . ولكن في هذا الليل العامر بالغزل والأضواء الخافتة ، هذا يرقص مع زوجته وذاك مع حبيبته ، وآخر مع صديقته أو مع "ارتيست" . وأنا الذي لا زوجة لي ولا حبيبة ولا صديقة ولا ارتيست سوى "القضية" مع من أرقص؟؟

وهنا خطر لي خاطر عجيب وهو : لماذا لا أرقص مع القضية نفسها؟ وارتديت ثياب السهرة ورحت أبحث عنها حتى عثرت عليها خارجة كعادتها من أحد مكاتب السفر وهي تنقل حقيبتها من اليسار الى اليمين ومن اليمين الى اليسار . ولكن عندما اقتربت منها راعني جمالها الساحر وأنوثتها الطاغية . كانت فاتنة ومغرية بكل شيء وخاصة أناقتها : اذ ترتدي يافطة سهرة موشاة بالاخبار والعناوين المثيرة ، وبيانا مشتركا مشقوقا من الجانبين ويكشف عن مفاتن صدرها وتصريحاتها . وكلما تحركت أو التفتت تناثرت غرة من نشرات الأخبار على جبينها وكتفيها .

تقدمت منها منحنيا كأي جنتلمان مهذب وقلت لها : هل تسمحين لي بهذه الرقصة يا سيدتي؟

فقالت وهي تستر ما ظهر من مفاتن جسدها وشعاراتها وتعلك في فمها شيئا واحدة منذ ثلاثين سنة حتى الآن . أنا لست راقصة . أنا قضية .

فقلت لها : أعرف ذلك .

فأجابت وهي تنظر الى ساعتها باستعجال : ثم اني مرتبطة بمواعيد كثيرة ، في ايران وأفغانستان ولبنان والخليج والكرملين واسلام آباد ونيس وكوبا . آه ليس عندي وقت أحك به مبادئي وشعاراتي .

قلت متوسلاً : لقد قضيت حياتي وأنا أحلم بلمسك وضمك الى صدري . من أجلك تعلمت تحية العلم في الصقيع ، وألقيت الشعر في البراري . وبسببك جعت وعطشت وتقبلت الغبن والظلم والاهانات ، والآن تخذلينني من أجل رقصة في شارع مقفر .

فأجابت متشككة : وهل تجيد الرقص كما تدعي؟

فقلت : أكثر من نجنسكي وفريد استر .

ـ وأين تعلمته أيها البدوي التعس؟

ـ في السجون يا سيدتي . في زمن الوحدة تعلمت التانغو . . وفي زمن الانفصال تعلمت الباليه والديسكو .

ـ وعلى يد من تدربت؟

ـ على يد المربي الكبير عبد الحميد السراج . مؤسس أول فرقة بولشوي عربية للرقص والقفز في جميع الجبهات .

ـ ولكن لَمَ اخترتني أنا بالذات؟ لِمَ لا تراقص امرأة عصرية . إن شوارعكم ملأى بالنساء الجميلات المتحضرات .

ـ لا تغرنك المظاهر يا سيدتي . المرأة العصرية في هذه الأيام مثل مطبوعات دول الكتلة الاشتراكية . غلاف صقيل جميل ملون من الخارج . ومن الداخل مخارط وأدوات سبر وارقام وإحصاءات .

ـ أقصد لماذا لا ترقص مع فتاة مثقفة من مستواك؟

ـ آه يا سيدتي! من يرقص مع فتاة مثقفة وملتزمة في هذه الأيام كمن يرقص مع الشاذلي القليبي ، قبل كل خطوة تصريح ، وبعد كل ضمة بيان ،ثم انك تعجبينني وتثيرينني أكثر من أية امرأة في العالم . يا إلهي! ما هذا الصدر العامر؟ ماذا تخبئين فيه؟ ميكروفونات وخطابات! وهذه المؤخرة المكتنزة ماذا يوجد فيها؟ وعود للجماهير العربية؟

وصرخت مذعورة : لا تلمسني والا جمعت عليك الجيران .

قلت : متعود على الشرشحة .

قالت : سأشكوك لمؤتمرات القمة . وسيشكلون لك لجنة صياغة ولجنة وصاية ولجنة متابعة .

قلت : سأتبعك الى آخر الدنيا . الى آخر ميكروفون في العالم . دعيني أفك زرا واحدا من ثيابك لأرى ما تحت هذه الخطب والتوصيات .

فصرخت متوسلة وهي تحمي نفسها وتشد ثيابها : أرجوك دع هذه اليافطة . لا تفضحني . أيها الحارس . . أيها الشرطي . . . هذا الرجل "سيشمر" لي عن مبادئي وشعاراتي .

قلت : اصرخي ما شئت فلن أبالي بعد الآن يا حبيبتي .

قالت : سترانا "الاخلاقية" .

قلت وأنا أطوقها بذراعي : ليرانا العالم أجمع . لقد مللت الغرف

المغلقة والأماكن السرية .

ووضعت خدي على خدها وتابعت لها هامسا : قضيتي . حبيبتي . مهجة كبدي وصمودي وعدم انحيازي . لم أعد أستطيع المقاومة .

فقالت متنهدة : ولا أنا .

وضممتها بين ذراعي : بل عبطتها بكل ما أستطيع من قوة وشوق وحرمان . لقد كنت أضم وأعبط من خلالها كل انقلاباتنا وبلاغاتنا وجبهاتنا القومية وكتلنا البرلمانية والعشائرية والأدبية .وهتافاتنا من اتفاقية رودس الى اتفاقيات كامب دايفيد ، وكل أهدافنا في الماضي والحاضر والمستقبل . وعندما استيقظت في الصباح كنت أعبط المخدة ، وحولي أطفالي يرتجفون من البرد والجوع .

* * *

وزادوا في الطنبور نغماً

في نهاية الصيف وبداية الشتاء من كل عام ، ينتشر صنف معين من الباعة المتجولين في الشوارع والساحات والحارات الشعبية المكتظة بالسكان ، وهم ينادون بحرارة وحماسة : نفتالين . . . نفتالين . وهي المادة التي توضع في طيات الثياب والمنسوجات المنزلية أثناء ضبِّها في الحقائب والأكياس حتى لا تهترىء ويأكلها العث ، ريثما يحين موعد استعمالها مرة أخرى في موسم قادم .

كلما سمعت هذه الكلمة تتردد على ألسنة هؤلاء الباعة عاما بعد عام في مختلف أرجاء هذه المنطقة ، لا أعرف لماذا أتذكر بعض الشعوب العربية وحكامها . فكما تجمع ربات البيوت الثياب الموسمية فتطويها وتضبها في الحقائب وتركنها على ظهر خزانة أو سقيفة حتى يأتي موسم ارتدائها مرة أخرى ، كذلك تتصرف بعض أنظمة الحكم العربية بشعوبها . فعندما تكون الأوضاع عادية لا مشاكل في الداخل ولا أزمات في الخارج ، تطوي شعوبها في الحقائب والخزائن وتتصرف عنها وتأكل عنها وتشرب عنها وتفرح عنها وتتنفس عنها . ولكن ما إن تلوح بوادر أول أزمة ما في الداخل أو أية مشكلة في الخارج ، حتى تتذكر هذه الأنظمة دفاترها العتيقة أو بالأحرى شعوبها العتيقة فتخرجها من الحقائب والخزائن ، فتنفض عنها الغبار وتغسلها وتكويها

وتستعملها من جديد أمام العالم . ومع مرور الأيام وتتابع المواسم صار لهذه الانظمة شعوب للصيف وشعوب للشتاء . شعوب للافراح وشعوب للمآتم . شعوب للطلعة وشعوب للسهرة . حتى اذا ما انتهى الغرض من استعمالها ومرت الازمة بسلام ، أعيدت الى حقائبها حتى يحين موعد استعمالها مرة أخرى في سهرة أو حرب مفاجئة .

والواقع ، إن نظرة التقدير والاحترام التي تنظر بها بعض انظمة الحكم العربية الى شعوبها ليست نظرة حديثة أو معاصرة . بل هي قديمة قدم الشعوب وحكامها على هذه الأرض . مع فرق واحد فقط ، وهو ان الحاكم العربي القديم ، الخليفة أو الوالي أو المتصرف أو الامير ، كان يحدد موقفه من هذه القبيلة أو تلك ، يعادي ويصالح ، يعزل ويولي ، ويقطع ويصل في كل شؤون الرعية كما يريد ، وكما يرتئي ، دون أي اعتبار لموقف الدول الكبرى أو ردة فعل الرأي العام العالمي ووكالات الانباء الداخلية أو الخارجية . كان يقوم بكل شيء باسمه الشخصي ، وعلى مسؤوليته الخاصة . ووسائل اعلامه هي سوطه . ومن المؤكد لو أن قادتنا القدامى وأجدادنا الفاتحين وضعوا في حسبانهم الرأي العام العالمي والوفاق الدولي وغير ذلك من الأمور ، لكانت قوات الطوارىء الدولية ترابط حتى الآن على قمة جبل "أحد" .

أما في العصر الحديث ، فان الامير العربي ظل هو الامير ، يصالح هذه الدولة ويعادي تلك ، يعزل ويولي ، يقطع ويصل كما يريد وكما يرتئي ، مع تطور بسيط فقط ، وهو أنه يريد أن يربط كل ما قرره بمعزل عن الشعب باسم الشعب ، حرصا على الرأي العام المحلي والعالمي وتبرئة لذمته أمام التاريخ .

ولذلك ، وفي أعقاب كل نكسة أو هزيمة أو شرشحة تمنى بها

العرب ، تهب هذه الأنظمة عبر أجهزة اعلامها لتضع الشعب امام مسؤولياته ، وتدعوه دون تلكؤ لكي يلعب دوره في المعركة .

ترى ما هو موقف هؤلاء مثلا لو صدّق أحد المواطنين هذه الدعوة واراد تلبيتها ، فنهض من فراشه وخلع ثيابه في هذا البرد القارس ، ولبس الشورت والبوط ، وراح يهبط درج المنزل بقفزاته الرياضية أمام تصفيق زوجته وأطفاله وجيرانه ، ودعائهم له بالنجاح والتوفيق . ولكن عندما يصل هذا المواطن الى الشارع الى أين يذهب؟ وعلى أي ملعب سيلعب دوره في المعركة؟

ملعب فلسطين؟

ملعب اوغادين؟

ملعب قبرص؟

طبعا ، لا المواطن يصدق هذه الدعوة ولا الذين وجّهوها يصدقونها . لأن الكل يعرف أن انظمة القمع العربية قد تسمح للمواطن عندها بان يلعب "كرة قدم ، كرة طاولة بلياردو ، بينغ بونغ الى ما شاء الله" ولكنها لن تسمح له بأن يلعب دوره في المعركة ولو ثانية واحدة ، لأنه مجرد أن يلعب دوره ينتهي دورها .

والواقع أيضا انه منذ أن فتح الغرب باب الطائرة لأول سفير من الشرق الى هذه الربوع الكريمة حاملا حقائبه ، في الأولى شعارات وفي الثانية ميكروفونات والشعوب العربية تقفز كالجدايا في مختلف الاتجاهات : يمين ، يسار ، تقدمية ، رجعية ، طابور خامس ، حياد ايجابي ، عدم انحياز ، الكونغو ، فييتنام ، لومومبا ، التنمية قبل التحرير ، التحرير قبل التنمية ، وحدة الطبقة العاملة ، وحدة الشبيبة العالمية ، أدب رجعي ، أدب بورجوازي ، تلاحم عضوي ، تلاحم

جماهيري ، وحدة الهدف ، وحدة المصير ، هرر ، كمبوديا ، صمود ، استسلام ، القرن الافريقي ، القرن الاسترالي . حتى زاغ بصر المواطن وانحلت مفاصله ، وتدلى لسانه من فمه ، ووطنه من جيبه ، لا يعرف ماذا يشتري به ، خبزا ليأكل أم سما ليموت .

والأعجب من كل هذا وذاك ان هذا الشعب مازال يتزوج وينجب ويسمي مواليده ، امل وهناء وابتسام ، وبهجت وبهيجة وفرح وفرحان .

* * *

النسّاجُون

ينتاب الانسان أحيانا شعور عارم بالرضا والطمأنينة من كل شيء في بيته واطفاله وحكومته والعالم أجمع . فتراه يذهب الى عمله في الصباح هاشّاً باشاً ، يحيي السمان واللحام وشرطي المرور ، وسائق الباص والركاب والجباة ، ويسترخي على مقعده مغمض العينين ، باسم الثغر ، كأنه الحلاج في نوبة صوفية . وفجأة يمر الباص فوق حفرة ، فتعيده فورا ، وهو يتحسس رأسه خشية أن يكون قد شجّ ، ويتلمس جيبه خشية أن يكون قد نشل ، من ماضيه التليد الى واقعه الجديد . ولتذكره بأننا مازلنا متخلفين وان الغلاء مستحكم وان التاجر لا يرحم ، بالاضافة الى أن سترته قد تملخت قبل قليل من عند الابطين حتى تمكن من الصعود الى الباص والحصول على مقعد فيه .

هكذا كان حالي عندما سألني أحد الركاب بتودد : ماذا ستكتب اليوم عن عيد الجلاء؟

فقلت له وأنا اتحسس بعض التضاريس المستجدة في رأسي : أي جلاء؟

قال : جلاء المستعمر .

قلت : أي مستعمر؟

قال : المستعمر الفرنسي ، الذي جلا عن سورية قبل ثلاثين عاما ونيف .

قلت : أي سورية؟ وأي عرب يا هذا؟ ألا ترى هذا الشج الذي في رأسي؟ والشج الآخر في سترتي؟ ثم هل المستعمر هو فقط الذي شعره أشقر وعيونه زرق؟ أو بالأحرى كيف تريد مني أن اتصنع الكراهية والوطنية والحماسة لبضع ساعات واندد بغريب رحل عن أرضي وجيبي منذ ثلاثين سنة ، بينما أي تاجر من لحمي ودمي ووطني عليّ أن ألبس خوذة مثل يوسف العظمة لأشتري من عنده قميصا لأستر جلدي ، أو ان اتلفح بشملة الى ما فوق أنفي مثل ثوار الغوطة وجبل الزاوية لاقترب من عيادة طبيب أو مكتب عقاري اسأله عن دواء أو مأوى لعائلتي واطفالي؟ ان التاجر والمتعهد والمقاول والوسيط ومن لفَّ لفهم هم "غورو" و "كوله" بالنسبة لي .

انني أعرف تاجر بناء مستعدا لأن يبني على رأسه كراجا ، وعلى رأس كل طفل من أطفاله ملحقا ليؤجرهم الى احفاد من كانوا يستعمرون بلدي ووطني من قبل ، حتى ولو رأى أبناء وأحفاد من صنعوا الجلاء ينامون على الأرصفة .

قال : انكم تظلمونهم كثيرا . لقد فعلوا ويفعلون كل ما في وسعهم ووسع جيوبهم لتطوير البلد ونهضته وعمرانه . . الا تسمع هدير الجرافات والخلاطات ليل نهار؟ ألا ترى البنايات الشاهقة والفنادق الضخمة والمطاعم الفاخرة والمتاجر الزاخرة كيف تتكاثر يوما بعد يوم . ان مدينتنا كانت قرية فأصبحت بفضلهم تبدو كأنها مدينة أوروبية أو يابانية .

فقلت له : انها مظاهر خارجية فقط .

قال : ابداً . أنا بلاط اعمل في أكثر من ورشة ومع أكثر من متعهد . . انهم يجهزون البنايات بأحدث المصاعد والمدافىء . . يكسون

الفنادق بأرقى الحمامات والرخام . . يكسون المطاعم بأجمل الديكورات والموائد . . انهم يكسون كل شيء من حولك .

فقلت له : ولكن اذا ما استمروا هم الذين يكسون كل شيء بطريقتهم هذه ولم يوقفهم احد ، فلن يبقى شيء في المستقبل على "العظم" سوى . . الوطن .

* * *

صرير الأسنان

س : ما هو موقفك من شعار التضامن العربي؟
ج : لن اتضامن مع ثيابي .
س : وشعار الصمود؟
ج : ممتاز . فأنا صامد أمام هذه الكأس حتى النصر والتحرير .
س : وبالمواجهة المحتملة بين الشرق والغرب؟
ج : المهم ان أواجه البقال واللحام آخر الشهر .
س : حسنا ، ما رأيك بقانون الرقابة؟
ج : من راقب الناس مات همّاً .
س : وقانون الزراعة؟
ج : لن أزرع فجلة في هذا الوطن .
س : وقانون العمل والكفالات؟
ج : لن أكفل اولادي على زجاجة حليب .
س : وقانون المطبوعات؟
ج : يعيش قانون المطبوعات .
س : يعيش؟
ج : نعم . يعيش قانون المطبوعات .
يعيش قانون الرقابة .

يعيش قانون الطوارىء .
يعيش قانون السير .
يعيش قانون الري .
يعيش قانون المصارف .
يعيش قانون الجمارك .
ويسقط الانسان .

فأنا مع السلطة في كل زمان ومكان . وكلما هدّني التعب ، من الاجواء السياسية المتوترة ، والانباء المتضاربة في هذه المنطقة أو تلك من العالم ، ارتمي على أول مقعد في المقهى وأضع أكوام الصحف وعلب التبغ أمامي وأشرد من النافذة وادخن . فكثير من النكات التي لا أستطيع اطلاقها ، او الافكار التي لا اجرؤ على البوح بها . . "ادخنها" حتى صار السعال يخرج من صدري كموسيقا القرب ، وقد نصحني احد اصدقائي باستعمال "الغليون" لأنه أقل كلفة وأكثر ثباتا وضيانا بين الاسنان في هذه المرحلة السياسية الصعبة .

فقلت له : بالعكس يا صديقي . . . انه أكثر كلفة مما تتصور بكثير . لأنني ذات مرة قرطت غليونا أثناء نشرة الاخبار واثنين اثناء التعليق على الاخبار .

س : والآن ماذا تريد لتغيير هذا الموقف من الحياة والسياسة والوطن؟

ج : أريد فقط من المئة مليون عربي
جائعا يرفض لقمته .
فلاحا يرفض موسمه .
طالبا يرفض دروسه .
عاشقا يرفض حبيبته .

موظفا يرفض راتبه .
خروفا يرفض مرعاه .
اما ترفض ابناءها .
عاهرة ترفض سمعتها .
صحيفة ترفض اعلاناتها .
دولة ترفض مساعداتها .
زعيما يرفض امتيازاته وارتباطاته .
س : ولكن هذا مستحيل دفعة واحدة . لابد من التدرّج والواقعية في المطالب .
ج : حسنا : أريد موقفا واضحا من السادات . . من كامب دايفيد . . من تهويد القدس . . من أحداث بولندا . . من أحداث افغانستان . . من كارتر . . من ريغان .
أريد أن أعود الى قريتي .

* * *

إحراج عامل الصيانة

فجأة وفي لحظة من الالهام الشاعري النادر قررت أن أصبح ميكانيكيا ، وخلعت عني مسوح الأدب والأدباء واستبدلتها بقبعة و"اوفرول" أزرق ، ولطخت وجهي ويدي بالشحم والزيوت المعدنية ، وافتتحت ورشة صغيرة لتصليح السيارات وصيانتها في احدى المناطق النائية .

وبعد أن مرت الأيام والليالي دون أن يسألني أحد اصلاح ولو دراجة صغيرة ، وبينما كنت أخلع ثيابي واجمع عدتي المبعثرة على الأرض لأعود من حيث أتيت ، إذ بأضخم سيارة رأيتها في حياتي تقبل نحوي مترنحة متباطئة وتتوقف أمام ورشتي المتواضعة صافرة زافرة كديناصور منقرض يلفظ أنفاسه الأخيرة .

وابتعدت عنها متهيبا . ما هذه السيارة العجيبة؟ (٢٢ دولابا) وكل واحد بحجم مختلف : دولاب أميركي ودولاب روسي ودولاب ياباني ودولاب ايراني . الخ . .

ثم أية حمولة تحمل والى أي جهة تقصد في هذه البيداء المقفرة العاصفة؟

ومن بقع الدم على عجلاتها والغبار الذي يغطي هيكلها ووجوه ركابها ، ومن الشعارات والتعاويذ والرقي التي تملأ جوانبها ومقدمتها

ومؤخرتها مثل :

"عين الحسود فيها عود" .

"يا سائرة بقدرة مولاك سيري فعين الله ترعاك"

"راجعة راجعون"

"الله معاك أبو أحمد"

"لا تسرع الموت أسرع"

"يا هاجرني"

"الموت أو النصر"

"لن يمرُّوا"

"الحلم سيد الأخلاق"

"عاشت الصداقة العربية ـ السوفياتية"

"مالبورو هي الكمال في المتعة"

"نور العيون يا شاغلني"

" لا شرقية ولا غربية"

"يا عالما بحالي عليك اتكالي"

وبالتالي من الحداء الواهن الذي توقف مع توقف محركها ومن الاعلام الصغيرة المرفرفة بتثاقل من نوافذها ، عرفت أن هؤلاء الركاب هم فلسطينيون ، وأن هذا الباص هو "باص العودة" . وصرخت بهم مهللا مرحبا : يا أهلا بالشباب . يا أهلا بالمعارك . من أين أتيتم؟ من أين أنتم قادمون؟

الركاب : من فلسطين .

ـ وإلى أين ذاهبون؟

الركاب : الى فلسطين .

ـ بالتوفيق انشاء الله . ولكن ألم تتأخروا كثيرا في الوصول؟

الركاب : ماذا نفعل؟ ان سائقينا نظاميون جدا ولا يسرعون بأكثر مما هو مسموح به على الطرقات الدولية . وكل من يتجاوز السرعة القانونية تنظم بحقه مخالفة . ومن يرتكب ثلاث مخالفات تسحب رخصته ، فالطريق مراقبة بالرادار .

ـ وهل كلكم من أبناء العودة؟

الركاب : نعم .

ـ ومن هؤلاء الذين يركبون على ظهر الباص ، على ظهركم؟

الركاب : توصيلة .

ـ الى أين؟

الركاب : لا نعرف . كلما وصل احدهم الى حيث يريد غادرنا دون أن يلقي علينا حتى كلمة شكر أو وداع . لقد تحولنا الى "تاكسي" في الداخل والى باص سياحي في الخارج . وكلما تراءت لنا من النوافذ قمم الجبال المغطاة بالثلوج صفقنا وقلنا : هذه ثلوج حرمون أو جبل الشيخ ، ونجمع حوائجنا ونوقظ أطفالنا استعداداً للنزول . ثم نكتشف أنها ثلوج موسكو .

وكلما امتلأت صدورنا بعبير الورد والليمون تنهدنا وقلنا : هذه حتما بساتين الغور والناصرة . ثم نكتشف انها بساتين كاليفورنيا أو هولندا .

وكلما هبت علينا نسائم البحر العليلة ورأينا قوارب الصيد تسبح في ضوء القمر ، قلنا : هذه موانىء حيفا وعكا ، ثم نكتشف انها موانىء طوكيو أو عبادان .

وكلما تباطأت بنا السيارة وراحت تصعد وتهبط وتلف وتدور حول

المنعطفات مددنا أيدينا الى حقائبنا وقلنا هذه شوارع القدس العتيقة وأزقتها وأروقة بيوتها . ثم نكتشف انها شوارع الرباط وازقة فاس أو أروقة الأمم المتحدة .

ـ هل وصلتم بهذه السيارة الى روسيا وأمريكا وطوكيو؟

الركاب : طوكيو ، كابول ،الشارقة ، الأحمدي ، مالطا ، غرناطة ، شنغهاي . لم نترك بلدا أو عاصمة في الدنيا إلا ومررنا بها وتركنا فيها جثةً أو دمعةً أو خطاباً .

ـ ولكن ألا تعرفون أن الطرقات الدولية لا توصل إلا الى بعضها .

الركاب : نعرف ، ولكن أي سائق ينحرف عنها يمينا أو شمالا ليسلك طريق الجبال والوهاد اختصارا للوقت يعتبر متمردا وتطارده كل دول العالم .

ـ حتى الدول العربية!

الركاب : الدول العربية أولها .

ـ هذا شأن السائقين . أما أنتم الركاب فشيء آخر لِمَ لا تغادرون هذه السيارة ويعود كل منكم الى وطنه بالطريق التي يختارها؟

الركاب : ممنوع النزول أو الصعود الا في المواقف الرسمية .

ـ إذاً ، قَدَركم في هذه السيارة .

الركاب : نعم .

ـ ولكن معظم دواليبها على الأرض ، فبماذا أملؤها؟ بفمي؟

طفل : خذ هواء رئتي يا سيدي .

ـ هل عندكم دواليب احتياطية؟

الركاب : لم يعد عندنا لا دواليب احتياطية ، ولا منبهات احتياطية ، ولا دماء ولا دموع أو أعصاب احتياطية . لم يعد عندنا

حتى أوطان احتياطية نلجأ اليها اذا ما أعاقنا عائق في الطريق .

ـ أين السائق؟

الركاب : انه يتجادل مع صاحب محطة الوقود .

ـ أعتقد أن ما تبقى من طريقكم هو الأكثر وعورة وخطورة .

الركاب : كل ما نريد أن نعرفه هو الى أين نحن ذاهبون؟ الى حقل ألغام . . حقل ورود . . مغامرة جديدة . . لا أحد يعلم سوى السائق . ها هو يتربّع وراء مقوده ويطلق المنبّهات استعدادا لمتابعة السفر . آه لو نعرف الى أين؟

ـ أنا أسأله . ورحت أشق طريقي إليه بين الركاب وحقائبهم وأمتعتهم وأطفالهم وعجائزهم حتى بلغت مقدمة السيارة . وعندما هممت بسؤاله فوجئت بالحاجز الزجاجي الذي يفصله عن بقية الركاب وبالتحذير التقليدي المعلق وراء ظهره : "ممنوع التكلّم مع السائق" . وعندما رأيت السيارة تنطلق وسط سحابة من الغبار ،وتترنح بدواليبها المهترئة ومحركها اللاهث وأعلامها المرفرفة ببطء من النوافذ تحت سماء تغطيها السفن الفضائية والأقمار الصناعية والطائرات القاذفة المنقضّة والمعترضة ، صرخت والدموع تملأ عيني :

هل مركبة العودة صناعة انكليزية حتى يكون السائق دائما على اليمين؟

* * *

شارلي والمبادرة

قلت له : ارفع صوتك ، انني لا أسمعك .

قال : لكن المقهى ملآن ، والكثيرون يطالعون الصحف بآذانهم كما تعلم .

قلت : قرّب كرسيك مني وفمك من أذني .

قال : أنا مع مبادرة السادات ، ثم تنهّد كمن تخلّص من عبء ثقيل وأضاف موضحاً : لنكن صريحين مع أنفسنا ، وكفانا ازدواجيةً في المواقف وتلاعباً في الألفاظ والعواطف . أليس كذلك يا صديقي؟

فقلت : طبعاً .

فلفّ ساقاً على ساق وقال بخُيلاء : والآن ما رأيك بي يا صديقي .

فقلت له : حمار .

فانتفض من جوابي غير المتوقع ، وسألني بخيبة أمل ممزوجة بالدهشة : ولكن ، ألست أنت مع المبادرة؟

قلت : أبداً .

قال : ولكن مع من إذاً؟

قلت : مع جماعة الرفض طبعاً .

قال : لا أعتقد أنك جاد في موقفك هذا .

قلت : بل جاد كل الجد ، لقد انتهى زمن المزاح وبدأ زمن الجد يا صديقي . وإلا لماذا مات شارلي شابلن والمبادرة في أوجها .

قال : وما علاقة موت شارلي شابلن بقضية الشرق الأوسط؟

قلت : ما من شيء في هذا العالم الا وله علاقة بقضية الشرق الأوسط . حتى موت ماريا كالاس له علاقة بهذه القضية .

قال : كيف؟ اشرح لي هذه العلاقة ، أرجوك .

قلت : ليس عندي وقت ، انني مشغول .

قال : بماذا؟

قلت : بأحداث الساعة طبعاً .

قال : ولكنني لا أراك إلا جالساً تتثاءب في المقهى .

قلت : هذه هي طريقتي في ملاحقة الأحداث الهامة . وكلّما طال تثاؤبي وازداد اتساع فمي ، كانت معاناتي أعمق وأنضج .

قال : وما هي القضية التي تشغل تفكيرك الآن .

قلت : الآن والى الأبد ، قضية فلسطين طبعاً .

قال : ألا يكفي ما قاسيناه حتى الآن بسبب هذه القضية ، وما جرّته على أرضنا وحريتنا واقتصادنا وآدابنا من دمار وخراب وتشويه .

قلت : حتى ولو لم يبق حجر على حجر ، وحرف فوق حرف ، لن نتخلّى عن حبّة تراب من ترابها ، عن برتقالة أو كريفونة واحدة من بيّاراتها .

قال نائحاً : ألا يكفي أيضا ما عانيناه من النكبة حتى الآن من شعراء البيّارات والحمضيات ، حتى تأتي أنت في آخر العمر وتتاجر بهذه القضية أيضاً .

قلت : أنا لا أتاجر . هذا شيء يجري في دمي .

قال : منذ متى؟
قلت : منذ الولادة ، نزلت من بطن أمي وأنا أنادي : وابيـارتاه . . . واكـريفوناه . . . واميكروفوناه . فهل تريدني الآن أن أتخلّى عن كل شيء وآلاف الضحايا تصرخ في قبورها .
قال : ماذا تصرخ؟
قلت : لا أعرف ، لا أعرف سوى ما تقوله أم كلثوم : "أصبح عندي الآن بندقية" .
قال : وماذا تفعل البندقية مع دولة ذرّية؟
قلت : تفعل المستحيل . المهم هو الانسان الذي يحمل البندقية . فاذا ما استسلمنا في لحظة ضعف ، أو لحظة نفط فكيف سينظر الينا ثوّار العالم . ماذا سنقول لأجيالنا؟ أنا مثلاً ماذا سأقول لأولادي؟ هل نسيت ما سببته مبادرة السادات من إحراج عائلي لنزار قبّاني؟
فقاطعني متبرّماً : أم كلثوم ، نزار قباني ، برتقال بيّارات . ماذا تهذي يا رجل ، هذه لغة كانت تصلح في فترة الخمسينيات والستينيات ، ولكنها لم تعد تصلح أبداً بعد التغييرات والتطوّرات الهائلة التي شملت المنطقة والعالم من حولنا . هل تعي هذه المتغيرات والتطورات؟
قلت : طبعا ، أعيها ولا يفوتني شيء منها ، مثلا : كان السادات نائبا لرئيس جمهورية مصر ، فصار رئيسا لجمهورية مصر ، وبيغن أكبر إرهابي في اسرائيل ، فصار رئيساً لوزراء اسرائيل . واليوم هو السبت والبارحة الخميس ، وغداً الثلاثاء ، والاردن على حدود لبنان ، ولبنان على حدود ايران ، وايران على حدود المغرب

والمغرب على حدود السعودية ، والسعودية على حدود الجميع .

قال : اذا لم يكن هذا هذياناً فماذا يكون اسمه؟

قلت : صمود .

قال : ضد من؟

قلت : لا أعرف المهم أنا مناضل ولن ألقي السلاح .

قال : ولكن معظم الدول العربية ودول العالم الكبرى والصغرى راضية بحل سلمي قائم على العدل .

قلت : ليقبل الجميع . أما أنا فلن أقبل ، وسأظلّ صامداً حتى الموت .

قال : هنا في المقهى .

قلت : لا علاقة لك أو سواك أين أصمد . المهم عندي قضية ولن أتخلى عنها .

قال : أفهم من هذا أنك مع استمرار الاضطراب في المنطقة ، وضد السلام القائم على العدل .

قلت له : اسمع يا ولدي ، لا تعذبني وتعذب نفسك وتأكل جوزاً فارغاًمنذ الآن . سلام قائم أو قاعد أو متكىء على العدل أو ستين عدل لن يعيد الاستقرار الى هذه المنطقة ، واذا كنت تعتقد أنت وأمثالك من جماعة المبادرة انه بمجرّد حل قضية فلسطين سوف يتنفس الانسان العربي الصعداء وتعود له حريته ولقمته وطمأنينته فأنتم "مستشرقون" في هذه المنطقة لا من أبنائها ، لأنه بمجرد أن تنتهي قضية فلسطين مثلا ، سيجدون له بعد ٢٤ ساعة قضية أخرى ، بشعاراتها وصحفييها ومطربيها ومخابراتها وقوانين طوارئها . وليس من الضروري أن تكون قضية سياسية ، أبداً . المهم أن تكون "قضيةً" يحكم الحاكمون

باسمها ويستنفرون الشعب للدفاع عنها ، كالنضال مثلا لاستعادة حقوقنا المهدورة من الثروة المائية ، أو لحماية الوطن من الغبار الذرّي وتلوّث البيئة ، وبعد سنة أو سنتين من الخُطب والأغاني والمهرجانات تصبح قضية ، وينقسم حولها العرب ، وتتدخل أمريكا وروسيا وتصبح قضية معقّدة تأخذ لها عشرين أو ثلاثين سنة أخرى .

ولذلك ، أفضل أن نبقى على قضية فلسطين ، فهي على الأقل قضية نعرفها ، وتأقلمنا مع شعاراتها وهتافاتنا ومهرجاناتنا ، ولم يبق لنا من العمر ما يكفي لتجارب جديدة ، وقضايا جديدة .

* * *

صورة وصْفية

من طريقة فتحه لقائمة المأكولات المزدوجة ، عرفت أنه لم يفتح في حياته كتابا أو مجلة .

ومن أذنيه المستديرتين المتعاليتين ، عرفت أنه لم يسمع في حياته نشرة اخبار أو تعليق سياسي .

ومن أسلوبه في نفض المملحة فوق صحونه ، عرفت أنه قد نفض يديه من هموم هذا الوطن منذ سنوات .

ومن قدميه المنفرجتين تحت المائدة ، عرفت أنه جاهز للسير في طريقين متعارضتين في وقت واحد من أجل مصلحته ولو انشق الى شقفتين .

ومن ظهره الواسع كمحضر بناء .
ونقرته الحفرة الغبراء كشارع الثورة .
وصديقته الرابضة أمامه كالجرّافة .
عرفت أنه متعهّد بناء!!

* * *

وغلى الدم في عروقي ، وغلت القهوة الباردة في فنجاني تعاطفا وتأييدا لمشاعري ، وهاجت بي رغبة وطنية وعمرانية لاهبة في الانتقام

منه ومن أمثاله . فوراً وفي الحال .

إذاً هذا هو خصمي وغريمي . وبسببه هو وأمثاله لا تجدني في الباص إلا واقفاً .

وأمام الأطباء إلا شاكياً .

وأمام نشرات الأخبار والتعليقات السياسية إلا مزمجراً أو شاخراً . بسببه ، هو واصدقائه تدور نصف صيدليات البلد فلا تجد قطرة للأنف أو شرابا للسعال . بينما تجد ألف صنف وصنف من الجن والويسكي والفودكا والشمبانيا .

بسببه هو وأمثاله ، كلما قرع السمّان الباب في آخر الشهر أهمس لزوجتي وأنا أتصنّع النوم ، قولي له : غير موجود .

وكلما جاء من بعده اللحّام ، أهمس لها وأنا أسرع الى التواليت ، قولي له : لقد سافر .

وكلما جاء من بعده الغضب الأكبر صاحب البيت ، أهمس لها وأنا أصعد الى السقيفة ، قولي له : لقد مات .

بسببه هو وأمثاله : خلاصة تجاربنا في التنظير والتنمية ، في الاشتراكية المتطرفة والمعتدلة ، أوجاع السياب وآهات سيد درويش وتصوّف صدقي اسماعيل ترقد في بطنه المرتاح على حافة المائدة .

هل أعضه في رأسه؟

أم أطبق أصابعي حول عنقه وأظل أضغط وأضغط حتى أستعيد كل ما هو مسلوب ومنهوب منذ أجيال؟ أراهن أنه في هذه الحالة لن تنبثق من فمه سوى الخرائط ومعدات البناء ومن كل أذن من أذنيه رقم مسؤول أو دفتر شيكات .

أم أضع أمامه ما معي من روشيتات ووصفات وأقول له : يا أخ

موتّونا . أو ألِفَّ ما في جيبي من أسعار السلع والحاجات حول رأسي وأرقص أمامه وأقول له : يا أخ جننتونا .

أم أضع رأسي على كتفه باكيا وشاكيا ما نعانيه؟

ولكن أتراه يفهم كلمة مما أقوله عن الوطن والحرية ويأس الجيل الماضي وذعر الجيل الآتي؟

بلى انه يفهم . ولذلك يجب أن أسايره ولا أغضبه فهو وأمثاله بطريقة أو بأخرى لهم تأثير الطاعون على السياسة والأدب والفكر والشعر والنثر والزجل .

فمن يدريني اذا كان هذا المتعهّد في سهرة عامرة مع أحد الوسطاء والموظفين الكبار ، وسكرت جليسته وتصنّعت الغنج والصداع وقالت :

لا أحب صوت هذا المطرب ، دبروه . أو لا أطيق قصيدة النثر ، إلغوها . لا . لا . متعهد بناء ، شق طرقات ، شق صفوف . ما لي ووجع الرأس هذا؟ وهل عليّ أنا المواطن الأعـزل أن أدفع ثمن سنوات من الأخطاء والتجاوزات والسهرات . وأنا بالكاد أدفع ثمن قهوتي هذه . وصفّقت بقوة ، في الظاهر للكرسون وفي الحقيقة للمتعهد الذي نهض وسار ويسير حيث يشاء دون أن تعترض طريقه حصاة . وإن شاء الله يأتي وقت يلتزم فيه متعهدو بناء المخازن وصوامع الحبوب ، بناء النهضة المسرحية والأدبية والموسيقية في هذا القطر .

* * *

اكتشافات أرخميدس

بعد تجربة لمدة أسبوعين من الشهيق والزفير في الوطن العربي ، اكتشفت أن الانسان ، ليس من الضروري أن يكون في منجم أو أن يضع أنفه على قارورة غاز مفتوحة ، ليشعر بأنه على وشك الاختناق ، فقد يكون على قمة جبل أو في حديقة ليمون برّي ، ومع ذلك يشعر بأنه على وشك الاختناق .

كذلك ليس من الضروري أن يكون الانسان محاطا بالفِيَلة والقرود والنمور وصرخات طرزان ، لكي يشعر بأنه يعيش في غابة . فقد يكون في حفلة راقصة ، محاطا بالابتسامات والانحناءات ، ومع ذلك يشعر بأنه يعيش في غابة .

كذلك ليس من الضروري أن يشاهد الانسان قبل النوم فيلما لهيتشكوك ، ويقرأ بعده قصة لادغار ألن بوحتى تنتابه الكوابيس ويطبق عليه الرعب والخوف من كل جانب . فقد يشاهد فيلما كوميديا لشارلي شابلن . ويقرأ قصة أطفال لاندرسون . ويسمع أغنية عاطفية لدوريس داي .وم ذلك يشعر بأنه ينام مع هيتشكوك وادغار ألن بو وأجاثا كريستي وفهد بلان في غرفة واحدة .

وقد تخرج من بيتك صباحا وأنت حليق الذقن مسرَّح الشعر

باسم المحيّا . وفي جيبك مفتاح البيت ومفتاح المكتب ، ومفتاح السيارة ، ومفتاح قضية الشرق الأوسط . ومع ذلك تشعر بأنك لا تملك أي شيء ولن تصل الى أي شيء .

شكراً للثورة العربية الظافرة . بقدر ما يخاف عليها الآخرون . أخاف منها .

انني لست معارضا لهذا النظام أو ذاك . ولا أنتمي لأي حزب أو تنظيم أو جمعية أو ناد حتى الى النادي السينمائي . ومع ذلك فالخوف يسيل من قلمي وأصابعي وأهدابي كما يسيل الحليب الفائض من ضرع الماشية العائدة من المرعى .

الخوف من التأييد ومن المعارضة .

من الاشتراكية ومن الرأسمالية .

من الرفض ومن الاعتدال .

من النجاح ومن الفشل .

من قدوم الليل ومن قدوم النهار

حتى لأتوقع بين ليلة وأخرى أن استيقظ ذات صباح فاكتشف وأنا أحلق ذقني أمام المرآة ، أن شفتي العليا مشقوقة كشفة الأرنب ، وأن أجد على طاولتي في المقهى أو في المكتب ، بدل كومة الصحف والمجلات كومة من الجزر والفصة .

شكراً مرة أخرى للثورة العربية الظافرة .

ترى! اذا ما دعيت الى حفلة تعارف بين صحفيين وكتّاب ومراسلين أجانب ، فكيف سيقدمني عريف الحفلة اليهم؟

أيقول لهم : أقدم لكم الأرنب فلان ، ليحدثكم عن معارك العرب وانتصاراتهم على الاستعمار والامبريالية والصهيونية في المستقبل؟

أنا متشائم ومتطير . فلا يأخذنَّ أحد بكلامي .

ثم انني مريض ، فكلما سعلت ، انبثقت عشرون حبّة أسبرين من أنفي .

وكلما قرأت خبراً وضربت على صدري ، طلعت منه ألف علبة مارلبورو مهرّب .

وإن شـاء الله تُحـرَّر فلسطين وتُستـعـاد الأندلس . وتُطبَّق الاشتراكية ، وتُحقَّق العدالة في المنطقة وفي العالم كله .

فإن كل ما اريده منها ومن جميع الأحزاب والقوى التقدمية في الوطن العربي أن يتقدّم بي العمر بأقصى سرعة .

* * *

كتم معلومات

كان روّاد الحانة يسألون من الذي اخترع الراديو ، وأنا أسأل من الذي اخترع العرب . ثم وضعت أمامي على طاولة الشراب صورة للرئيس المتحضر أنور السادات ضمن إطار مزخرف وعلى جانبيها وضعت ما تيسّر لي الحصول عليه من صور الزعماء الذين تعاقبوا على هذه المنطقة . ثم وضعت يدي على خدي ورحت أتأمل هذه "المازة" العجيبة ، ثم شربت ويسكي بالثلج وويسكي بدون ثلج ، وجن مع التونيك ، وجن مع الليمون واتبعته بنبيذ وفودكا وبراندي وشربراندي وزنزانو ، لأهضم الوضع العربي فلم أستطع .

كان أمامي شيئان لا ثالث لهما : العرب واسرائيل؟

هي دولة واحدة ، ونحن ٢٢ دولة .

هي عندها جيش واحد ، ونحن عندنا ٢٢ جيشاً .

هي عندها برلمان واحد ، ونحن عندنا ٢٢ برلماناً .

هي عندها شعب واحد ، ونحن عندنا ٢٢ شعباً .

هي عندها موقف واحد من المقاومة الفلسطينية ، ونحن عندنا ٢٢ موقفاً منها .

هي عندها تفسير واحد لكل قرارات مجلس الأمن ، ونحن عندنا ٢٢ تفسيراً لكل قرار من قرارات مجلس الأمن .

هي عندها سياسة واحدة تجاه كل دولة صديقة أو عدوّة ، ونحن عندنا ٢٢ سياسة تجاه كل دولة صديقة أو عدوّة .

هي عندها اذاعة واحدة ، ونحن عندنا ٢٢ اذاعة .

وهي عندها جهاز واحد للأمن ، ونحن عندنا في كل شارع وكل مضرب بدو ٢٢ جهازاً للأمن . ومع ذلك دائماً ، لا تراها إلا منتصرة علينا في كل مجال . ونحن لا ترانا إلا مهزومين نائمين على صدر تلك الدولة أو في احضان ذلك المؤتمر .

لماذا؟

لماذا ، إذا ما مات صوص في اسرائيل ، تقطع برامجها الاذاعية والتلفزيونية وتظل تمطر المستمعين من الصباح الى المساء بموسيقا بيتهوفن وموزار ومندلسن احتراماً لذكرى ذلك الصوص الراحل . بينما عندنا ، فيما المقاومة تُذبح وجنوب لبنان يستباح ، فإن الإذاعات والتلفزيونات العربية لم تستمر فقط في متابعة تمثيلياتها الفكاهية وبرامجها الترفيهية فحسب ، بل لم تتوقف يوماً واحداً عن تقديم مشورتها "الطبخة اليوم" من لحظة شراء المواد الأولية حتى لحظة تقديمها على المائدة مع البهارات والمقبّلات . لماذا؟

لماذا ، نجد هذه الدولة أو تلك ، لا تكفّ عن التنديد بسياسة أميركا وأخلاق أميركا وسياسة أميركا تجاه قضية فلسطين والقرن الأفريقي وروديسيا وقبرص وفييتنام والتمييز العنصري ، في كل مجال ، وفي كل مناسبة ، ومع ذلك نجد أهم المرافق الاقتصادية والمشاريع الإنمائية في هذه الدولة تموّل بمساعدات أميركية وتديرها شركات أميركية . لماذا؟

لماذا ، لا تُسلّط الأضواء من مشرق الوطن العربي الى مغربه وفي

هذه المرحلة الخطيرة التي نمرّ بها إلا على المزوّر من الكُتّاب والمائع من المطربين ، والوصولي من السياسيين ، بينما الأصلاء والمُبدعون منبوذون كالقطط الهزيلة في عتمة القهر والنسيان .

بل لماذا إذاً ، ثلاثون سنة من الانقلابات والبلاغات والاعتقالات والتصفيات والمهرجانات والخطابات؟ ثم لماذا ، وفي نهاية هذه الثلاثين سنة من الترقّب والانتظار ، وبعد زيارة الرئيس السادات لاسرائيل مباشرة ، تعلن منظمة التغذية الدولية عن ترخيص سعر العدس في هذه المنطقة؟

لماذا؟

لماذا تُفرض على هذا الشعب التعس النبيل من محيطه الى خليجه أقسى وأطول "حمية" في التاريخ :

حمية عن الحرية .

حمية عن الديمقراطية .

حمية عن الحب ، عن الفرح ، عن التظاهر ، عن السفر ، عن العودة ، كأنه مصاب "بقرحة أبدية" ، وعليه أن يعيش الى ما شاء الله على الحريّات المحمّصة والبرلمانات المسلوقة . لماذا؟

لماذا؟ لماذا؟ لماذا؟

من يجيب على هذه الأسئلة وغيرها وغيرها؟ لا أحد .

أنا سأجيب عليها ، فلقد وصلتُ الى مرحلة لم يعد يهمني فيها شرق أو غرب ، فترة حرجة أو غير حرجة ، إذ لم يعد من الجائز أن يظل الشعر والمسرح والصحافة الى ما شاء الله أسرى المساعدات النفطية وسواها بحجة الأخوّة الإسلامية و"التضامن" العربي .

وشربت ما تبقّى أمامي من أقداح وشربت فاتورة الحساب

وانطلقت في الشوارع المظلمة وقلمي بيدي .

ولكن ، وأنا أرتّب طاولتي استعداداً للأجابة على تلك الأسئلة ، ما إن لمحت في إحدى المجلات المصوّرة طرف "برغي" في دبابة ، حتى أغلقت الباب والشبابيك وأغلقت فمي ونمت .

* * *

الحطّابون

أطفأت الراديو والتلفزيون والبرّاد والبوتاغاز وأشعلت ثلاث لفائف دفعة واحدة وخرجت الى الشارع بالبيجاما ، وقلت لصديقي الذي ينتظرني كعادته كل ليلة عند مدخل البناية : والله . . . المواطن لا يعتدي على أنظمة الحكم ولا يتحركش بها ، هي التي تعتدي عليه وتتحركش به .

يكون المواطن ذاهباً الى عمله أو عائداً الى بيته وقوفاً في الباص وهو ممسك بسترة الجابي أو ياقة السائق حتى لا يسقط هو وخضراواته وحقيبته بين أرجل الركاب ، فيعلن المذيع من راديو الباص أن الشعب متمسك بأهداف أمته في النصر والتحرير ولن يفلتها من بين يديه أبداً .

وفي المساء ، بعد أن يكون قد تناول عشاءه ودبّر ألف حيلة لينام أولاده باكراً ، يتربّع أمام شاشة التلفزيون ممنياً النفس بسماع أغنية جميلة أو تمثيلية مسلية أو دبكة ممتعة تعوضه عن متاعب الوظيفة ومشاق النهار وإذ بالأغنية تُقطع والتمثيلية تُلغى والدبكة تُؤجّل وتُبعد حتى أزرار الصوت والإضاءة جانباً ليطلع له من قلب الشاشة مخلوق لم يره ولم يسمع به أحد من قبل ، وليعلن المذيع بحماسة ما بعدها حماسة بأن الأخ ، مناضل ، وأنه كان في زيارة ودية لقبرص أو زامبيا أو

زيمبابوي ، وأنه عاد بالسلامة وأن رأيه كذا بالشعب القبرصي وكذا بزامبيا وزيمبابوي . وكأن المواطن ما اشترى التلفزيون وصعد ألف درجة ليركّب له (الهوائي) على سطح البناية معرِّضاً نفسه للسقوط من علو عشرة طوابق إلا ليسمع بعد ذلك رأي الأخ بزامبيا أو زيمبابوي .

وفي سهرة أنيسة أخرى يطلع له مخلوق آخر ذقنه مقسومة الى قسمين مثل كوريا الشمالية وكوريا الجنوبية ليحدثه عن الوحدة وأهمية الوحدة ، أو شخص أولاده يدرسون في بلد وزوجته تصطاف في بلد وهو وشركاته ومعامله يقيمون في بلد ليحدثه عن الارتباط بالأرض وضرورة التضحية في سبيل الوطن والقضاء على المؤامرات التي يتعرَّض لها .

بصراحة : لا ينقص أجهزة الإعلام العربية إلا أن تُسَيِّرَ "منادياً" في الشوارع والحارات يدق على الطبلة وينادي : يا جماعة مَنْ لم يشتر جهاز تلفزيون أو راديو ولم يشترك في جريدة ومازال يؤمن ببعض القيم ويتعاطف مع بعض القضايا فليبادر الى ذلك فوراً . حتى لا يظل مواطن في المنطقة يحترم أو يتعاطف مع قضية .

بل كأن الشعوب العربية لا تحكمها منذ الخمسينيات أجهزة حكم من لحم ودم ، بل فؤوس ترتدي القمصان وربطات العنق ، تستعمل الهاتف وتحمل الحقائب وتتأبط الملفات ، مهمتها أن تقطع كل صلة بين المسؤول وشعبه ، والطالب وكتبه ، والعامل ومعمله ، والفلاح وأرضه ، والتاجر وزبونه ، والكاتب وقارئه ، والمطرب ومستمعه ، والأب وأولاده ، والطفل ودميته ، والعصفور وعشه ، والعلم وساريته .

وبعد ذلك يحدثونك عن المؤامرات التي تحاك ضد الوطن العربي وقضاياه المصيرية . تُرى لو أن مواطناً عربياً ما ، ولنفترض أنه سائح أو

مستشرق ، لبّى الدعوات المنهالة عليه للوقوف في وجه هذه المؤامرة والتضحية في سبيل الوطن وقضاياه المصيرية . أفلا يحق له تأمين قوت عائلته من بعده؟ ألا يحق له السؤال كم سعر البطاطا؟ كم سعر دمه؟ كم سعر فلسطين؟ وجنوب لبنان وشمال اليمن؟ وكيف يتم البيع بالكيلو أم بالمتر أم بالجملة؟ ثم ما سر الحوار العربي الأوروبي ومحادثات الحكم الذاتي ولقاءات فيينا والقرار ,٢٤٢ ومن منها ضد القضية ومن منها لصالحها؟ أجبني يا صديقي ، أجبني قبل أن أتورّط وأستشهد .

وهنا جاء الحارس الليلي مهرولا وسألني بارتياب : مع مَنْ تحاضر في آخر الليل؟ مع مَنْ تتحدث؟ قلت : مع صديقي الوحيد . ألا تراه ممدداً أمامك .

ولّما لم يجد أحداً قال مستفظعاً : أتتحدث مع الرصيف؟

قلت : نعم مع الرصيف . أنا لم أعد حفيد عدنان وقحطان . لقد صرت حفيد الحجر والأسفلت .

قال : ماذا جرى للناس في هذه الأيام؟ هذا يتحدث لرصيف . وذاك الى صندوق بريد . وآخر لسقيفة حانوت .

قلت : لو أن أحداً صارحنا وكشف لنا الحقائق لما لجأنا الى ما لجأنا اليه .ولو لم يشعر الرأي العالم العالمي بما يعانيه الشعب العربي من إهمال وعزلة عن كل ما يجري حوله وتعطشه الى الحوار والمناقشة حول قضايا مصيره ووجوده لما بادرت اذاعة مونت كارلو منذ أكثر من شهرين ، الى دعوة كافة المستمعين العرب لاجراء حوار مع . . . البقرة الضاحكة . وهنا صرخ الحارس وشهر مسدسه الفارغ وقال : أعوذ بالله . شعب بكامله يدعى للحوار مع بقرة؟ ماذا سنفعل؟ ماذا ستفعل أنت؟

قلت : شيء أفضل من لا شيء . سألبي الدعوة ، سأحمل معي

ملفاً بكل القضايا السياسية والقومية والثقافية التي تؤرقني وبكل الأسئلة التي لا أجد لها جواباً ، وأسافر منذ الغد الى أول مرعى في مونت كارلو ولكن ما ارجوه من الله ألاّ يكون نصيبي بقرة متشنجة أو مرّت في طفولتها في مرعى عربي ، لأننا عند ذلك لن نصل الى نتيجة ونقضيها خطابات ومزايدات .

* * *

القميص

ما كدت آخذ مكاني المعتاد في واجهة المقهى ، وأفتح دفتري استعداداً للكتابة عن الآلهة التي أحب ، عن فمها وعينيها وذقنها اليتيمة المستسلمة كرمح يبكي حتى جاء من يغلقه ويقول لي باستعجال ظاهر : انهض لقد تأخر بنا الوقت .

قلت مندهشاً : أنهض الى أين؟

قال : أسرع سأخبرك في الطريق .

قلت : لن أذهب ما لم أعرف الى أين .

قال : سنحضر مهرجاناً خطابياً في ذكرى اغتصاب فلسطين .

قلت : آسف . ليس عندي وقت وانصرفت الى دفتري .

قال : ولكن المهرجان هذه المرة ستكون غالبية حضوره من المثقفين والثوريين .

قلت له : ألعنين .

قال : أستغربُ من شاعر مثلك أن يتخلّى عن هذه القضية الجوهرية بهذه السرعة . على الأقل ، تذكر كشاعر ليمون يافا وبرتقال حيفا .

قلت له : يا صديقي ان المتاجرين بهذه القضيةمن شعراء وسياسيين ومناضلين ، جعلوني لا أكره ليمون يافا وبرتقال حيفا فقط ، بل كرّهوني

بفيتامين "سي" بأسره .

قال بحزن : أفهم من هذا أنك نبذت النضال والكفاح من ذهنك وانصرفت الى شؤونك الدنيوية التافهة كغيرك؟

قلت له : بصراحة ، انني مستعد لأن أحضر معك أي مهرجان خطابي يتعلق بقضيتنا الجوهرية "فلسطين" على مدار العام لنصرتها ، للتضامن معها ، للدعاية لها ، ولكن لاغتصابها ، فلن أحضر ثانية واحدة ولو جُررت جرّاً أمام الناس .

قال : عجيب ، ما هي الأسباب؟

قلت وأنا أشد ربطة عنقي بإحكام : بسبب قميص .

قال : لم أفهم .

قلت : اسمع يا صديقي ، القصة وما فيها ، انني إنسان طول عمري أحب الهدايا ، وأفرح وأزهو بها كالأطفال ، وآخر مرة جاءتني "كرافات فاخرة" كهدية ، كدت ألبسها بعلبتها من فرحي بها وزهوي بماركتها . ولكنني في المقابل لا أحب أن أهدي احداً أي شيء . مرة واحدة فقط أخذت علبة شوكولاته لأعز أصدقائي في المستشفى . . أكلت معظمها في الطريق .

والواقع ، لم أكن أنا المسؤول عن هذا السلوك الغريب . . بل الأيام والشهور الطويلة التي قضيتها في هذا السجن أو ذاك هي المسؤولة عن ذلك . حين كان الوطن يقدم لي منذ نعومة أظافري ومبادئي . . المأوى والمأكل والمشرب والاستحمام والمعالجة وقص الشعر "مجانا" دون أن أقدم له بالمقابل سوى صراخي وقدمي المرفوعتين . ولذلك ، كنت عندما يُطلق سراحي الى الحياة العامة ، أستغرب أشد الاستغراب وتعقد الدهشة لساني وجيوبي عندما أجد نفسي مضطراً لأن أدفع

النقود لكي آكل وأشرب والبس وأنام . بل وظللت لفترة طويلة ، كلما سددت حسابا في مطعم وقال لي صاحبه : "يعوّض عليك" أتمنى أن أضربه بساطور على وجهه .

وفي فترة من الفترات التي أعقبت خروجي من السجن ، وحيث كنت في حالة يرثى لها فكراً وهنداماً ، أتسكّع هنا وهناك ، ضامر الجسد ، رث الثياب ، مجردم الشعر ، منبوذاً يائساً من أي صديق أو حزب ، جاءني قميص برتقالي فاخر ،كهدية من صديق لي في باريس . ومع أنني عندما ارتديته بدوت به مع نحول عنقي وحداثة سني واصفرار وجهي مثل شو إن لاي وهو في الاعدادي أو الثانوي ، إلا أنه أعاد اليّ الثقة بنفسي وبالعالم من جديد . وشعرت وأنا أزرر ياقته وأتأمل ألوانه تحت سترتي البالية الرثة ، بأنني قادر على استئناف نشاطاتي السياسية ومناقشاتي الفكرية مع أي كان في هذا الوطن .

ولكن كان في المدينة حينذاك شاعر عربي مرموق ، مختص بقضية فلسطين وبالقضايا الأخرى المتفرِّعة عنها ، وكان بالاضافة الى ذلك ، مشهوراً بأناقته وحسن تمييزه من أول نظرة للثياب الفاخرة وماركاتها المشهورة . ولذلك ما إن رآني في واجهة المقهى حتى ضربت عينه على القميص . وقبل أن اشرح له أهمية هذا القميص بالنسبة لي كهدية ، والظروف التي عانيتها وأعانيها ، حتى يأخذ عندي هذه المكانة ، عرض عليّ سعراً مغرياً لشرائه . ولما كنت في وضع مادي يجعلني أبيع حتى حواجبي فقد وافقت على بيعه وأنا أكاد أبكي من الحزن عليه . ولم أجد نفسي تحت ضغط إلحاحه ولجاجته إلا وأنا أخلعه وأعطيه إياه . ثم جلست في المقهى انتظر عودته ريثما يذهب ليجربه ويحضر لي النقود . وانتظرت يوماً ، يومين ، ثلاثة دون أن أسمع

عنه خبراً أو أرى لنقوده أثرا .

ومضت الأيام والليالي الى أن ساقتني المصادفة لحضور مهرجان خطابي في ذكرى اغتصاب فلسطين . وهناك اكتشفت أن نجم المهرجان المتألق والمحمحم الأول وراء الميكروفون عن الاغتصاب هو صديقي الشاعر مرتدياً قميصي بعينه . ومنذ ذلك الحين لم أحضر مهرجاناً من هذا النوع ولو كان في ذكرى اغتصاب أمي .

وهنا قال جليسي الشاب الثائر : وهذا بالضبط ما يريده الاستعمار والامبريالية . . أن يتخلى كل انسان في هذا الوطن عن القضية لتبقى عاريةً الى الأبد بانتظار ورقة تين أو ورقة مبادىء . ثم أطفأ سيكارته "الكنت" في منفضتي بغضب ، وانصرف عني بكل عصبية وانفعال .

* * *

الأخضر والأحمر

قلت لجابي الكهرباء وأنا أعدو وراءه حافياً حتى الدرج والفاتورة بيدي : تعال لا تهرب ، وفسّر لي هذه الفاتورة العجيبة! (٩٠) ل .س . لماذا؟ هل أدير معمل تريكو في بيتي حتى أنفق كل هذه الكمية من الكهرباء؟

قال : ولكنه عن ثلاثة شهور .

قلت : حتى لو كان عن ثلاثة قرون فهو غير عادل بالنسبة لدخلي ، وغير منطقي بالنسبة للفواتير السابقة . اذ كيف يكون المبلغ ١٦ ليرة عن الشهر الأول و١٩ عن الثاني و٥٣ عن الشهر الثالث؟

قال : ربما صرفتم في هذا الشهر أكثر من سواه .

قلت : بالعكس . هذا الشهر بالذات ، كان أكثر شهر انقطع فيه التيار عندنا . تعال وانظر أعقاب الشموع في جميع أرجاء البيت ، على ظهر البرّاد ، على طرف المغسلة ، على حافة الطاولة ، انظر هذا بيت أم أبرشية؟

قال : لا أعرف . راجع المؤسسة .

وأشار عليّ بمراجعة حسني أفندي .

ولكن حسني أفندي ما إن رآني والفاتورة بيدي حتى أشار عليّ بمراجعة كل من في الدائرة دون جدوى ، حتى جاء من يحوّلني في

نهاية المطاف الى الموظف في الصدر، رأسه يلمع من بعيد كمصباح فيليبس، باعتباره حجةً في مثل هذه الإشكالات .

فقصدته في الحال يتبعني رهط من المراجعين الذين جاؤوا مثلي لشرح تظلماتهم وأوضاعهم الكهربائية الراهنة ، ولكننا لم نجده حجةً إلا في التهام السندويش ـ لقد كان يلتهم الواحدة بعد الأخرى دون توقف . بيض ، مرتديلا ، نخاعات ، حتى خفنا أن يلتهم الفواتير من أيدينا .

وأخيراً قال لنا ما معناه ، أننا لو راجعنا كورت فالدهايم ، لن نستفيد شيئاً ، ولن تنقص الفواتير قرشاً .

وأمام هذا الجواب القانوني الذي ما جئنا إلا لسماعه ، نكصنا على أعقابنا عائدين من حيث أتينا باتجاه أمين الصندوق وأمرنا لله .

ولكن وأنا أدفع . . .

وأنا أرى الأيدي المعروقة تمتد بقيمة الفواتير الى الموظف المختص ، لاحظت أن كثرة الإنفاق غير الطبيعي في التيار الكهربائي ، والتي كانت موضوع الشكوى والاستفسار الفاشل تقع كلها بدءاً من شهر كانون الثاني لهذا العام . وأخذت اتساءل عن السر في هذا التوقيت العجيب .

وكان أول خبر قرأته في احدى الصحف العربية وأنا أغادر مؤسسة الكهرباء هو : "ضوء أخضر أمام زيارة وزير الخارجية الايطالية للمنطقة" .

وهنا تذكرت أنه فعلا منذ مطلع هذه السنة ونحن لا نقرأ في الصحف ولا نسمع في الاذاعات الا :

ضوء أخضر أمام زيارة فانس للمنطقة

ضوء أخضر أمام زيارة فالدهايم للمنطقة
ضوء أخضر أمام زيارة غرنغو للمنطقة
ومنذ ذلك التاريخ ، أخذت فواتير الكهرباء تقفز قفزات جنونية .
أترانا بدأنا بتسديد ثمن "تيار" الحل السلمي من جيوبنا ونحن لا ندري؟

* * *

نُوم الهنا

هبطت الشارع ورأسي يعج بأبواق السيارات وأصوات الباعة وصفير الشرطة ، عندما سمعت صوت صديق قديم يناديني : الربيع . . . الربيع ، لقد أتى منذ شهر ولم يشعر به انسان . أين يمكنك أن تعثر عليه في مثل هذه الغابة المعدنية النامية ، ان المرء العاطفي من أمثالنا أصبح بحاجة لأن يطلق "منادياً" في الشوارع والأسواق ليبحث عنه ويعثر عليه .

فقلت له : من جهتي ، متى أتى الربيع ومتى ذهب ، لم يعد يعنيني في شيء . انه بالنسبة لي مثل أي دبلوماسي يزور المنطقة .

فقال : لا . . أما أنا فما زلت كما تعرفني : الربيع بالنسبة لي هو كل شيء . الشعر والموسيقا والصحافة والعالم أجمع . ما إن يقبل حتى أشعر بأن كل شيء في أعماقي أخذ ينمو ويتفتح ، حتى لأخشى أن تزهر فواتير الماء والكهرباء التي أحملها وتتدلى أغصانها من جيوبي . انه يأتي باسطا ذراعيه الخضراوين على امتداد العالم داعيا الى الحب والقبل والعناق . ولكن النساء في بلدنا مشكلة . تتعرف على احداهن ، فتأخذك الدهشة من جمالها ، ويستقيم حاجباك اعجابا برقتها ونعومتها وتهذيبها واناقتها . ولكن ما إن تنزع عنها هذه القشور الخارجية ، حتى تكتشف انها لا تحتاج الا الى طاقية وشوارب وخال ،

لتكون "أبو صياح" آخر .

تتعرف على واحدة ثانية فتذهلك بثقافتها وزهدها وعزوفها عن كل شيء الا القضايا الوطنية والطبقات الكادحة لا في بلدها فحسب ، بل وفي المنطقة كلها . وعندما تسألها ، وأين تحبين أن نسهر الليلة؟ تجيبك على الفور : في الميرديان طبعا! هل تعرف ماذا يعني الميرديان لواحد دخله كدخلنا . أجبني أرجوك .

فقلت له : لا اعرفه . مرة واحدة فقط قصدته للاطلاع من كثرة ما تحدثت الناس عنه ، ولكن ما إن جلست الى مائدة الطعام وقرأت لائحة الاسعار ، حتى جفلت كأن كلبا عوى في وجهي ، وهربت ركضا الى الشارع والفوطة على صدري .

فقال صديقي : تماما هذا ما كنت أعنيه . المهم . . تتعرف على واحدة ثالثة ، لا تحب المطاعم الفاخرة والسهرات الاستعراضية ، ولكنها تحب الثياب الفاخرة والتبرج والزينة الطنانة للفت الأنظار ، بحيث لا تحب أن تذهب ولو الى باب الدار ، الا اذا كانت كلها تخشخش بالحلي والأساور والأجراس مثل ملك نيبال في مؤتمر كولومبو .

واذا وقعت بعد تطواف طويل على واحدة متواضعة لا يهمها سهر أو ثياب أو طعام أو حلي . أو غير ذلك من بهارج الدنيا ، وكل ما تريده هو الزواج والسترة تحت سقف وبضعة جدران ، تفاجئك بطلب "مقدم ومؤخر" يشتري الميرديان بنفسه .

بصراحة أنا أفهم على الخرسان والطرشان والمكفوفين ، ولا أفهم على نساء هذا البلد . . والمشكلة ، انني شاب أمّور بالصحة والعافية والرغبات ولا أضمن أن تمر الأمور معي بسلام حتى نهاية فصل الربيع وكل شيء يدعو الى البهجة والانشراح والحب . اذ كلما أويت الى

فراشي وحيدا في آخر الليل ، وسمعت أغاني فريد الأطرش وعبد الحليم حافظ تنفر من عيني الدموع شوقا وحنينا الى الحب . فماذا تنصحني أرجوك؟

فقلت له : انصحك بحب السلطة والمسؤولين .

فقال مستغربا : ولكنني أحبهم ولا أكرههم . انني أريد حباً من نوع آخر . . حباً عاطفياً فيه آهات وتنهدات .

فقلت : تستطيع أن تقف أمام البنك المركزي وتتنهد طول النهار .

فقال : وفي الليل ماذا أعمل؟

فقلت له : تتمدد على الرصيف وتعانق مبنى مجلس الشعب .

* * *

القافلة

منظر غريب استرعى انتباهي في شارع ابي رمانة . عدد من المارة كلهم يعرجون في ايقاع واحد على أحد الأرصفة ، وينظرون الى ساعاتهم ويحثون بعضهم على الاسراع ، وعندما سألت ما الخبر قيل لي أنهم يقصدون عيادة جديدة افتتحت هناك لتقديم الأدوات والخدمات الصحية لراحة القدمين ، فقلت حيا الله الرقي والتقدم . فبعد أن زالت من الوطن العربي كل الأسباب التي كانت تنغص على المواطن حياته من سياسية واقتصادية وفكرية ، لم يعد في الواقع ما يزعجه سوى بعض الآلام الطفيفة في القدمين بسبب ضيق حذاء ، أو سكربينة عالية ، أو رقصة طويلة هادفة في مربع ليلي . . ولذلك راقتني الفكرة ، ولحقت بهم فورا وأنا أعرج مثلهم وأكثر . ولكنني لم أصل الا والعيادة على وشك الاغلاق . والطبيب يعالج عددا من ذوي الحالات الخاصة النادرة . كان المريض الأول يتأبط عددا من الكتب والصحف والمجلات وقد كسر كعب قدمه اليمنى ، ولذلك تقدم نحو الطبيب وهو يحجل ويتألم ويشكو مزمجرا وقال : أنا يا دكتور انسان عصبي ، ومنذ وعيت على الدنيا وأنا أشهد أمورا كثيرة تجري على الساحة العربية من وراء ظهورنا نحن المواطنين ، وكلما قرأت خبرا أو استمعت الى تعليق أو أغنية من هذا النوع ، أدق قدمي في الأرض وأصرخ : نحن هنا يا

جماعة نحن هنا ، الى أن كسر كعبها . أرجوك يا دكتور إنني انفعالي وقدمي هي الوسيلة الوحيدة التي أعبر فيها عن رأيي . .

الدكتور : لا عليك ، خذ هذه الروشيتة الى العصرونية واشترِ كعبا من البلاستيك مزودا بنابض كما هو مكتوب . لأنك ستدق قدمك كثيرا بالأرض في المستقبل . كما ان له ميزة اضافية اذ يجعلك بعد كل ضربة تنط في الهواء بعيدا عن الواقع ثم تعود اليه . طبعا .

ثم تقدم المريض الثاني وهو يحمل في ذراعه سلة معبأة بالأحذية البالية وقال : أنا يا دكتور مشكلتي بسيطة ولا تأخذ من وقتك كثيرا وهي باختصار : منذ سنوات ، الاسعار تركض وأنا أركض وراءها ، وأنا رب عائلة ولا استطيع انفاق كل دخلي على الأحذية ، انقذني من هذا المصروف .

الدكتور : ليس امامك الا ان تتوظف في شركة "باتا" لانك ستركض اكثر في المستقبل .

ثم تقدم المريض الثالث بصعوبة ، اذ كانت قدماه منتفختين ، وقد فاض ورمهما من حافة الحذاء كما تفيض البيرة من الكأس وقال : مشكلتي يا دكتور أنني منذ سنوات انتظر تحرير الأرض المحتلة . انني انتظر ان يتم الأمر بسرعة .

الدكتور : والطاقات العربية "محشودة" بهذا الشكل؟

المريض : نعم .

الدكتور : إذاً ، أنت بحاجة الى خف جمل لأنه سميك وصبور .

ثم تقدم المريض الرابع ولم يظهر من نهاية بنطلونه الا بقايا قدمين في بقايا حذاء ، وقد تشابكت أصابعهما كالخطوط الهاتفية في ليلة عاصفة ، وبرز الابهام الى الأمام كأنه يستطلع الطريق قبل كل

خطوة ، وقال : انني أسير منذ ولادتي على طريق النضال من أجل التضامن العربي . . الاجماع العربي . . . الوحدة العربية أو أي شيء من هذا القبيل .

الدكتور : بالأوضاع السياسية الراهنة .

المريض : نعم .

الدكتور : إذاً ، راجع طبيبا بيطريا ، لأنه يلزمك حدوتا حصان .

أما المريض الأخير فقد كان فتى في مقتبل العمر متحمسا وجلاً حائرا وقد حملته الممرضة في قفة ، لأن قدميه الصغيرتين كانتا تنزفان دما وقال : دكتور انني أسير منذ فترة وجيزة على طريق النضال لتحقيق الاشتراكية والعدالة والحرية ، وتحرير الأرض المحتلة . وتقول الكتب والقصائد ان هذه الطريق مليئة بالحفر والأشواك والألغام . . فماذا انتعل لاتابع المسير؟

الدكتور : انزل من هذه القفة . ليس لك الا لحم قدميك . . لان هذه الطريق لا يجتازها حتى نهايتها الا الحفاة .

وبعد ان أقفرت العيادة من المرضى . تنهد الطبيب المتعب وراء طاولته ، ثم دفن وجهه بين روشيتاته وعقاقيره وراح ينتحب بصدق وبمرارة ، لقد كان الطبيب نفسه على كرسي بعجلات .

* * *

الوداع

في حديقة السبكي "شانزلزيه" المتنزهين الدراويش في مدينة دمشق ، التقيت بها غاضبة ناقمة على كل شيء لدرجة ان شعرها كان متشابكا كعصي المظاهرات . فهدأت من روعها ودعوتها الى الجلوس على مقعد خشبي ، من حرص المواطنين على املاك الدولة لم يبق منه إلا القوائم ، وقلت لها : هل تحبين الكازوز؟

قالت : لا .

ـ هل تحبين البزر؟

قالت : لا .

ـ هل تحبين البوظة؟

ـ قالت : لا

فقلت لها : ماذا تحبين إذاً؟

قالت : أحب النضال ، الكفاح ، الخشونة . . حلمي أن أنام وأستيقظ فأجد العصافير تطير بأجنحة من الخاكي ، والأشجار تغطيها براعم من الكتان ، أن تدخل العروس في ليلة عرسها بالأوفر هول وطرحتها ملطخة بالشحم والزيوت المعدنية . . اننا قوم عاطفيون ، يجب أنْ تُمنع العاطفة كما يُمنع الزمور ، أن ندّخر الوقت الضائع في الغزل والمشاوير حتى نبني بلدنا وننهض

بشعبنا كما فعلت أمم كثيرة من قبلنا . فقلت لها : معك حق ، قبل سنوات كنت في عداد وفد أدبي سافر الى المانيا الشرقية ، وهي بلاد رائعة . . لا يصدق القادم اليها انها كانت قبل سنوات أطلالا وخرائب . ولكننا ابتُلينا ساعة وصولنا اليها بمترجم عربي من قطر شقيق نغّص علينا حياتنا ولم يتركنانهنأ بلحظة واحدة من المتعة والسعادة ، فحيثما سرنا ولو الى دورة المياه يمد اصبعه عبر جدار برلين الغربية ويقول : أترون ذلك البناء المتشامخ ذا الطوابق الخمسين؟ انه ملك للصحيفة الاستعمارية الامبريالية كذا ، ولكن الشعب سوف يدكها على رؤوس اصحابها العملاء الرجعيين . أو ترون ذلك البرج المتسامق بطوابقه التسعين؟ انه للاذاعة الرجعية الامبريالية الاستعمارية . . كذا . ولكن الجماهير سوف تقوضه على رؤوس مذيعيها ومذيعاتها ، العملاء ، الانتهازيين الرجعيين الذيليين . وهكذا طول فترة الزيارة لم يتركنا نهدأ أو نتنفس ، الخطاب تلو الخطاب ، والموعظة تلو الموعظة لتوعيتنا وتنبيهنا الى مخاطر الاستعمار والامبريالية ، كأننا وفد يمثل جنوب أفريقيا أو كوريا الجنوبية . ولذلك بتنا نستعجل يوم العودة كما كنا نستعجل يوم السفر ، قبل أن نرتكب جريمة ونلقي به من نافذة الفندق .

ولكن كل هذه المضايقات والمزايدات ذهبت سدى ، عندما دعينا في ختام الزيارة الى لقاء مع كاتبة المانية ذائعة الصيت ، فاستبشرنا خيراً ، وقلنا عسى أن يكون ختامها مسكاً . ولكن ما إن دخلنا قاعة الاجتماع ورأيناها حتى كدنا نهرب ونعود مشيا على الأقدام الى بلادنا .

انها باختصار : هتلر بخرّاطه ، أو انغلز بتايور . ولكن ما إن فتحت

فمها وبدأت بالحديث عن ماضيها حتى أخذ هيكلها الخارجي بالذوبان والتلاشي كثلوج الربيع . لقد تحولت الى صوت ، الى منارة تضيء ربع قرن من الظلام الغابر . أنا باختصار : قاتلت النازي في الجبهة . طاردت الرجعيين في الجبال ، ناضلت مع الفلاحين في المزارع ، مع العمال في المصانع ، وزعت المناشير ، قدت المظاهرات ، حتى أصبحت أكثر النساء شعبية في جيلي ، ونلت أرفع الأوسمة وأثمن الجوائز ، ونُظمت بي أجمل القصائد ، وصُوِّرت لأجلي أروع الأفلام . هذا أنا أيها الضيوف الأعزاء . فشعرنا بالخجل من أنفسنا وكدنا نزحل عن مقاعدنا ونتابع سماعها من تحت الطاولات . عندما سألتها بكل بساطة : وهل أنت سعيدة الآن؟

فصمتت برهة ثم تنهدت قائلة : ومع ذلك أتمنى لو أكون الآن عارية من كل هذه الأوسمة والألقاب والأمجاد ، إلا من ثوب عتيق ، وأسير حافية تحت المطر مع الشخص الذي أحب .

* * *

الأوز

حطّني الله من علٍ بين جيــران جــدد هم "عــجــبــة من العجب" .فعلى أصوات باعة الخيار البلدي والمشمش العجمي وهدير الطرطيرات وطنابر المازوت ينامون باسمين ملء جفونهم . وعلى ضربة بيانو لموزارت ، أو همسة شعر لفرلين ، يستيقظون مذعورين وبيد كل منهم شحاطة ليقاتل . وقبل أيام هددتني إحدى الجارات بسطل ماء لهذا السبب ، بحجة انها مسافرة صباحا ولا تريد أن يفوتها موعد الطيارة ولو لم أكن "مشوبا" في تلك اللحظة من الليل وفي حالة صوفية عالية ، لما انتهت بيني وبينها الا في المخفر .

وعندما انتقلت مع الراديو الى جهة أخرى ، حذرني جار آخر من إحداث أي ضجة لأنه هو الآخر قادم لتوه من السفر ويريد أن ينام . وهو أيضا من العبث مناقشته لأنه رغم ثقافته تجد عنده خمس اسطوانات غاز ولا تجد اسطوانة واحدة للموسيقا .

ولا يعنيني في هذه الزاوية السفر قبل اليوم أو بعده بقدر ما تعنيني ظاهرة السفر الى الخارج وتحولها في السنوات الأخيرة الى نوع من الحمى أخذت عدواها تتفشى على مختلف الصعد والمستويات . فتاجر الأقمشة لم يعد يستورد بضاعته إلا من الخارج . وكذلك تاجر النظّارات والقداحات ومندوبو الشركات والوكالات . ناهيك عن

الدورات الإعلامية والصحية والزراعية والصناعية والنسائية . حتى صالونات الحلاقة ودور الأزياء صار لها دورات برلمانية في الخارج .

الكل ناتع حقيبته وجواز سفره وكل عائلته وراءه للمطار ، ليغيب أسبوعا أو أسبوعين ، يظل يحكي بعدها شهرا أو شهرين عن هذه السفرة . والظاهرة الأكثر غرابة من السفر هي أن جميع المسافرين العرب الذاهب منهم للعلاج أو التجارة أو الدراسة يعودون بانطباعات متشابهة كحقائبهم وذكرياتهم ولهجاتهم : (يا أخي الحياة هناك غير حياة) . مطارات محترمة ، شرطة مهذبة ، جمارك راقية ، شوارع نظيفة ، مرور منظم ، سلع متوفرة ، أسعار محددة ، مسارح راقية ، أفلام رائعة ، برامج تلفزيونية لا تنسى . القضايا الجنسية محلولة . قُبَل في الشارع ، عناق في الحافلات ، انبطاح في الحدائق . ضمان صحي ، ضمان نقابي ، صحف ، مجلات ، اسطوانات ، من كل مذهب ومن كل لون . الطفولة مقدسة ، والتعليم الزامي ومجاني ، الحرية الفردية مصونة ، تستطيع أن تقف في أي شارع ، في أي حديقة وتقول رأيك كما تشاء .

في الاتحاد السوفييتي لا تجد عاطلا عن العمل . وفي بريطانيا الملكة لا تستطيع أن تُسرِّح بوسطجي القصر دون حق .

في ألمانيا الوزير يصفّ بالدور ليحجز بطاقة مسرح أو سينما . وفي كندا رئيس الوزراء يصفّ سيارته جانبا لينتهي شرطي المرور من كتابة ضبط المخالفة .

ويضيف هؤلاء بمرارة وخيبة أمل : لكن الانسان هناك "آلة" في قبضة الشركات وأنظمة الحكم .

آلة يا حرام يعمل بكل طاقاته وامكاناته ليعيش .

حسناً :

اذا كان الانسان هناك "آلة" فبالله عليكم ما هو وضع الانسان عندنا؟ غزال بري ،كمنجة بأيدي أنظمة الحكم ، وناي قصبي على شفاه التجار والمتعهدين؟

انه آلة ونصف . وسيأتي يوم يضطر فيه الى تركيب عجلات صغيرة لقدميه ويديه ليؤمن حاجياته ومتطلباته . ومقود ومنبه بين كتفيه ليعرف الى من يتوجه وكيف؟

الانسان يعمل بكل طاقاته لكي يعيش . والانسان عندنا يعمل بكل طاقته ويديه ورجليه وعينيه وأذنيه ولوزتيه ولا يعيش . آلة؟ وم تشكو الآلة؟ أنا أتمنى لو أن زوجتي تمسحني بعد كل زاوية ، وتغطيني بعد كل قصيدة كما تمسح البوتاغاز بعد كل طبخة وتغطي التلفزيون بعد كل برنامج .

بل أنا مستعد أن أصير "مكواية" ، "براية" بشكل رسمي وعند كاتب العدل ، لو كانت هناك ضمانة ، لأن أقف لا في شارع عام أو حديقة عامة ، بل في حاكورة نائية وأقول رأيي كما أشاء بخطاب وزير أو تصريح سفير .

* * *

الحرية الرمادية

أعرف أن المرحلة حساسة والاعتبارات وجيهة والظروف مصيرية . ولأنها كذلك ، لا أستطيع أن أمر بها مرور الكرام أو مرور مراقبي الصحة والتموين على البقاليات والمستشفيات .

لا أستطيع أن أقف ثلاثين عاما على عتبة الاحداث كالمتسول . أو أن أدور حولها متفرجا على جدرانها وشرفاتها من الخارج كالحرامي أو مخمّن العقارات .

لا أستطيع أن اهتم بأزمة قناني الغاز في دمشق وأتجاهل قناني "الألغاز" في المنطقة .

لا أستطيع أن أهتم بمن لا يجد مكانا فارغا ليصف سيارته أمام متجره ، واتجاهل من لا يجد حفرة فارغة ليلم فيها جثث زوجته وأولاده من الطرقات .

وأن أقيم الدنيا وأقعدها لأن هذا المواطن أو ذاك دار على عدة دكاكين وهو بالبيجاما ولم يجد قنينة زيت قلي أو دبس رمان . وأصمت عمن لا يجد في طول البلاد وعرضها غرامين من الدم لاسعاف مئات الجرحى المكدسين في لبنان .

لا أستطيع أن أقف على الحياد بين الخيش والدانتيلا
بين المالك والمستأجر .

بين السائق والركاب .
بين الراعي وصاحب القطعان .
بين الأفق والزنزانة .

لا أستطيع أن اجعل حسناتي وسيئاتي الصحفية بالطول نفسه كشوارب سلفادور دالي . وبالمستوى نفسه . . كالسوائل في الأواني المستطرقة .

انني منظف مداخن ، فليحذرني وليعذرني ذوو الثياب البيضاء والقفازات البيضاء .

فأنا أعرف أن المنطقة تمر بمرحلة حساسة وظروف دقيقة ومصيرية وان الكل مترفع عن الصغائر ومشغول بالقضايا الكبرى .

وأعرف أن التفاؤل ضروري في مثل هذه المرحلة صحيا ووطنيا . وأنا كمواطن ابن هذه المنطقة ، لا ابن كينيا أو جامايكا . . مستعد للتفاؤل . . لأن افتح فمي عنوة وأضحك دون توقف كممثلة تجري معها مقابلة اذاعية ، مستعد لان امشي في الشارع بثياب خضراء وحواجب خضراء وأسنان خضراء لو اجابني صاحب أي مطعم في هذه المنطقة التي تعج بالاحداث والظروف المصيرية على الأسئلة التالية :

كم فرّوجاً التهم في المنطقة في الذكرى التاسعة لنكسة حزيران ، أو الذكرى التاسعة والعشرين لوعد بلفور أو منذ بداية الأحداث الدامية في لبنان؟

وكم قرقوراً نحر؟
وكم صينية مدلوقة نسفت؟
وكم حنجرة تجشأت؟
وكم فاتورة حساب زورت؟

كم آهة اعجاب في الكباريهات أطلقت؟
وكم أرملة شهيد على أدراج قصر العدل تنهدت وتربعت؟
كم حادثة تهريب لفلفت؟
وكم سيارة اسعاف طنشت؟
كم محاضرة ألقيت؟
وكم سيدة في الباصات قرصت؟
ثم هل هناك طبيب أنف أو عيون أو حنجرة يفسر لنا سر بعض المآقي التي تظل مغمضة أياما وليالي عن الرشوة والفساد والجشع في هذه الدائرة أو تلك ، وما إن تشم أو ترى كلمة نقد حرة حتى تفتح فجأة وتصير باستدارة زر المعطف دهشة واستنكاراً؟
ثم هل هناك أولا وأخيراً ، من يدلني بطرف اصبعه على جذور الخوف من الحرية ، وفي أية غابة؟ وفي أي حرش؟ من يرويها ويسمدها كالزنبق والأضاليا ، لأذهب اليها وأرعاها كالماعز الجبلي .

* * *

وفلت الزمام من يدي

لا أعرف حظاً أسوأ من حظي في انتقاء مقاعد السينما ، ولا أذكر أنني هنئت بمشاهدة فيلم أكثر مما تهنأ المرضعة بطعم النوم . دائماً أطول شخص في الصالة يأتي أمامي مباشرة . أقصر شخص في الصالة يأتي ورائي مباشرة ، بحيث ينتهي العرض وهو يقول لي : رأسك يا أستاذ ، وأنا أقول للذي أمامي كتفك يا أخونا . وكأن المهندس الذي بنى الصالة صمم مقاعدها ورتبها وشعاره : شعب واحد ، هدف واحد ، طول واحد .

وكنت أتخلص من مثل هذه المواقف بتمزيق البطاقة ومغادرة الصالة فوراً . لكنني في الآونة الأخيرة واجهت مشكلة جديدة لم آلفها من قبل . لقد قطعت تذكرتي على أساس أن الفيلم كوميدي للشارلو الفرنسي المعروف . وجلست في مقعدي ومسحت نظارتي ، ودفعت وجهي الى الامام ، استعدادا لقضاء ساعتين من الضحك المتواصل كما يقول الإعلان عن الفيلم . ولكن ، وفي آخر لحظة تبين لي من التعليقات التي سمعتها من حولي ، ومن المحارم التي جهزت بأيدي النساء استعداداً للعويل والبكاء ، أن الفيلم "عربي" وليوسف السباعي أيضا .

وفي الحال أعدت نظارتي الى غمدها ونهضت مستأذنا من حولي

(دستور يا جماعة اسمحولنا) ولكن ما من عجيزة تحركت أو ركبة انثنت لتفسح لي ولو حيزا بسيطا للمرور . مجرد امرأة محجبة ، رفعت حجابها ونظرت الي لحظات ثم أسدلته على الفور كأن المفتي يراقبها من مكان ما في الصالة . وهنا لا بد لي من التساؤل : لماذا اذا ما جلست امرأة عندنا في مقعدها ، في سيارة أو حديقة ، أومؤتمر ، تأخذ ثلاثة أضعاف حجمها الطبيعي ، وخاصة في السينما . معطفها على جنب ، وشغل الصوف على جنب ، وحقيبتها في حضنها ، وابنها بين ركبتيها؟ فكيف يمكنك والحالة هذه أن تعبر صفاً كاملا ، الركبة على الركبة والطفل على الطفل ، وكلهن محجبات . وبالمناسبة يخيل لي أن العرب حتى لو اطلقوا سفينة فضائية في المستقبل ، فيجب أن تكون سفينة محجبة .

ولما كنت ، ومنذ أن امتلأ الوطن العربي بما هب ودب من حديثي النعمة والوطنية ، اتحاشى الاحتكاك بأي امرأة من هذا النوع ، لا أثناء الدخول ولا أثناء الخروج ، لا من السينما ولا من غيرها ، خوفا من أن تكون أماً أو حماة لثوري متشنج ، فعند ذلك سيعتبر أي مساس بها ، وكأنه مساس بدول المواجهة ، ولذلك عدت الى الجلوس في مقعدي وأمري لله . وقلت معزيا نفسي : أنا في الأصل أقصد فيلما كوميديا . ومادام يوسف السباعي هو المؤلف ، فهو حتما سيكون فيلما كوميديا من نوع آخر . وحتى لو رآني أحد معارفي وأبلغ عني أصدقائي من المثقفين التقدميين ، فما الذي يمكن أن يفعلوه؟ يعدمونني؟ قطعا لا . كل ما هنالك ، سيقاطعونني كالسادات . شهرا . . شهرين . . سنة . . سنتين . . ثم نظرة ، فابتسامة . . فالمهم أطفئت الأنوار وابتدأ العرض ، وتنفست الصعداء بارتياح .

ولكن ما إن ابتدأت خربطات الفيلم العربي المعهود وواجه البطل أول صدمة ، حتى أخذت الذقون ترتجف والأنوف تنشق هنا وهناك ، وعندما تبين أن خطيبته هي أخته ، وأن خادمته هي أمه ، وأمه راقصة في كباريه ، غرقت الصالة من أقصاها الى أقصاها بالنحيب والشهيق . فقلت بتعاطف : وما هن إلا نساء شرقيات ، عاطفيات ثم مالي ومالهن . وانصرفت الى تأمل السقف والجدران والأضواء المبثوثة في الزوايا . واذ بجارتي تنخرط فجأة في بكاء هستيري وهي تنقل عينيها الملتهبتين بالدموع من الشاشة الى وجهي الساخر اللامبالي . وكأنها تقول لي : يا للوقاحة! هل قلبك من حجر؟ فكتمت ابتسامة ساخرة وأشحت عنها بترفع حضاري الى الجهة الأخرى ، لتقابلني جارتي الأخرى بنفس العينين المحمرتين والوجه المبلل المستنكر . ولو . . دمعة واحدة يا سيدي . فقطبت قليلا وقلت : سايرهن يا ولد . وأخرجت محرمة من جيبي ، ورحت أرجّف ذقني وأرنبة أنفي تمويها . وفجأة فلت الزمام من يدي ، وغرقت في بكاء عميق مكتوم لم يبكه أبو ملحم في كل مسلسلاته من قبل . بكاء عميق متواصل . انتهى الفيلم ، ومسحت النسوة دموعهن وأعدن زينتهن وماكياجهن وغادرن الصالة ، وأنا أبكي وحيدا في مقعدي حتى كاد أن يبدأ العرض التالي . لا من المأساة الملفقة التي شاهدتها على الشاشة ، بل من الفيلم الكوميدي الرهيب الذي يمثله الشارلو العربي في المنطقة .

* * *

يمين... يسار.. دُر

يقيناً ، لا أعرف أين تقع أفغانستان هذه ولا ما هو تاريخها أو ثرواتها أو طبيعة شعوبها . ولا عدد الجنود الروس الداخلين اليها أو الجنود الأفغانيين الهاربين منها .

كما لا أعرف كم تبلغ مساحة ايران أو عدد أحزابها وطوائفها وأئمتها؟ ولا كم عاصمة فيها أو كم وزيراً لخارجيتها؟ كل ما أعرفه أنها هي وأفغانستان وجيبوتي وتانزانيا وغيرها من دول العالم الثالث مهما كانت شعاراتها وأديانها وأحزابها لا ينظر اليها على مسرح السياسة الدولية إلا مثل سيارات "سوزوكي" لعرقلة السير في شوارع المدن الكبرى . ما إن تضاعف من سرعتها وتبالغ في تزميرها وهرهرة شعاراتها حتى تضربها إحدى الشاحنات الكبرى المحملة بقضايا السلام العالمي بالنسبة للشرق أو المصالح الحيوية بالنسبة للغرب . حيث تقضي بقية حياتها في تصليح واجهتها وترقيع عجلاتها وترميم هيكلها .

ولذلك ، فأنا أنصح أجهزة الإعلام في هذه المنطقة وخاصة العربية منها ، المؤيدة أو المستنكرة لما يجري في هذا البلد أو ذاك ألاّ تذهب بعيداً في التنظير لهذه الثورة أو تلك ، وربط ما يجري في أفغانستان بما جرى في ايران وبما سيجري في الخليج . فالحبال العربية لا تصلح إلا للمشانق . ولأن الكثير من هذه الدول المؤيدة أو المستنكرة ستذهب

"فرق عملة" إن آجلا أم عاجلا ، لأن تاريخ معظم هذه الدول متشابه ، مثل ثوراتها وشعاراتها . فما إن تنال الواحدة من هذه الدول استقلالها حتى تترك الحفر في أرصفتها والعجز في ميزانيتها والصراخ في سجونها والاستغلال في متاجرها والذباب في أزقتها والرمد والأنين في أريافها . وتحمل ورقة انتسابها للأمم المتحدة وصكوك انتسابها لدول عدم الانحياز ومجلس السلم العالمي وحركات التحرر من الاستعمار والتمييز العنصري وكل عدة التخلف هذه وعلى رأسها طلبات لا تحصى بالقروض والمساعدات الخارجية . وتنطلق لتلعب دوراً ما على المسرح الدولي . ولذلك تراها في كل أزمة عالمية أو اقليمية حاضرة قبل أصحابها لمناقشتها وتطبيق المؤيدين أو المعارضين لها . فينتابها الغرور وتعطي لنفسها حجماً أكبر مما يتسع له المسرح الدولي . وتروح تدلي بدلوها بكل شيء من قضايا الجوع والفقر والتلوث والنظائر المشعة وتحلية مياه البحر . . الى استغلال الطاقة الشمسية والفضاء الخارجي ، حتى تأتيها ضربة من غامض علم الله مثل أفغانستان ، ومن قبلها أوغندا واندونيسيا ، تعيدها الى حجمها الطبيعي ، وهو "سوزوكي" لا أكثر ولا أقل على طرقات القرن العشرين .

وعندما تفشل مثل هذه الدول داخليا واقليميا ودوليا ، لا تجد ما تفش به قهرها سوى شعوبها . وهذا ما يفسر العنف الدموي في أوغندا واندونيسيا واثيوبيا ونيجيريا من قبل وأفغانستان الآن ، ويصبح الخلاص الوحيد لمثل هذه الدول هو الأزمات الخارجية ، ولذلك فهي تنتظرها انتظار العاشق لحبيبته . ولا تتورع عن أن تمد يدها أمام شعبها المسحوق وتدور به في أروقة الأمم المتحدة ، وبين عواصم العالم المضطربة ، ولسان حالها يقول : "أزمة لله يا محسنين" ، "قضية

مستعصية لهؤلاء اليتامى يا أجاويد" .

وقد كنا نعتقد ولا نزال بأن الثورة الايرانية نمط جديد في التفكير وفي السلوك وفي الأهداف . ولكنها برهنت حتى الآن على الأقل أن جميع الثورات في العالم الثالث تسير وراء بعضها كالكشافة في الطريق نفسه والإِيقاع نفسه الى المصير نفسه .

فقبل أن تحقق الاستقرار في ايران ، تريد تحقيقه في جنوب لبنان .

وقبل أن تستعيد كردستان تريد استعادة القدس .

وبعد أن حلت كل الأحزاب وحركات التحرر في ايران ، تدعو الى عقد ندوة عالمية على أراضيها لدعم جميع حركات التحرر في العالم .

أمريكا تغرق بحار المنطقة بالأساطيل وحاملات الطائرات .

وروسيا تغرق أجواءها بناقلات الجنود والدبابات .

وهي تغرقها بالبيانات . وهذا طبيعي . ثلاثون أربعون إماماً وأكثر ، كل ساعة تصريح وكل ركعة بيان .

ويصدر أحدها مثلا من "قم" ، فيذيعه التلفزيون وتتجاهله الإِذاعة . يؤيده قطب زادة ، وينفيه شريعتمداري ، ويحوره الطبطبائي ، ويشذبه المحتسبي ،ويستنكره وينفيه أبناء منتظري . في الحقيقة لقد ضعت . . . خلخالي ، خلعتبري ، قم ، كابول ، نواكشوط ، عيدي أمين ، حفيظ الله أمين ، ثورة افريقية ، ثورة عربية ، رفض ، صمود ، تلاحم عضوي ، حرق مراحل ، قفزة نوعية ، سأقفز من النافذة ، فلم أعد أفهم شيئاً في هذه المنطقة أو سواها .

ولم أعد أصلح للصحافة أو للشعر ، لابداء رأي سياسي ، أو مشورة عائلية أو تحليل وضع . لم أعد أصلح إلا للترنح سكران في الطرقات والسؤال : أين بيتي؟؟؟ . . .

دعاء الكروان

بعد أن قرأت في طفولتي أهم الكتب ، وأنفس المخطوطات ، وأنزه الاستشراقات عن التراث العربي ، والتاريخ العربي والفتح العربي .

وبعد أن قرأت في كهولتي آخر أعداد مجلة "العربي" والأسبوع العربي ، والوطن العربي ، والكفاح العربي ، والفكر العربي ، والمستقبل العربي ، والمعلم العربي ، والإنماء العربي ، ودراسات عربية ، وآفاق عربية ، وقضايا عربية ، والمرأة العربية ، والسينما العربية ، والأزمنة العربية .

وبعد أن لبست مؤخرا لباسا عربيا ، وشربت قهوة عربية ، وجلست طويلا في تواليت عربي ، خرجت بالحقائق التالية : إن نجحت معاهدة السلام المصرية ـ الاسرائيلة أم لم تنجح .

وإن كانت الحملة الآنية عليها مدروسة أم عفوية كشعر المراهقين .

إن بقي السادات في الحكم ، أو طار وحلّ محله كمال الدين حسين أو زكريا محي الدين أو زكريا أحمد .

إن توقفت الحرب الأهلية في لبنان أو لم تتوقف .

إن تم توطين الفلسطينيين في لبنان أو اللبنانيين في فلسطين .

إن كانت حرب تشرين أول انتصار عربي في العصر الحديث أم آخر انتصار .

إن استقرت الثورة الايرانية أم ظلت على ما هي عليه الى الأبد .

إن حدثت التغييرات المثيرة والأحداث التغييرية في المنطقة خلال الشهور القادمة أم لم تحدث أبدا .

إن استمر الوفاق الدولي أم انهار .

إن انتقلت الصحافة العربية كلها الى المهجر أم عادت كلها الى الوطن .

إن تطور المسرح العربي أو لم يتطور .

وإن كنت الغلبة في النهاية لصالح قصيدة النثر أم الشعر القديم أم شعر الزجل .

فإن الانسان العربي لن يعرف طعم الحرية أبدا .

وسيظل مثل طنجرة "تيفال" لا يلصق به شيء أبداً من فرح ، أو أمن ، أو طمأنينة .

مادام "السافاك العربي" سيظل في نهاية المطاف باطحا إياه أرضا ومتربعا على صدره الى أبد الآبدين .

يا رب :
يا مانح الشَعر للماعز
والصوف للأغنام
يا واهب المطر للأرض
والماء للشجر
والحرية للقطط والسعادين

لا نريد حرية كاملة ، وكرامة بلا حدود ، فنحن نعرف حدودنا .

ولكن كل ما نريده في أواخر هذا العمر ، ونحن شاكرون ممتنون قانعون .

أسبوع واحد من الكرامة في كل عام . . . كأسبوع النظافة .
يوم واحد من الحرية في كل عام . . كيوم المرور العالمي .

* * *

الأصابع

وحيداً على الشرفة في آخر الليل ، لا قمر في السماء ، لا خطوات في شارع ، لا ظل وراء نافذة . لا شيء يتحرك أمامي على مدى البصر في هذه المدينة الصامدة سوى "غسيل الجيران" يخفق لا مباليا على الشرفات . تُرى لو علم ذلك السوتيان" مثلا أنه ينتمي بطريقة ما ، الى العالم الثالث أو عدم الانحياز ، أكان يتابع رقصه واهتزازه طول الليل بهذه الخفة واللامسؤولية؟

انه جنون . . . هذيان . ماذا أفعل؟

الخمرة تلعب برأسي

وزوجتي تلعب بجيوبي

والبقال يلعب بحساباتي

وأكثر من جارة تلعب بعقلي

وأكثر من زعيم وسياسي يلعب بمصيري .

المهم بقيت لي ملامحي . وأهرع مذعوراً الى المرآة وأنا أخفي وجهي بكلتا يدي وأصرخ : لا . هذه ليست ملامحي ، انها مستوطنات غريبة فيه . وهذا ليس وجهي . انه عريضة استرحام أبدية . وما الفم والعيون والحواجب إلا تواقيع وإحالات من الجاهلية الى الاسلام . الى اليمين الى اليسار . الى الوحدة الى الانفصال . الى الخرطوم الى

الرباط . الى هافانا الى تونس الى . . . الشارع .

فليذهب كل شيء الى الجحيم .

ما نفع الأنف دون ربيع ،

والذراع دون خصر وورق خريف ،

والفم دون قُبَل أو خطابات؟

المهم حان وقت الأخبار . أين الراديو؟ لقد كان لنا جميعاً وطن واحد بأربع جبهات . فصار لكل منا والحمد لله وطن واحد بأربع بطاريات . وبعد أن تجمع وتطرح كل ما تسمعه من الاذاعات العربية ، والاذاعات الموجهة الى الأقطار العربية تخرج بنتيجة واحدة وهي ما من انسان على الأرض العربية واثق من شيء أو مطمئن على شيء . اسرائيل وحدها واثقة ومطمئنة وتلف ساقا على ساق وضفة على ضفة . المهم بقيت لنا الراحات والخدود والبومات ، الصحف الغبراء . أين أيام الشباب الأولى ولحظات النضال الغابر؟ عندما لم نكن نفتح جريدة أو مجلة إلا ويطالعنا كاريكاتور للجندي الاسرائيلي طائرا مذعورا في الهواء تلحقه صورة البوط العربي وهي تحتل الصفحة كلها والمنطقة كلها؟

أين أيام المظاهرات وليالي المناقشات . و(والله زمان يا سلاحي . ووحدة ما يغلبها غلاّب . والله أكبر فوق كيد المعتدي)؟ أين ليالي أحمد سعيد و(أخي في عدن . وأخي في البحرين . وأخي في تعز)؟ وأنت وحدوي وأنت انفصالي . وأنت عميل وأنت خائن؟ في تلك الأمسيات كنت أعود الى البيت وأنا أغلي حماسة وانفعالا وطموحا . أقرع الباب وأنا أقول لأمي : في هذه اللحظات الحاسمة من تاريخ أمتنا افتحي لي الباب .

في هذه المرحلة العصيبة التي تمر بها أمتنا أعطيني البيجاما لأنام .
وأنا ويدي ممدودة خارج اللحاف تهدد وتتوعد .

أين شعراء المراحل الماضية وصحفيوها ومنظِّروها؟ أين طلابها ومعلموها؟ أين خطباؤها ومستمعوها؟ كلنا شاخ وهرم . وغطّى الشيب رؤوسنا والتجاعيد وجوهنا . والإرهاب العربي وحده بقي فتيا نضرا مثل ألان ديلون . لماذا؟

كم لفافة دخّنا وكم نهراً من الخمر شربنا؟

كم اجتماعاً من أجل الشعر والحرية عقدنا؟ وكم اشتباكاً من أجل نقطة أو تفعيلة فضضنا؟

كم دبّج المحامون من مرافعات ، والقضاة من حيثيات ، كم قاسى الباذنجان من الإصلاح الزراعي .

وكم عانت الأنهار والسواقي من التحويل الاشتراكي؟ فماذا أكلنا وماذا شربنا؟

كم استهلك البنّاؤون من اسمنت ، والأطباء من سماعات ، وحفلات التدشين من مقصات والحراس من صفارات والمصلون من رُكَب وحُصر ودعوات . والسائقون من اطارات . فالى أين وصلنا؟ الى أين وصلت الزراعة ، الصناعة ، الحرية ، الوحدة ، التحرير؟ كلها دخان في الهواء . وكأن جميع مشاريعنا النضالية والاقتصادية والثقافية كانت تجري طول تلك المدة برعاية سكاير "كنت" .

* * *

المركيز دي ساد

في أي مدينة حللت وفي أي شارع أقمت في الدول المصدرة للنفط أو الدول المستوردة ، دائما هناك ورشة حفريات مستنفرة بكامل رفوشها ومعاولها ومثقبها الكهربائي أمام بيتي ، تنزع بلاط الرصيف الواحدة تلو الأخرى ثم تعيدها كما كانت ثم تجمع عدتها وتغيب لفترة ، تعود بعدها أكثر همةً ونشاطاً لتنقِّب من جديد وتنزع البلاط وتعيده وكأن حل أزمة الشرق الأوسط موجود أمام بيتي .

ثم بعد أن تفد الأمراض السارية الى البلد الذي أكون مقيما فيه ، وينتهي موسمها ويعلن عن خلو المنطقة منها ، أُصابَ بها . كما لا يمضي أسبوع أو أسبوعان إلا وتلتهب إحدى عيني فيغطيها الورم من جميع جوانبها ، وما إن تشفى حتى تلتهب الثانية ، وهكذا دواليك حتى لأكاد أقضي نصف السنة تقريبا بنظارات سوداء مثل سيد مكاوي .

ثم ، ما إن أبرأ من التهاب العيون حتى أُصاب بألم الأسنان . فعلى الرغم من التزامي بكل القواعد الصحية المتبعة في هذا الشأن واستعمالي أجود أنواع المعاجين المعروفة اعلانيا ، لا تراني إلا خارجاً من مستشفى وداخلا في صيدلية ، بينما أي هندي أو باكستاني يولد ويموت ولا يضع معجونا على فرشاة ، ومع ذلك لا تراه إلا وهو يبتسم

لك ، بمناسبة أو غير مناسبة ، بأسنان بيضاء ناصعة ومصطفة الى جانب بعضها كالحرس الجمهوري .

طبعاً أنا لا أثير مثل هذه الأمور الشخصية سعياً وراء الأمن الجسدي ، أسوة بالأمن الغذائي أو الأمن الصناعي ، وغير ذلك من المصطلحات التي أتحفنا بها السادات قبل رحيله ، ولا طمعاً بالكمال الجسماني للشعب العربي . فموشي دايان كان بعين واحدة عندما احتل نصف أراضينا . وبيغن كلما أجرى عملية في ركبته أو بطنه أو أحد صمّامات قلبه يجري مقابلها ثلاث عمليات في قلب الوطن العربي . كل ما في الأمر انها مجرد أفكار راودتني وأنا راقد في فراشي برما متذمراً ، مثل خالد بن الوليد في أواخر أيامه ، وليس في جسمي شبرٌ واحدٌ إلا وفيه ضربة بانادول أو طعنة بنسلين .

وفيما أنا على هذه الحال من البلبلة الصحية اقتحم عليّ خلوتي صديق ، فيه من صفات المخبر أكثر مما فيه من صفات الزائر ، وراح يمطرني بالأسئلة :

ـ ماذا تقرأ؟ ماذا تكتب؟

أين قصائدك ومسرحياتك الجديدة؟ منذ زمن طويل لم نسمع لك صوتاً في مناسبة ولم نر لك ظلا في شارع أو مقهى؟ لِمَ لا تكتب مذكراتك مثل شادية ومحمد حسنين هيكل؟ انها جريمة أن تتوقف أنت وأمثالك عن البذل والعطاء .

وصرخت به وأنفي يسيل كالأقنية الرومانية : من قال لك انني توقفت عن العطاء؟ لا لم أتوقف أبداً!

ثم فتحت أحد أدراج طاولتي وأخرجت رزمة من الوصفات الطبية ، ثم رزمة من التحاليل المخبرية ، ثم رزمة ثالثة من الحميات

الغذائية والصور الشعاعية وخبطتها أمامه وقلت له :

ـ تفضل ، هذه آخر مؤلفاتي .

فنظر اليها بحزن وأسى وقال :

ـ معك حق ، لم يبق أمام أي منا سوى التخلّي عن أحلامه والعودة الى بلده والارتماء الى الأبد على صدر أمه ، انها أنقى وأطهر ما في الوجود .

وبالمناسبة ، ماذا ستهدي السيدة الوالدة التي أنجبت لنا كاتباً نجيبا مثلك في عيدها؟

ـ أي عيد!

ـ عيد الأم!

ـ في ا لحقيقة فاجأتني بهذا السؤال وبهذه المناسبة .

ـ ألا تحب أمك يا رجل؟

ـ انني أعبدها ولكن ماذا يمكنني أن أهديها في هذه المناسبة السعيدة؟

فستان سهرة! في حياتها لم تسهر إلا فوق طبق العجين .

"سيارة سبور"! في حياتها لم تركب إلا سيارة الإسعاف . ماذا أهديها ، لأهديها ، انها مجرد شجرة تين ، جرداء بعينين زرقاوين خابيتين .

هل تعرف فعلا ما أتمناه في هذه المناسبة يا صديقي؟ أن أوقظها صباح عيد الأم تماما وأساعدها على ارتداء ملابسها وغسل وجهها ويديها المعروقتين ثم ألفها بعكازها وظهرها المحدودب ، وفانوس تنقلاتها بورق السيلوفان وآخذها بيدي وأهديها هي الى أحد أقبية المخابرات . . . ليرفعوا قدميها العجوزين البائستين أمام عيني ، حيث آثار روث البقر

الجاف ما زالت مدفونة في شقوقهما العميقة (لقد كان روث البقر الجاف هو أوبيك الفقراء في تلك الأيام) ويجلدوها على قدميها ورأسها وظهرها وتجاعيد وجهها حتى تكل أيديهم . . لأنها ولدتني في هذه المنطقة .

فارس بني شيبان

خلال اجازتي السنوية اكتشفت ان مشكلة الحرية الشخصية في الوطن العربي سهلة وبسيطة وفي غاية الوضوح : فالدولة لا تسأل المواطن عم يفعله من وراء ظهرها اذا لم يسألها ماذا تفعل من وراء ظهره .

واكتشفت أيضا أن الحياة العربية رغم ما يعصف بها من أحداث حافلة بمتع ومآكل ومشارب لم أكن أوليها أي اهتمام من قبل .

فهناك مثلا : خروف مكتف وخروف محشي وشيخ المحشي ومنزّلة ومسقّعة و"كواج" و"مقلوبة" و"حراق أصبعو" و"طباخ روحو" و"كفتة" ،و"كباب هندي" ، وشيش كباب ، وشيش طاووق وشيش برك ، وشاكرية ، وبقلمة وشاورما وداوود باشا ، وأبو شهلوب ، وجظ مظ ، وكبة نية ، وكبة مشوية ، وكبة مقلية ، وكبة بالصينية ، وكبة لبنية ، وكبة حميص ، وفريكة ، ومفركة ومغربية ، وبرك بلحمة ، وبرك بجبنة وبرك بسبانخ ، ومتبل ، ويالنجي ، بابا غنوج ، ورز بفول ، وفول مقلي ، وفتة مقادم ، وفتة مقدوس ، وفتة بسمنة ، وجدي بالزيت ، وهبرة مشوية ، وقلوبات ، ولسانات ، ونخاعات ، وبيض غنم ، وكرشة ، وأبوات (باللاتيني غمة) . . . كلها مع السلطة والفتوش .

وهناك كنافة مبرومة ، وكنافة بلورية ونابلسية ، وعثملية ، وبصمة

وهريسة ، وكول وشكور ، ومدلوقة ، ومعجوقة ، ووربات بقشطة ، وحلاوة الجبن ، ومهلبية ، ومحلايه ، وبالوظة ، وكشك الأمراء ، وكشك الفقراء ، وقطائف عصافيري ، وعجوة ، وبرازق ،وزنود الست ، وقرون الغزال ، وغريبة ، ومعمول بالجوز ، ومعمول بالفستق ، وكلها مع القشطة أو الناطف .

وهناك أيضا : نراجيل ، واكرك عجمي ، وكونكان ، وطرنيب ، ومحبوسة ، وفرنجية ، وعرق كسارة ، واكسلسيور ، وريَّان ، ونديم ، وكبريتة وبلابان ، وغنطوس وأبو رعد ، وكلها مع القصبة النية واطلاق الرصاص .

وعلى مستوى أرقى ، هناك : بابيونات ، وسيجار ، وبلاك ليبل ، وبلاك جاك ، وبريدج ، وباشيكة ، وبكاراه ، وبيدو ، وورولانس ، وطرازينة ، وبوكر مكشوفة ، وبوكر مستوردة ، وفيرو على شكل صليب وفيرو على شكل بنطلون وكلها مع المازاوات الشهية والعشاء الفاخر واطلاق الرشاشات .

وهناك أيضا : بوسي ، ويسرى ، ونورا ، ومعالي زايد ، وآثار الحكيم ، ونسرين ، وشيرين ، وشاريهان ، ونيني مصطفى ، وحسن مصطفى ، وزيزي مصطفى ، وزيزي البدراوي ، ويسري البدوية ، وعليا التونسية ، ووردة الجزائرية ، وشفيقة القبطية ، ودلال المصرية ، وامرأة مع ماض ، وامرأة بلا ماض ، والماضي يعود ، وعاد الحب ، وضحايا الحب ، والحب عذاب ، ومرت الأيام ، ومضى قطار العمر ، وحصاد العمر ، ويمهل ولا يهمل ، وقلبي على ولدي ، واليتيمان ، والتوأمان ، وكلها مع الدموع والآهات وموجز الأنباء .

واكتشفت أيضا أن هناك : حمامات منزلية في الوطن العربي ،

باتساع ملعب كرة القدم ، وبانيوهات مستديرة ، وبانيوهات بيضاوية ، ومجففات أيد كهربائية ، وشطافات أوتوماتيكية ، وكلها مع الماء الساخن والشامبو على رائحة البرتقال والليمون إحياء لذكرى بساتين صيدا وصور الحبيبة .

وهناك أيضا : قطارات تسير بواسطة الهواء ، وسيارات تطير بواسطة الكحول .

وساعات تعمل على البطارية ، وساعات تعمل على النبض ، وساعات بموسيقا وساعات بدون موسيقا ، وساعات للطيارين ، وساعات للملاحين ، وساعات للرياضيين ، وساعات للفنانين ، وساعات تحدد لك اليوم والشهر والسنة ، وساعات تشير لك عقاربها ، أينما كنت ، الى اتجاه الكعبة .

وإن كنت أعتقد أنه في الاجازة القادمة سيكون بيد كل مواطن عربي ساعة تشير له عقاربها الى اتجاه العصفورية .

لأن من جملة ما اكتشفت ، أن القطار الذي أقوده الى فلسطين انفصلت كل عرباته تباعا ولم يبق منه بين يدي سوى المقود . وانني وحدي أركب حمارة التحرير العرجاء أمام الملايين التي تشير إليَّ ساخرة مقهقهة من وراء الأبواب .

* * *

الوجبة الأولى والأخيرة

فيما تنبىء مراكز الارصاد الجوية ، وتؤكد تقارير رواد الفضاء على أن المطر العربي لا يهطل في هذه الأيام بكل هذه القوة والاندفاق شوقا الى الأرض ، بل لأنه مطرود من السماء ، يأتيك مخلوق من هذا الزمان ، في يده ساعة وفي معصمه سلسلة ، وحول عنقه قلادة ، ولا ينقصه سوى أن يضع أقراطا في أذنيه ، ليقول لك : ما هذا التشاؤم أيها الكتّاب والشعراء؟ ولِمَ كل هذه القتامة والسوداوية في كل ما تكتبون وتنشرون؟

وأراجع نفسي في الحال ، وأقول له : فعلا لِمَ كل هذا التشاؤم والسوداوية؟ كل ما في الأمر :

إن أرضنا محتلة .

والمقاومة مشردة .

واقتصادنا منهار .

وقضيتنا بيد الغرب .

وسلاحنا بيد الشرق .

والعلم الاسرائيلي يرفرف علنا في بلدين عربيين ، وسرا . . الله اعلم .

وانصرف عنه وعن العالم أجمع مطأطىء الرأس بين ناطحات

السحاب من هنا وناطحات الشعوب من هناك حتى إذا أخذ مني الضجر والحزن كل مأخذ تقول لي الطيور والآفاق البعيدة وصفارات السفن :

ارحل أيها الغراب فالمرحلة العربية الراهنة لا تريد غربان اطلال بل بلابل انجازات .

واقفز فرحا أمام المرافىء ومكاتب السفر . ولكن سرعان ما تتجمد يدي على حقائبي . لقد مللت رعب الطائرات ونوم الأطفال على الركب وتفتيش الأشياء الحميمة أمام الملأ .

ثم الى أين أمضي وأين أستقر؟ في بريطانيا نفس البرد والملكة والديموقراطية .

في ايطاليا نفس البابا والفاتيكان والألوية الحمراء .

في أمريكا نفس الهمبرغر والبيض والسود والحزب الجمهوري والحزب الديمقراطي . وصرّح ناطق بلسان البيت الأبيض ، ونفى ناطق بلسان وزارة الخارجية .

طبعا تبقى فرنسا أم الحرية والبيض والسود وحضارات الدنيا كلها .

ولكن المشكلة أن الحكومات الاشتراكية كل ساعة بعقل ، فقد تتغدى في "مكسيم" وتتعشى في "الباستيل" في اليوم نفسه .

ويقول لي المؤرخون واللغويون وأرباب القلم والقرطاس : دعك من هذا وذاك وعد الى التراث . واصرخ مهلّلا أمام الأسوار الشامخة والأوابد الأثرية : نعم . . . نعم إلى التراث . وها هي صرتي وعكازي وخفي تحت إبطي . ولكن كيف أعود اليه؟ بالتاكسي؟ بالميترو؟

ثم كيف يعود الانسان العربي الى تراثه قبل ألفي عام وهو لا

يستطيع العودة الى حدود الـ ٦٧؟

ثم كيف يعود الى حدود الـ ٦٧ وهو لا يستطيع العودة الى بيته الا بعد مئة حاجز ونقطة تفتيش؟

ثم ما هذا التراث السويسري الذي تدعى الى العودة اليه بمناسبة ومن دون مناسبة؟ فالذي نقرؤه في الكتب نشاهده الآن في المسلسلات التاريخية حيث ما إن يقسم مظلوم باللات والعزة ، أو ينادي الأمير ايا غلام ، حتى يطير رأس الظالم والمظلوم ، والأمير والغلام ، وأبو الغلام وجد الغلام ، وتظل السيوف تصل ، والرماح تلمع ، والنساء تسبى ، والرؤوس تتدحرج . . حتى لا يبقى حيا في نهاية المسلسل سوى المخرج .

ويقول لي الماضي والحاضر والمستقبل .

وتصرخ بي الجرافات والرافعات والخارط الحديدية . البنوك والمتاريس وأكياس الرمل ، محطات الانذار المبكر ، وقوات التدخل السريع ، أزمة الطاقة ومنظمة أوبيك ، مؤتمر خلدة ، ومؤتمرات القمة ، راجمات الصواريخ ، وباصات وسيارات "هوندا" وطائرات "أواكس" : ماذا تفعل بيننا؟ تنح عن طريقنا وعد من حيث أتيت أيها الريفي المجنون .

وأعانق أول شجرة ، في طريقي ودموع الفرح تملأ عيني ، وأصرخ : بلى ، بلى ، لقد وجدتها .

أيتها القرية البعيدة المجنونة العاقة . ألم تشتاقي لابنك الضال العجوز؟ أنا لم أعد أحتمل . منذ سنين وسنين وأنا أحلم بأن أغمض عينا وافتح أخرى لأجد نفسي محدودبا أمام ذلك الباب الخشبي العتيق ، أو حتى في قُنٍّ الدجاج القديم نفسه . ولكن ما أخشاه أن

تفاجأ بي أمي في الصباح ، وألاّ تتعرف على ملامحي وبحة صوتي بعد هذا الغياب الطويل ، وتسحبني من فتحة القن وأنا أرفرف بقصائدي وأوراقي وتعدني للغداء أو العشاء . ثم :

في القرية يقولون لي مكانك ليس هنا .

في المدينة يقولون لي مكانك ليس هنا .

في الوطن يقولون لي مكانك ليس هنا .

وفي المنفى يقولون لي مكانك ليس هنا .

أين مكاني إذاً؟ في الفضاء!

في مرحلة الفطام ، وأنا أحبو باكيا ، وراء أمي المنصرفة عني ، وراء الكنس والمسح ونفض الغبار ، كنت آكل كل ما تطوله أظافري الغضة من تراب العتبة والشارع وفسحة الدار . ويبدو أنني أكلت حصتي من الوطن منذ ذلك الحين .

* * *

بعد نظر

لم يعرف حتى الآن السر أو اللغز الذي يجعل المرأة تستحلي كل ما تريده وتقتنيه بنات جنسها :

آه ما أحلى هذا السوار سأشتري واحداً مثله .

آه ما أروع هذا "المانطو" ، سأوصي على واحد مثله فورا .

حتى لو رأت حكما بالاعدام على صدر جارتها ، لسألتها على الفور : آه ما أحلى هذا الحكم . عند أي قاض فصلته؟ سأفصل مثله .

شهرا كاملا قضيت وأنا أقلب طول الليل "كاتالوجات" غرف النوم العصرية . وشهرين وأنا أذهب وأجيء أمام معارض المفروشات لأقارن على الطبيعة بين ما شاهدته في الصور وبين ما هو معروض في الواجهات ، وذلك لأن زوجتي رأت في يوم من الأيام عند احدى صديقاتها في بيروت غرفة نوم طابت لها وتريد مثلها ولو بعت الذي فوقي والذي تحتي .

وعندما علمت ما هو الثمن صرخت : لا والله لن تدخل بيتي بمثل هذا السعر . ثم من يدفع مبلغا كهذا ثمناً لغرفة نوم؟ كيف سيواتيه النوم بعد ذلك؟ ثم كيف تسمحين لنفسك . أو كيف يسمح أي منا نحن أبناء هذا الجيل لنفسه بالنوم والاستعمار مستيقظ في كل مكان؟ ثم نحن العرب هل استيقظنا في الأصل حتى ننام؟ ان ما نحتاجه

ليس غرف نوم بل غرف استيقاظ .

مـرايا لرؤية الوجـه الممـزق والشـرف المثلوم لهـذه الأمـة . أغطيـة وشراشف لستر عيوبها السياسية وادارتها الاجتماعية ومخازيها الفكرية والثقافية والايديولوجية . ان الأمة التي تنام كما يقول "برتراند راسل" هي أمة لا يحق لها حمل هويتها والانتساب الى ماضيها .

ثم قرأت لها شعرا مؤثرا عن شعوب نامت دهوراً في العراء حتى تحرر نفسها ، وانه لا يمكن الجمع بين الخندق وغرفة النوم . بين البندقية وعلاقة الثياب . بين الكفن وفساطين السهرة . وعندما سألتها إن كانت معي في ما أقـول أم لا؟ قـالت نعم ، نعم . . . أنا مـعك سيـاسـيـا واجتماعيا ، ولكنني أريد غرفة النوم هذه .

وبعد الاتصال بفقهاء الشرع والموبيليا اتضح لي أنني أمام خيارين لا ثالث لهما : طلب الطلاق أو طلب قرض من البنك .

عندما تقصد أية دائرة مالية في أية دولة عربية ، تقدمية كانت أم رجعية ، مع كامب ديفيد أم مع جبهة الصمود ، مع الثورة الايرانية أم ضدها . تنفتح أمامك كل الأبواب اذا أردت أن تدفع . وتنسـد كلها اذا أردت أن تقبض .

فـفي الحـالة الأولى يعـمل كل شيء للتـرحـيب بك ، وتسـهـيل مـهمتك ويهب جميع الموظفين والعمال والمستخدمين لاستقبالك وارشادك والتلطف معك كأنك في مطعم سويسري .

وفي الحـالة الثـانيـة ، أي عندما تريد أن تقـبض ولو تعـويضـا عن ظهرك المحطم أو فخذك المكسور في اصابة عمل تنعكس الآية وتنقلب الصورة عـاليـهـا وسافلهـا : المصـعـد مـعطل . والموظف المختص غـائب . والذي ينوب عنه مأذون . والموظف الذي كان يجمع ويطرح ويقسم في

حالة الدفع الأرقام الألفية في لمحة بصر ، تراه في حالة القبض يدّقر عند الخمسة وخمسة ويحك وراء أذنه ، ويلحمس على رأسه ويفك ربطة عنقه كأنه يعالج أزمة الرهائن .

وبعد أن أحرزت النصر تلو النصر بجلدي وصبري ،وملأت الاستمارات ولصقت الطوابع ، ودبرت الكفالات أخذت القرض وأخذت زوجتي ونزلنا الى السوق لشراء غرفة النوم إياها .

وفي الطريق قالت زوجتي بحماس وهي تتأبط ذراعي من الناحية التي يوجد فيها القرض : لا أحد كاللبنانيين يعرف كيف يعيش . بيوتهم أسواقهم ، بضاعتهم ، أناقتهم ، انهم ينهلون من الحياة ويغرفون منها غرفا - بينما بقية العرب لا يعرفون كيف يعيشون ولا كيف يموتون .

آه لو رأيت غرفة النوم تلك بأدراجها ومراياها وزخارفها . . لقد رأيتها منذ عام ١٩٧٤ ، ولم أنسها حتى الآن ، ان اللبنانيين بعيدو النظر وبارعون في الحياة . سهر وسفر ، وحفلات ومطاعم وكازينوهات ، ومن الآن وصاعدا سنعيش مثلهم . سنسهر مثل سهراتهم . ونسافر مثل أسفارهم . ونملأ برادنا مثل براداتهم . انهم يعرفون كيف يستفيدون من كل شيء ويستغلون كل شيء لسعادتهم وسعادة أطفالهم . انه ذكاء وبعد نظر .

وعلى أحد الأرصفة كنا وجها وجها لوجه مع صديقة زوجتي ، التي رأت عندها غرفة النوم ، مع أطفالها وزوجها يجلسون على حقائبهم لا يعرفون أين يبيتون ليلتهم .

* * *

برقية مستعجلة

فلاح من ريف هذا الوطن ذو نظرة مستقبلية صائبة تجاه التضخم المالي وأزمات الاستهلاك المعاصرة . وملتزم بنداءات الأمم المتحدة منذ اثني عشر عاما بضرورة تحديد النسل في الدول الفقيرة ولذلك لم ينجب لها سوى اثني عشر ولدا فقط ، وهو متردد بين البقاء في قريته أو الحضور الى دمشق او الاغتراب خارج الوطن ، وما إن وقفت دمشق على حاله حتى أبرقت له تقول :

بالاحضان يا بني بالاحضان ، وذراعاي ممدودتان من القطيفة الى كفرسوسة لاستقبالك ، أعرف سبب ترددك : أزمة المرافق العامة في العاصمة . انها شائعات مغرضة لا تصدقها يا بني ، فكل العقد المعروفة بأزمة السكن والسير والغاز والهاتف قد حللناها . ولم يبق عندنا غير "عقدة أوديب" وقد شكلنا لجنة باشراف الادارة المحلية ، لدراستها وتقديم التوصيات اللازمة لحلها .

بالنسبة للسكن ليست هناك أية أزمة حقيقية ، اذ هناك أكثر من عشرة آلاف شقة فارغة على أحدث طراز ، وبما أنك من الشعب ، وكل شيء ملك للشعب كما كنت تسمع في البيانات ورسائل المحافظات ، ما عليك إلا أن تتقدم بكل شجاعةوتقول هذه الشقة أو هذا الطابق لي ، حتى يطبق عليك صاحب البناء وبعد نصف ساعة تكون متربعا

في أقرب مستشفى وميزان الحرارة في فمك ، وتروي قصتك لمن حولك بالاشارات .

أما بالنسبة للمواصلات فتأكد انك تستطيع الوصول الى أية دائرة أو جهة رسمية ببطاقة توصية صغيرة ، وهي وان كانت مفقودة لكثرة الطلب عليها ، فقد يصار قريبا الى بيعها بشكل رسمي على مداخل البنايات والمؤسسات كالطوابع والتقارير الطبية .

أما مشكلة الطعام فلا تعرها اهتماما . فبعد أسبوع من ترددك على الدوائر الرسمية وسماعك الكلام الحلو من هنا والوعود المعسولة من هناك سيصير معك "سكري" وهذا المرض بطبيعته يفرض "ريجيما" قاسيا لا يجوز معه التخبيص في الأكل والاكتفاء بالفاكهة فقط ، وهذه أمرها سهل اذ بوقوفك ساعة أمام الادلة القضائية وساعة أمام الفرن وساعة أمام المؤسسة الاستهلاكية ففي خلال اسبوع يصير معك "دوالي" في ساقيك ، وبذلك تكون قد أمنت الفاكهة صيفا واليبرق شتاء .

أما لمنع الضجر في فترات ما بعد الظهر ، فما عليك الا ارتياد الحدائق العامة والجلوس دون حركة على مقاعدها المريحة ، فبأقل من أسبوع يصير معك "ديسك" في ظهرك وبذلك تكون قد أمنت الموسيقا والأغاني دون راديو أو مسجلة!

وبعد أن تكون قد حققت كل هذه المكتسبات بجهودك الذاتية ، فمن حقك على الدولة أن تقوم بالترفيه عنك ولو ليلة في الاسبوع ، وبما انك بلا مال ولا اصدقاء ولا تعرف أين تذهب ما عليك الا الانتظار حتى تنتهي نشرة أخبار الساعة التاسعة في التلفزيون وتمط عنقك من أية نافذة مفتوحة على الشارع حتى يقدم لك أحلى

المذيعين والمذيعات كل ما تريد أن تعرفه عن أشهر المطاعم وأطيب المأكولات وأرقى الستريوهات مع آخر ما انتجته المصانع من معاجين اسنان وكريمات وشفرات حلاقة وعطور وكولونيا ومزججات حواجب ومزيلات نمش ، وغير ذلك من المواد الضرورية لتضييع الدول النامية وتطوير اقتصادها .

ولكن بما انك لا تزال ريفيا بكرا لم تدجن بعد ، فلا يمكن أن تفكر برفاهية نفسك وتنسى زوجك وأولادك المنتظرين على الطوى في القرية . ولا بدّ أن ينصرف تفكيرك اليهم وتأمين مستقبلهم ، وحتى هذه المشكلة لها حل فوري في ساحة الامويين أو السبع بحرات أو شارع الثورة حيث الالتزام بقواعد المرور يبلغ الذروة ، ولن تعدم اذا كنت في واحد من هذه الأماكن ، سائقاً ، يسير وكأنه منطلق لتوه من العصفورية ليريحك من مستقبلك ومستقبل أولادك فورا . ولكنك لن تبقى لساعات كما يحدث لضحايا المرور على طريق حمص دون أن يبلغ عنك أحد ، بل ستجد على الفور أكثر من شخص يترك عمله ويقدم لك يد المساعدة ويقول : الحق على الدراجة ، لا والله الحق على السيارة ، لا والله الحق على الشرطي ، لا والله الحق على بائع المازوت . . وهكذا تموت باسما مطمئنا وأنت مغطى بكل هذه الحقائق .

* * *

مستمع لم يخاطبه أحد

كان المسؤول الجديد عن انعاش الريف وتطويره، ينتظر موفده الخاص الى المناطق النائية على احر من الجمر، ولذلك ما إن عاد هذا الأخير من جولته التي استغرقت شهرا، وأطلَّ من فرجة الباب، بثيابه الغبراء، وشعره المشعث، حتى هب لاستقباله مرحّباً بشوق وحرارة.

المدير: اجلس وحدثني عن انطباعاتك على الفور

المندوب: حبذا لو نؤجل ذلك حتى صباح الغد. انني في غاية الارهاق.

المدير: ولكن عليّ ان اعد تقريري الليلة عن هذا الموضوع، والا لما استدعيتك في مثل هذه الساعة من فراشك.

المندوب: سيدي منذ اسبوع لم أنم ساعة واحدة. وأريد أن أنام الآن في هذه اللحظة والا انفجر رأسي.

المدير: تنام والاستعمار مستيقظ في كل مكان...

المندوب: ولكني لا استطيع ان افتح عيني كما ترى. انني، من النعاس. أرى الاستعمار استعمارين، والامبريالية امبرياليتين.

المدير: هل تعتقد ان غيفارا ناضل من اجل فلاحي بوليفيا، هاتفيا من ردهات الفنادق؟ وهل كافحت انجيلا ديفز لتحرير الفلاحين الزنوج وهي قابعة بقميص النوم؟ أبداً. إن الثورة، إن النضال..

المندوب : حسناً حسناً ماذا تريد أن تعرف؟
المدير : الى اين وصلت في جولتك؟
المندوب : الى قرى لا يعيش فيها الجان .
المدير : وكيف الوضع الاجتماعي بصفة عامة .
المندوب : لا طرقات ـ لا كهرباء . وبيوت خربة لا تسمع فيها الا صوت الريح والسعال .
المدير : شيء مؤلم .
المندوب : نساء مرضعات يعملن كالبهائم في الحقول ولا جرعة ماء في نبع أو قطرة حليب في صدر .
المدير : وهنا وهناك نساء لم تعد الواحدة منهن تقبل ان تفض خروق اطفالها الا بمياه "تشيكو" .
المندوب : والذباب في كل مكان ، على الوجوه والطعام والاشجار والرياح .
المدير : وكلها تنقل الميكروبات .
المندوب : وكل العيون رمداء . الاطفال والنساء والطيور . حتى العصفور في بعض القرى يحتاج الى نظارة في آخر النهار ليعرف على أية شجرة بنى عشه .
المدير : ولكن ألم تقرأ لهم خطاباتي عن وعد بلفور؟
المندوب : طبعا .
المدير : ومقالتي عن شجبي للعملية الغادرة في عنتيبه؟
المندوب : بالتأكيد .
المدير : ودراستي المطولة والشهيرة عن دور الفلاحين الاساسي في نجاح كل ثورة وكل نهضة في المجتمع . وانهم منبع الطيبة والحنان

والشاعرية ، وان المستقبل لهم ولاخوتهم العمال في كل مكان؟
المندوب : نعم ولكني لم أقرأها حتى نهايتها؟
المدير : لماذا؟ هل ملّ الفلاحون سماعها؟
المندوب : ابدا لم يغادر احد منهم الاجتماع حتى الخراف والماعز توقفت عن الرعي وراحت تسمع .
المدير : إذاً لماذا لم تكملها؟ لماذا قطشتها ، وتركتهم يائسين مقهورين لا يعرفون أن المستقبل الآتي لهم؟
المندوب : سيدي لأنني ما إن وصلت الى هذه الفقرة وقلت لهم ان الامبريالية تنحسر ، وان الثورة العالمية على الابواب ، حتى جاء كبش ونطحني على فمي .

* * *

ألو... ألو...

مع الأعطال الهاتفية المستمرة وما يرافقها عادة من تشابك في الخطوط والمقاسم حتى في الأحوال العادية ، فما علينا إلا أن نتصور مكالمة تلفونية لا تجري بين شارع وشارع بل بين مدينة وأخرى في يوم عاصف ممطر وما يتخللها من اختلاط بين السائل والمجيب وبين الفصحى والعامية بالاضافة الى ببغاوية بعض مأموري الهاتف في تلبية المكالمات ، ولتكن مثلا إحدى رسائل المحافظات الاذاعية :

المذيع : سيداتي سادتي أهلا وسهلا بكم في هذه الحلقة الجديدة من رسائل المحافظات . معنا الآن على الخط مراسلنا في منطقة الغاب . . تفضل .

سنترال دمشق : لحظة أستاذ . ألو يا حلب . عطيني الغاب من عندك .

سنترال حلب : الغاب ، على عيني لأي محافظة تابع؟

سنترال دمشق : أظن المحافظة حوران .

سنترال حلب : ألو يا حوران عطيني الغاب من عندك .

سنترال حوران : تفضل "الغاب" معك .

المذيع : ألو ، جاهز .

المراسل : جاهز ، في هذه المرحلة الحاسمة . .

المذيع : لحظة . . سيداتي سادتي مراسلنا في الغاب يتحدث اليكم من حوران .
المراسل : في هذه المرحلة الحاسمة التي تمر بها المنطقة العربية ، وأمام التحديات الكبرى . .
سنترال دمشق : خلص؟
المراسل : لحظة . لسه ما بلّشنا .
المذيع : رجاءً باختصار . الوقت ضيّق والبرنامج حافل .
المراسل : على عيني . . وأمام التحديات الكبرى قامت البلدية في مطلع هذا الشهر بافتتاح "حنفية" في الشارع العام ، وقد حضر حفل الافتتاح مندوبون من المحافظة والمجلس البلدي والإدارة المحلية ووزارة الري والإسكان والاتحاد النسائي ومحو الأمية ومندوب عن وكالة سانا ، وقد تناول المدعوون طعام الغداء وشربوا من الحنفية وأعجبوا بها أيّما إعجاب . هذا وقد كلّف المشروع ثلاثين ليرة سورية وكلّفت الحفلة ثلاثة آلاف ليرة سورية . وكان في الأسبوع الماضي . .
المذيع : بسرعة اذا ممكن . الوقت راح يخلص .
المراسل : وكان في الأسبوع الماضي قد أزيح الستار عن "فرن" القرية الرئيسي باحتفال كبير حضره مندوبون عن المحافظة والتموين ، وأمانة السجل المدني . وقد بلغ الانتاج الاولي للفرن "٥٠" كيلو خطابات وخمسة كيلو خبز .
المذيع : عظيم . . عظيم . . ولكن المستمعين يرغبون في معرفة دور الاتحادات الفلاحية والطبقة العاملة في المنطقة .
المراسل : دور من؟ ما عم أسمع . .

المذيع : دور الطبقة . . الطبقة العاملة .
سنترال حلب : ألو يا طبقة .
سنترال الرقة : الطبقة معك .
سنترال الطبقة : اسم الطبقة التغى . صار اسمها ، الثورة . . مدينة الثورة؟
سنترال دمشق : ألو يا ثورة . .
سنترال جريدة الثورة : نعم؟
المذيع : شو عندكم أخبار جديدة تهم العمال والفلاحين وتطوير الريف؟
سنترال الجريدة : عنا . . غموض الشعر الحديث وأزمة النقد في الرواية السريالية . وإنتو شو عندكم ، بهالاذاعة؟
سنترال دمشق : عنا جار . ليل نهار . . مشرّع غليونو .
سنترال حلب : آه يا نونو
المذيع : ألو يا غاب
المراسل : رُزق أمس مراقب المشتل الزراعي مولودة أنثى سماها "الأرض لمن يعمل بها" وقد انتسبت للجمعية الزراعية وباشرت مهامها النقابية فورا . وقد حضر الحفل وفود . . .
المذيع : ألو يا غاب
المراسل : وكان ابن عم عضو الجمعية قد عقد قرانه
المذيع : ما في غير أخبار الزواج والطلاق والأكل والشرب . . مثل أبطال همنغواي . .
سنترال دمشق : ألو يا همنغواي . . احكي مع الغاب .
المذيع : شو أخذك على أميركا رجعني ع الشام . .

سنترال دمشق : الخط مشغول .
المذيع : رجعني على حلب .
سنترال حلب : الخط مقطوع . .
المذيع : يا أخي رجعني عالاذاعة . . راح جن .
سنترال دمشق : ألو يا عصفورية . . معطل .
المذيع : معطل . . مقطوع . . مشغول . . ونحنا بالقرن العشرين؟
سنترال دمشق : الو يا قرن العشرين . . مشغول .
المذيع : أخي رجعني عالقرن الحجري . . ع الجاهلية .
سنترال دمشق : ألو يا جاهلية .
سنترال وزارة الثقافة : نعم مين طالبنا؟

* * *

كشافة العصر

بمناسبة التحركات السياسية الجارية على قدم وساق في مختلف العواصم العربية والعالمية ، لوضع حد لحالة اللاحرب واللاسلم التي تعيشها المنطقة ، تقوم في البلدان العربية حملة واسعة للتوعية الجماهيرية ، القصد منها وضع المواطن العربي في الصورة ، حتى لا يظل بعيداً عما يجري من أحداث تتعلق بمستقبله ومصيره . ولهذا دعا عدد من نقابات العمال ومستخدمي الدولة في الأقطار العربية المعنية أكثر من غيرها بما يجري ، الى اجتماع حاشد تحت شعار "ماذا يجري في المنطقة" وقد تم الاعداد له بمنتهى الدقة والموضوعية والتنسيق من حيث المكان والزمان . وقد لبت جميع الوفود هذه الدعوة حضر كل منها بلباس خاص وشعار خاص يميزه عن غيره . وكل وفد يتقدمه خطيبه الخاص على الشكل التالي :

عمال ومستخدمو وزارة الخارجية ، وكل منهم يضع على صدره مربعا للكلمات المتقاطعة .

عمال ومستخدمو وزارة الداخلية ، وكل منهم يضع في عروته مذكرة جلب .

عمال ومستخدمو وزارة الثقافة ، وكل منهم يضع في فمه زبدة

التجارب الفكرية في العالم .

عمال ومستخدمو وزارة الصحة ، وكل منهم يضع في فمه ميزان حرارة .

أما عمال ومستخدمو بقية الوفود ، فكل منهم يضع على صدره تعليقا صحفيا يمثل وجهة نظر بلده في الاحداث .

وفي بدء الاجتماع وزعت على الحضور مجموعة من الوثائق التي تدين اسرائيل في الأمم المتحدة ومجلس الأمن واليونسكو . وكذلك مجموعة أخرى من الوثائق التي تبين كثافة الجهود الدبلوماسية العربية التي بذلت لتغيير الموقف الاميركي من أزمة الشرق الأوسط ، وحث أوروبا لتأخذ دورها أيضا في هذه الأزمة .

قد بدأ الاجتماع بحماسة لاهبة وتصفيق حاد من الحضور .

الخطيب الأول : أيها الأخوة المواطنون . انكم تلاحظون ولا شك الجهد المبذول على الساحة العربية والدولية لتحريك الأحداث في المنطقة ، ونحن كشعب عربي ، له موقفه وتاريخه .

واحد :

نحن أعز بني الدنيا واعلى ذوي العلا

وأكرم من في الارض ولا فخر .

الخطيب الثاني : وهذه التحركات لن تثمر ما لم نضع نصب أعيننا الابعاد الحضارية والايديولوجية والستراتيجية للصراع الدائر في المنطقة .

واحد :

يا سامر الحي هل تعنيك شكوانا

رق الحديد وما رقوا لبلوانا . .

الخطيب الثالث : قبل الايغال في مثل هذه الامور يجب أن نبدأ البدايات الصحيحة في الفكر والفن والتكنولوجيا .

واحد :

خميس بشرق الارض والغرب زحفه

وفي اذن الجوزاء منه زمازم .

الخطيب الرابع : وهذا لن يتم الا بالثقافة الشعبية المرتكزة على أسس موضوعية .

واحد :

على قدر أهل العزم تأتي العزائم

وتأتي على قدر الكرام المكارم .

الخطيب الخامس : لقد شبعنا مَن العموميات وقد آن لنا أن نسمّي الأسماء بأسمائها .

واحد :

مكر مفر مقبل مدبر معا

كجلمود صخر حطه السيل من علٍ .

الخطيب السادس : أي بمعنى : ماذا يريد السواد الاعظم من شعبنا في هذه المرحلة؟

الخطيب السابع : هذه التساؤلات قد تجاوزها الزمن ، لقد نضج شعبنا ويعرف ماذا يريد .

الخطيب الثامن : هذا مفروغ منه ولكن علينا أن نحدد ماذا يريد؟ "سلم أم حرب؟ حرية أم لا حرية؟ يمين أم يسار؟؟ شعر حديث أم شعر قديم؟ انحياز أم لا انحياز؟"

واحد : أمة العرب لن تموت واننا . . .

الخطيب التاسع : عظيم . والآن ماذا تريدون؟

الجميع : زيادة رواتب .

الشعب على الحديدة

نرجو مخلصين ألاّ يكون التغيير الذي يحلم المواطن بجني ثماره من الوزراء الجدد ، هو مجرد تغيير في فرش صالوناتهم وسكرتيراتهم وموظفي مكاتبهم ، وتعيين بديلا عنهم من الاصحاب والمحاسيب والمقربين . كما ان على الوزراء الجدد ، ألاّ يتوهموا أن المواطن يطلب منهم المعجزات كالتحرير الفوري ، وتحقيق الوحدة العربية ، ودعم الثورة العالمية ، والقضاء على مخلفات الاستعمار في آسيا ، والتمييز العنصري في افريقيا ، بل بات يطالب فقط بالقضايا الصغرى بعد ان كاد يغطيها النسيان بين أرجل القضايا الكبرى .

اذ كيف يطالب بالقضاء على الاستعمار في آسيا وافريقيا ، وهو لا يستطيع القضاء على البرغش في حارته؟

كيف يطالب بحمل مشعل الحضارة والتطور والتحرر والكهرباء في بيته وحارته تنطفىء على عشرين مرة في اليوم؟

كيف يطالب الرأي العام العالمي بتفهم قضاياه ومشكلاته المصيرية والاشفاق على مآسيه القومية والتاريخية وجاره السمان أو اللحام أو صاحب البيت يسلخ جلده ليل نهار .

انها هموم متواضعة كما ترون ، بل وتكاد تكون مخجلة بعد ثلاثين عاما من الانتظار على قارعة الوعود والشعارات .

ولكي يتفهم الوزراء الجدد هذه القضايا والهموم ، عليهم ألا يعتمدوا الوصف الخارجي لها من تقارير المستشارين وانطباعات المهنئين . لأنه لو جئنا بالبحتري نفسه وطلبنا منه أن يصف حالة المؤسسات والدوائر الحكومية عندنا لألقى قلمه بعد خمسة أبيات أمام سيمكس واوراقه أمام افتوماشين ، وقوافيه أمام وزارة النفط وامتطى ظهر ناقته وقفل عائدا ، وهو يحدي الى اعماق الصحراء ، اذ لا بد من معاينة هذه الهموم على الطبيعة .

بكل بساطة لكي يأخذ وزير التموين فكرة بسيطة عما يعانيه المواطن في الحصول على قوته ، ما عليه الا أن يذهب بنفسه للحصول على كيلو خبز من الفرن .

ولكي يقف وزير الداخلية على عقدة المرور الأبدية ما عليه الا أن يعيش عن كثب ما يعانيه سائق السرفيس لمدة ربع ساعة في شارع النصر ، وشرطي السير لمدة عشر دقائق عند السبع بحرات ، وكراكب لمدة خمس دقائق في ميكرو باص ، وبعد ذلك سيرثي لحال الثلاثة كما رثت الخنساء أخاها صخراً .

المواطن يريد من وزير العدل ان يتصور أحد أصدقائه أو أقربائه شهيدا في حرب تشرين ، وعائلته تسكن في بيت بالايجار . ثم فجأة يصدر حكم من المحكمة بالاخلاء ويلقى بهم وبأغراضهم في عرض الشارع ، ماذا سيكون شعوره وهو يرى أرملة صديقه تدق أبواب المحاكم والمحامين ، ولا تعرف أين تؤوي أطفالها وحولها عشرات الآلاف من الشقق الفارغة كقلوب أصحابها؟

يريد الشعب من الوزراء الجدد والقدامى تحقيق مطاليب بسيطة ويومية ، كأن يجتازوا مثلا شارع الثورة لمرة واحدة في حياتهم مشيا على

الأقدام من سوق الخجا الى شارع بغداد بين زوابع الغبار المنبعثة من الجرافات والتراكتورات والدراجات والشاحنات . ثم يعقدوا اجتماعا دون أن ينفضوا ثيابهم أو يغسلوا وجوههم . وأنا على ثقة من أن رئيس الوزراء نفسه لن يعرف وزير المواصلات من وزير سد الفرات .

انها مجرد هموم يومية صغيرة ، ولكن المواطن يطمح الى حلها وتجاوزها بالحاح ، حتى يلتقط انفاسه ويلتفت لقضاياه الكبيرة . وهي لن تحل ما لم تعمل يد القانون علنا ودون كلل في كل الاتجاهات كيد شرطي السير النشيط .

في أوغندا ، جمعوا المحتكرين والمرتشين والمتلاعبين بقوت الشعب ، وساقوهم امام المارة وجلدوهم عراة في الساحات العامة .

ونحن نطالب بالكشف عن أمثالهم في بلادنا وجلدهم على الأقل وهم "بالبيجامات" .

* * *

الميزان

بعد أن قضى الحارس الليلي المتقاعد يوما حافلا بمجادلة التجار والموظفين في الأسواق والدوائر الرسمية حول أمور الحياة اليومية ، شعر بأنه اذ لم يجد من يفضي اليه بدخيلة نفسه ، سوف يستل صفارته التي يحتفظ بها للذكرى ويظل يصفر في الشوارع والساحات حتى يوقظ جميع من في المدينة ليسألهم سر هذا التغير المخيف الذي طرأ عليها وعلى سكانها . ولذلك قصد واحدا من ابنائه الذين انفصلوا عنه بعد الزواج وافتتح له بقالية ناشطة في احد الاحياء السكنية ، لزيارته للاستئناس به والاطمئنان على صحته وتجارته .

واستقبله ابنه المترهل المتورد الخدين بترحاب ومودة ، وسأله عن صحته واحواله واخوته وهو يعمل دون كلل في تصريف الزبائن وتأمين الطلبات لهم .

فقال الأب الأصفر الوجه الغائر الخدين : صحتي لا بأس بها ، ولكن التغير الذي طرأ على الحياة سيقضي على ما تبقى منها . انني مثلا طول هذا اليوم لم أكل لقمة خبز واحدة . والسبب هو أنني أدمنت على ذلك الخبز الذي تنتجه المخابز الآلية . ولقد فرحت فرحا كبيرا عندما أقامت وزارة التموين بعض مراكز البيع للمستهلك في عدد من الشوارع والساحات العامة ولكن المشكلة ما إن انتظم البيع فيها لعدة

أيام حتى بدأت العونطة . مثلا منذ يومين وأنا أمر على المركز القائم في حارتنا ، ظهرا ومساء ، فأجده مغلقا والبائع غير موجود . وكلما سألت عنه ، قيل لي : ذهب الى جامع الايمان لصلاة الظهر . أو ذهب الى جامع الكويتي لصلاة العصر . وأنا أريد أن أعرف : هل المخابز الآلية عندنا تابعة لوزارة التموين أم لوزارة الاوقاف؟؟ ثم هناك أزمة المواصلات يا بني فعندما تكون الشوارع مكتظة بالسيارات المسرعة ، والارصفة مغطاة بالسيارات الجاثمة ، فماذا نفعل نحن المشاة في هذه الحالة للوصول الى بيوتنا واعمالنا؟ هل نطير في الهواء؟

ثم هناك برامج الاذاعة ، الا يكفي المواطن ما يعانيه من هموم حتى يكافئونه بتلك الأغاني التي تصيب الانسان بالخبل . مثلا ، كلما ركبت الباص وجلست منهكا مقطبا متجهما افكر بتقاعدي وشيخوختي يطلع لي فريد الأطرش من الراديو وهو يغني "فيه مغناطيس بطلعتك" .

اليوم مثلا جئت بتاكسي مع جارنا ومع ذلك أخذ مني ليرة زيادة عن التعرفة الرسمية . مع انني حملته بين ذراعي الى المستشفى عندما كان صغيرا وسقط عن دراجته الا تذكر؟

الابن : نعم اذكر .

ومرة جرني ماسح احذية صغير من يدي جرا لامسح حذائي . فأخذ مني أكثر من تعرفة الصالون رغم أنه لم يلمع الحذاء بمقدار ما لمع كاحلي وجوربي . وهو ابن جارنا اللحام وطالما أوصلته بيدي الى البيت عندما يكون ضائعا أو خائفا في الليل ألا تذكر؟

الابن : نعم أذكر .

ومنذ مدة ذهبت لمراجعة طبيب حارتنا لألم في بطني ، فأعطاني

روشيتة قصمت ظهري . وهو الذي طالما كنت أحرس عيادته كبيتي . ألا تذكر؟

ثم ألا يكفي أن تكاليف الحياة ارتفعت ، فان اسعار الموت ارتفعت ايضا يا بني . فحتى القراءة على أرواح الموتى ارتفعت الى الخمسمئة ليرة في ثلاث ليال . وانني في مثل هذه السن لأتساءل . اذا مات أحدنا نحن الفقراء أوٍ مات أحد اقربائه أو أولاده فماذا نقرأ على روحه؟ فواتير الماء والكهرباء؟

ثم هناك الغش يا بني : في الخبز ، في الطعام ، في اللباس ، في الطب ومشتقاته . في الصابون ومشتقاته . في الصداقة ومشتقاتها .

ولذلك شعرت اليوم بالخوف من الحياة ومن الموت . ولذلك قلت ليس أمامي سوى أن أزورك ، وأفرغ ما في نفسي من خوف وهموم . ومن ثم انفعك بدلا من أنفع الغريب واشتري بعض الفاكهة والخضراوات للبيت . ولبى الابن طلب ابيه بحركة آلية كواحد من زبائنه الذين لم ينقطعوا طول الوقت ، وهو يهون عليه الأمر . . ولكنه لم ينس ان يغافله خلال الحديث ليهرب في الميزان تفاحةً معطوبةً او ليمونةً مهترئةً .

* * *

الأعراض والتشخيص

دخلت الزوجة مولولةً الى غرفة الطبيب وقالت : زوجي يا دكتور! خرج في الصباح وبراءة الاطفال في عينيه ، وعاد في المساء منهارا من رأسه الى أخمص قدميه وهو راقد الان تحت السرير مثل "صرصار كافكا" ويقول انه خجل مني ومن أطفاله ورفاقه وبلاده ، لأنه انهار في هذه المرحلة ، وانه اذا لم يعالج بسرعة سيشتري ملاءة وحجابا وينتسب للاتحاد النسائي!

الدكتور : هل انتما على وفاق في حياتكما الزوجية؟

الزوجة : كالوفاق بين الدول الكبرى ، اذ لا يخلو الأمر من بعض الحروب الاقليمية لتصريف الغضب وغير الغضب .

الدكتور : وحياتكما المادية هل انتما مستقلان بها؟

الزوجة : تقريبا ، أو بالاحرى كاستقلال الدول النامية حديثا .

الدكتور : هل كان زوجك يشكو من مرض ، علة سابقة؟

الزوجة : أبدا . صحته كالحديد .

الدكتور : كيف قضى الفترة التي سبقت الانهيار؟

الزوجة : كما يقضيها أي مواطن عادي . لقد استيقظ مبكرا كعادته واستمع الى مجمل الاذاعات العربية .

الدكتور : على الريق؟

الزوجة : نعم . ثم ارتدى ثيابه على عجل ، وذهب الى الصالحية لتأمين الخبز ، والى الشعلان لتأمين البطاطا ، والى باب الجابية لتأمين البصل والى المزرعة لتأمين الغاز .

ثم سدد فاتورة الكهرباء في شارع المتنبي ، وفاتورة الفيجة في شارع النصر ، وقسط الجمعية السكنية في شارع العابد ، ثم ذهب الى كراج المحافظات في القابون لتوصيل ضيف عزيز لا يعرف الكراج ، وعاد الى مركز الانطلاق الموحد لاستقبال ضيف اعز لا يعرف البيت .

وفي فترة الغداء طالع الصحف المحلية فقرأ شكاوي الناس في زوايا الرقابة الشعبية ، وردود المسؤولين عليها ، ثم اطلع على اخبار الانتفاضة الشعبية في الضفة الغربية ، والوضع المتأزم في لبنان والوضع المتدهور بين مصر وليبيا والوضع المتوتر بين المغرب والجزائر .

ثم نظر الى ساعته وانصرف بعجل الى الحياة العامة فشاهد معرضا للرسم بعنوان "الرفض والأرض" وبعدها ذهب الى أحد النوادي الثقافية واستمع الى محاضرة بعنوان "الأرض والرفض" ثم ذهب الى مقهى النجمة ليخلو الى نفسه قليلا فرأى على الطاولة جريدة ثقافية فيها قصيدة بعنوان "الرفض من أجل الرفض" ومقالة للاستاذ شوقي بغدادي مع صورة له وهو مقطب ، ومقالة عنه مع صورة وهو يبتسم ، فقرأها جميعا ، ثم نهض وغسل وجهه ويديه وجففهما في الطريق وذهب الى السينما وحضر فيلما محليا من صميم الواقع .

الدكتور : كفى . دعي الرجل يهدأ . ان محمد علي كلاي لو مر عليه في يوم واحد ما مر على زوجك لانهار من أول جولة . سيدتي اذهبي فورا الى البيت وانقلي زوجك من تحت السرير الى المتحف الحربي . زوجك بطل وشهيد من شهداء هذه الأمة . وأنت اتشحي

بالسواد من رأسك الى أخمص قدميك ، وسيري بجلال بين مرافقتين كأرملة الليندي أو لومومبا .

* * *

المفاجأة

مواطن : مساء الخير سيدي الشرطي .
الشرطي : عم مساء أخي المواطن .
المواطن : هل أنت المسؤول عن زج الطاقات في المعركة؟
الشرطي : في المعركة وغيرها .
المواطن : هل لي بدقيقة واحدة من وقتك الثمين؟
الشرطي : لحظة حتى تنتهي نشرة الأخبار .
المواطن : انني في غاية العجلة يا سيدي .
الشرطي : قلت : لحظة ، ألا تراني استمع الى آخر الأخبار؟
الراديو : " . . . ولقد أخذ صراعنا مع العدو أبعادا جديدة في الآونة الأخيرة . على الشعوب أن تتنبه لها ، لقد كانت معركتنا طول الفترة الماضية عامودية والآن أصبحت أفقية" .
الشرطي : هل سمعتم؟ لقد أصبحت المعركة أفقية .
المواطن : أرجوك يا سيدي ، انني في عجلة من أمري .
الشرطي : ماذا تريد؟
المواطن : أريد أن أنتحر .
الشرطي : انتحر . من يقف في طريقك .
المواطن : عفوا . ولكنني سمعت بأن القانون يمنع ذلك . وقد يترتب

عليه غرامة مالية .

الشرطي : ومن الحمار الذي قال لك ذلك؟

المواطن : يعني لا اعتراض على هذه الخطوة ، ولن يترتب على ورثتي أية غرامة؟

الشرطي : بالعكس ، سيرحبون بها ، ويبولون على قبرك إن أردت .

المواطن : يا عيب الشوم!

الشرطي : طبعا ولكن قل لي يا هذا : كيف تفكر بمثل هذه الخطوة في الوقت الذي أصبحت فيه المعركة أفقية؟

المواطن : لأنني يائس من كل شيء عاموديا وأفقيا .

الشرطي : كم عمرك يا بني؟

المواطن : حوالي الأربعين .

الشرطي : هذا سن اليأس عند النساء وليس عند الرجال!

المواطن : كلنا نساء في هذا الزمان يا سيدي .

الشرطي : أنا لا أنكر بأن جيلنا يمر بأزمة . وأزمة خطيرة . ولكن عليه أن يجتازها ولن يتسنى له ذلك ما لم يلعب كل مواطن فيه دوره على الساحة العربية ، مهما كانت العقبات .

المواطن : لقد حاولت يا سيدي ولكن دون جدوى . كل الأدوار ملعوبة .

الشرطي : ولكن المستقبل ما زال رحيبا أمامك وأمام سواك . فالنضال الحقيقي لا يبدأ قبل سن الخمسين ولك في أعضاء اللجان المركزية في الاتحاد السوفياتي والصين ويوغسلافيا ورومانيا خير دليل على ذلك . فابن الخمسين منهم يعتبر في الحضانة ، وفي الستين يعتبر مراهقا ، ولا يبدأ عطاءاته الا في الثمانين وما

فوق ، كما كان الحال بالنسبة لبريجنيف ، وماوتسي تونغ وتيتو .
ان النخبة لا تموت مبكرا ، الشعوب هي التي تموت .
المواطن : شكرا اذ طمأنتني على هذه الناحية .
الشرطي : ألا تقتنع بما قلت .
المواطن : اتخذت قراري وانتهى الأمر .
الشرطي : بأي وسيلة سوف تنتحر؟
المواطن : أمامي عدة خيارات حتى الآن . اما أن أقفز قفزة نوعية من الروشة ، أو بمسدس كاتم للعروبة ، أوفي أسوأ الاحتمالات استمع الى نشرة اخبار كاملةمن احدى الاذاعات العربية . أعرف أنها وسيلة وحشية لا يتحملها انسان ولكنني مضطر للموت . ماذا أفعل؟
الشرطي : من المؤسف أن تتخذ هذا القرار في الوقت الذي بدأت المكتسبات العربية تتوالى . هل تتخلى عنها بهذه البساطة؟
المواطن : ومن قال لك بأنني سأتخلى عنها؟ أبداً : فحصتي من المكتسبات التي حققناها من حرب لبنان سأوصي بها لأرامل ويتامى الحرب في الخليج . وحصتي من المكتسبات التي حققناها في حرب الخليج سأوصي بها لأرامل ويتامى الحرب في لبنان .
وحصتي من المكتسبات التي سنحققها من اللجنة السباعية سأوصي بها الى اللحام .
وحصتي من المكتسبات التي سنحققها من مؤتمر عدم الانحياز سأوصي بها الى البقال . وحصتي من المكتسبات التي سنحققها من قمة فاس ومشروع ريغان سأوصي بها إلى الخبّاز

وصاحب البيت وسواهما . فكل منهم سيصله حقه الى بيته . فأرجو أن تطمئنهم الى ذلك .

أما حصتي من المكتسبات المختلفة التي حققناها من الموقف المشرف من حرب فوكلاند وبولونيا وحوار الشمال والجنوب والحوار العربي - الأوروبي ، ومن نضال شعبنا في الأرض المحتلة ، والارهاب الدولي ، ونضال شعوب آسيا وافريقيا وأميركا اللاتينية وغيرها من النثريات "المتفرقة" فسأوصي بها للجمعيات الخيرية والمؤسسات العامة .

وأما حصتي من الحرية ،والتي لم أستعملها أبدا ، فسأوصي بها الى اتحادات الكتّاب والصحافيين والبرلمانيين العرب والأجانب حتى يلعنوني ، وبجميع اللغات ، في افتتاح واختتام كل جلسة يعقدونها .

الشرطي : هل هناك شيء آخر؟

المواطن : أبداً ، ولكن لي رجاء واحد يا سيدي .

الشرطي : تفضل .

المواطن : لا أريد رثاء أو تأبينا من أي جهة كانت . فأنا لا أريد أن يقف أحد حداداً على روحي في أي اجتماع أو مناسبة ، لا دقيقة ولا ثانية واحدة .

الشرطي : اطمئن من هذه الناحية ، فالعرب كانوا فيما مضى يقفون حدادا على أرواح شهدائهم ، أما الآن فيقعدون عليها .

المواطن : شكرا اذ طمأنتني على هذه الناحية أيضا . وداعا .

الشرطي : موفّق .

المواطن : ألا تريد شيئاً من هناك يا سيدي؟

الشرطي : أبداً ، سلامتك . ولكن اذا مررت بالسادات فقل له ، أو . .
لا ، لا تقل له شيئا ، فمن المؤكد أن الذين سبقوك قد أخبروه بكل شيء .

المواطن : أرجوك يا سيدي لقد تأخر بي الوقت .

الشرطي : كلمة أخيرة . . ألا تغير رأيك وتعدل عن هذه الخطة اليائسة .

المواطن : مستحيل . لقد أعددت كل الترتيبات وانجزت كافة الاجراءات لأغادر جحيم هذا العالم الفاني بأقصى سرعة ، لقد آن الأوان لأرتاح منه ومن مؤتمراته وخطاباته وارهابه وسياطه .

الشرطي : فعلاً ، جيلكم عانى الكثير من الرعب والعذاب والمشاق .

المواطن : ولكن كل شيء سيتم تعويضه في الحياة الثانية ، لأن الفقراء والمضطهدين مآلهم الجنة ، أليس كذلك يا سيدي؟

الشرطي : طبعا اذا كانت حسناتهم أكثر من سيئاتهم .

المواطن : لم أفهم!

الشرطي : لكل انسان سجل بحسناته وسيئاته .

المواطن : يعني "إضبارة"!

الشرطي : تقريبا . .

المواطن : يا الهي . . استغفرك وأتوب اليك . كل انسان في هذا الكون من التراب ، وإلى التراب يعود ، الا الانسان العربي : فمن المخابرات والى المخابرات يعود .

* * *

بعد الاجتياح الكبير القادم

اللجنة : نعم؟

المواطن : أنا فلان الفلاني . .

اللجنة : لا اسم لك .

المواطن : أبي فلان الفلاني .

اللجنة : لا عائلة لك .

المواطن : هذه معاملتي وفيها كل الأوراق والشهادات المطلوبة وعلى رأسها صورتي الشمسية وأنا ابتسم للمستقبل .

اللجنة : لا معاملة لك .

المواطن : أريد أن آكل .

اللجنة : لا خبز لك .

المواطن : أن أشرب .

اللجنة : لا ماء لك .

المواطن : أن أنام .

اللجنة : لا سرير لك .

المواطن : سأعمل خادما .

اللجنة : لا سيد لك .

المواطن : جنديا .

اللجنة : لا معركة لك .
المواطن : حمَّالاً .
اللجنة : لا عضلات لك .
المواطن : بحَّاراً .
اللجنة : لا سفينة لك .
المواطن : متسولاً .
اللجنة : لا عاهة لك .
المواطن : كاتبا .
اللجنة : لا قرَّاء لك .
المواطن : ممثلا .
اللجنة : لا دور لك .
المواطن : متفرجا .
اللجنة : لا مقعد لك .
المواطن : عارض أزياء .
اللجنة : لا قوام لك .
المواطن : راقصة .
اللجنة : لا خصر لك .
المواطن : عاهرة .
اللجنة : لا ماخور لك .
المواطن : إذاً ، سأحزم حقائبي وأسافر .
اللجنة : لا تأشيرة لك .
المواطن : سأقيم في أي مكان .
اللجنة : لا إقامة لك .

المواطن : سأعود بدويا الى الصحراء .

اللجنة : لا قبيلة لك .

المواطن : جملا .

اللجنة : لا قافلة لك .

المواطن : نخلة .

اللجنة : لا جذور لك .

المواطن : حطّاباً .

اللجنة : لا فأس لك .

المواطن : فأرا .

اللجنة : لا وكر لك .

المواطن : سأصير مناضلا .

اللجنة : لا قضية لك .

المواطن : سأقاتل .

اللجنة : لا خصم لك .

المواطن : سأُقتل .

اللجنة : لا قبر لك .

المواطن : سأصرخ في الطرقات .

اللجنة : لا صوت لك .

المواطن : سأدق الأبواب والجدران والنوافذ .

اللجنة : لا قبضة لك .

المواطن : سأعيش على الأحلام .

اللجنة : لا أحلام لك .

المواطن : على الذكريات .

اللجنة : لا ذكريات لك .
المواطن : سأتكىء على أي شيء .
اللجنة : لا مرفق لك .
المواطن : سأهيم على وجهي في الليل والنهار .
اللجنة : لا ليل ولا نهار لك .
المواطن : سأجن .
اللجنة : لا عصفورية لك .
المواطن : سأصير متصوفا .
اللجنة : لا صومعة لك .
المواطن : ماركسيا متطرفا .
اللجنة : لا رفاق لك .
المواطن : مسلما .
اللجنة : لا كعبة لك .
المواطن : مسيحيا .
اللجنة : لا كنيسة لك .
المواطن : يهوديا .
اللجنة : سندرس الموضوع .

* * *

المصباح والفراشة

كانت "صواني" القهوة والشاي والمرطبات وعلب الاسبيرين تدخل ممتلئةً وتخرج فارغةً من قاعة الاجتماعات المغلقة على نخبة من المندوبين العرب توافدوا بكل جدية والتزام لدراسة المشاكل المستعصية التي يعاني منها الوطن العربي ووضع الحلول النهائية لها . وقد انتشرت أمام كل منهم لهذه الغاية الخرائط والوثائق والمعاجم والمستندات ، وأحاط به عن يمينه ويساره ومن ورائه المستشارون والخبراء يوشوشهم ويوشوشونه دعماً لاقتراح أو تحذيرا من توصية . وقد قُطع السير من حولهم وحُظر حتى على سيارات الاسعاف والمرور استعمال أبواقها في تلك المنطقة حرصاً على توفير الجو الملائم لهم وتفادياً لكل ما يشوِّش على محادثاتهم ومناقشاتهم . . بينما كانت أجهزة الارسال المرئية والمسموعة والملموسة والمشمومة مستنفرة لنقل النتائج النهائية لهذا المؤتمر الى جميع أرجاء المعمورة .

وبعد أن أتوا على كل ما في مقهى الوطن العربي من قهوة وشاي ومرطبات وأسبرو وأسبيرين وهم ينتقلون من البند الثاني الى البند الأول ومن البند الأول الى البند الثامن ، ومن مشكلة الوحدة العربية الى مشكلة اقليم الخروب .ومن اقليم الخروب الى التعرفة الجمركية . من التعرفة الجمركية الى مؤتمر جنيف ، ومن مؤتمر جنيف الى

المسلسلات التلفزيونية .

وبعد أن امتلأت أرض القاعة بأعقاب السجائر والأوراق الممزقة . . انفتح الباب فجأة على زائر غريب دخل عليهم كالطيف يتأبط ملفاً أنيق الخطوط بديع الألوان . وقال وهو ينحني أمامهم بكل خشوع وتواضع وثقة :

ـ أنا بحاثة عربي أعاني ما تعانون وأنادي بما تنادون وأحلم بما تحلمون . وقد قضيت زهرة شبابي وكهولتي بين الوثائق والمراجع وكتب المخطوطات مستقرئاً عِبَر الماضي ودلالات الحاضر وتوجهات المستقبل ، أحقق وأصحح وأنقح حتى توصلت الى الحلول النهائية لجميع المشاكل التي يعاني منها هذا الوطن المفدّى من المحيط الى الخليج .

المندوب الأول : حلول نهائية؟

الثاني : ولجميع المشاكل المستعصية؟

الثالث : دعني أراها .

الرابع : دعني ألمسها .

الخامس : دعني أضمّها الى صدري وأشمّها .

الزائر : انها لكم يا اخوتي وأبنائي وما جئت من آخر الدنيا الا لأقدمها لكم ولشعوبكم كهدية .

المندوب الأول : هيّا اطلعنا عليها . هاتها فوراً .

الزائر : تفضلوا .

- هذا هو الحل النهائي لمشكلة الحرب في لبنان .
- وهذا هو الحل النهائي لمشكلة حرب الخليج .
- وهذا هو الحل النهائي لمشكلة الخلافات حول اتفاقيات كامب دايفيد .

● وهذا هو الحل النهائي لمشكلة الخلافات بين صفوف المقاومة .
● وهذا هو الحل النهائي لمشكلة الوحدة العربية .
● وهذا هو الحل النهائي لمشكلة الديمقراطية وحرية القول والتعبير والمعتقد .
● وهذا هو الحل النهائي لمشكلة الطائفية والعشائرية والقبلية .
● وهذا هو الحل النهائي لمشكلة تحرير المرأة ومحو الأمية .
● وهذا هو الحل النهائي لمشكلة هروب الأدمغة العربية الى الخارج .
● وهذا هو الحل النهائي لمشكلة تعدد أجهزة الأمن وتضارب صلاحياتها وتدخلها في جميع نواحي الحياة السياسية والاجتماعية والاقتصادية .
● وهذا هو الحل النهائي لمشكلة الرشوة والتسيّب وسرقة أموال الشعب وتنقيط الراقصات .
● وهذا هو الحل النهائي لمشكلة الفوارق الاجتماعية بين المواطنين والغاء الامتيازات للمسؤولين بحق ومن دون حق .
● وهذا هو الحل النهائي لمشكلة الخطابات والمهرجانات والاحتفالات بمناسبة ومن دون مناسبة .
● وهذا هو الحل النهائي لمشكلة الفقر والمرض والجهل . .
● وأخيراً . . هذا هو الحل النهائي لمشكلة رصّ الصفوف وتوفير الجهد ورأب الصدع وحشد الطاقات لمجابهة العدو فعلا لا قولا .

وهي كلها ، كما ترون ، في هذا الملف الصغير المتواضع أضعها تحت تصرفكم . كما أحب أن ألفت انتباهكم الى أن أنظار الألوف بل مئات الألوف من اللاجئين والنازحين والوافدين والمعتقلين والمهجّرين

والمبعدين والمشردين والعاطلين عن العمل والأرامل والشيوخ والأيتام والشهداء وأنظار آبائهم وأمهاتهم وأطفالهم ، من المحيط الى الخليج ، تتجه نحوكم . كما أن أنظار العالم المتمدن بأسره تشخص نحوكم وتنتظر خطوتكم التالية . . والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

المندوبون : الى أين؟

الزائر : لأبحث عن مكان أقضي فيه ليلي . فأنا غريب! ولا أعرف أحدا في هذه المدينة .

المندوبون : غريب ، وأنت بين أهلك وشعبك وأحبابك؟! لا والله لن تذهب . لقد وصلت الى احضان امك وابيك .

وبعد أن أمطروه بالتهاني على جهوده وأشبعوه مدحاً وتقريظاً لموهبته وأسلوبه وبلاغته ووطنيته ، طلبوا منه الانتظار قليلا في الغرفة المجاورة ، ثم أغلقوا الأبواب على أنفسهم وعقدوا اجتماعا مطوّلاً مع خبرائهم ومستشاريهم دام حتى آخر الليل لاعطائه الجواب النهائي على حلوله النهائية .

وفي الصباح وُجد جثّةً هامدةً على أحد الأرصفة وقد مزّقه الرصاص تمزيقا .

* * *

الصديق الأسود اللماع

مواطن خائف : مساء الخير يا صديقي ، مساء الخير يا رفيق طفولتي وشبابي وكهولتي .

صوت :مساء الخير . ما بك يا بني؟

المواطن : أغثني . خبئني .تبنّاني وأرحني مما أنا فيه .

الصوت : ما الخبر؟ ما بك ترتجف من رأسك حتى أخمص قدميك؟

المواطن : لقد عاد لملاحقتي من جديد .

الصوت : من هو؟

المواطن : الخوف .

الصوت : هل اختلفتما من جديد؟

المواطن : نعم .

الصوت : ما بكما كالأطفال الصغار؟

المواطن : هو المسؤول .

الصوت : أرجوك لا أريد أن أتدخّل بينكما مرة أخرى فأنا أيضاً لي مشاغلي وكرامتي .

المواطن : أقسم لك أنه هو المسؤول . لا يرتبط بكلمة أو وعد أو قَسَم ولا يقيم وزناً لعُرف أو قانون أو اتفاق . لقد سمّم حياتي وهدّ كياني .

الصوت : لِمَ لا تفاتحه في هذا الموضوع وتعرف ما يريد؟
المواطن : لَقد فاتحته ، يريد تدميري ، هذا واضح .
الصوت : هل تحدثت معه شخصياً؟
المواطن : طبعاً . لقد تركته يتقفّى أثري ، خطوةً خطوةً ، في الوطن وفي المنفى ، في البـاص وفي الطائرة ، في المدن وفي القـرى ، في البيت وفي المقهى حتى وصلنا الى أكثر الشوارع العربية صخباً وازدحاماً . وهناك فاجأته بتلك الالتفاتة الغضوب وأمسكت به من ياقة سياطه وخناجره وأمواله وقلت له أمام المارة جميعاً :

ماذا تريد مني يا هذا؟
ماذا تريد بالضبط؟
كلما خرجت من البيت أقول هذه آخر مرة أخرج فيها .
وكلما عدت أقول هذه آخر مرة أعود فيها .
وكلما كنت ظمآناً وشربت أقول هذه آخر مرة أشرب فيها .
وكلما ضحكت لنكتة أقول هذه آخر مرة أضحك فيها .
بل أخلع ثيابي في آخر الليل وأنا أتساءل : وغداً أين سأعلقها؟
أخلع حذائي وأنا أتساءل : وغداً أين سأضعه؟
استلقي على السرير وأنا أتساءل : وغداً تحت أي سقف سأنام؟

فدعني وشأني أرجوك ، فأنا مجرّد فلاح بسيط . وها هي آثار مناجل الحصاد على راحتي ، وآثار حمولة الحجارة على ضلوعي وخاصرتي ، وطمي الدموع على خدَّيَّ . وانني منذ سنين طويلة ، منذ خروج مصر من الجامعة العربية بسبب اتفاقيات كامب دافيد ، ودخول هذه الاتفاقيات بواسطة أفلامها ومسلسلاتها الى كل بيت وحانوت ومقهى في الوطن العربي ، لم أعد أقبض أي شيء بشكل جدي سوى

راتبي . عندما كان لي راتب طبعاً . إذ أن الموظف الجديد يخاف من الموظف القديم . والموظف القديم يخاف من رئيس الدائرة . ورئيس الدائرة يخاف من رئيس الديوان . ورئيس الديوان يخاف من المفتش العام . والمفتش العام يخاف من الأمين العام . والأمين العام يخاف من وكيل الوزارة . ووكيل الوزارة يخاف من الوزير . والوزير يخاف من حاجب .

ثم شرحت له ظروفي الاجتماعية والعائلية والاقتصادية والصحية وبسطت أمامه على الرصيف التقارير الطبية وزجاجات الأدوية التي استعملها وصور أطفالي القصّر وأمي المقعدة وأكواماً من الإيصالات والفواتير والاقساط المدرسية والديون اليومية والشهرية التي عليّ أن أعمل ليل نهار لتسديدها . وأكدت له بواسطة معارفي وجيراني بأنه لم تعد تضحكني نكتة أو تبكيني مأساة أو يهزني حدث أو يشدني مسلسل أو يستوقفني شجار أو تغريني واجهة أو يطربني إطراء أو تستفزني إهانة . وانني لا أريد أن يذكر اسمي في هذه المرحلة ، حتى ولو في برنامج ما يطلبه المستمعون . وانني مستعد للركوع والجثو على ركبتي أمامه ، وأمام المارة جميعاً ، في أية لحظة . ولكن كل ما يمنعني من ذلك هو ضيق بنطالي الشديد عند الركبتين . وانني مستعد أيضاً لأن أوقّع على كل ما قلت أمام جميع مراسلي الصحف ووكالات الأنباء وتحت أضواء جميع تلفزيونات العالم في أي مكان وأمام أي كان ، حتى أمام مؤتمر لوزان نفسه . ومع ذلك لم يرف له سوط في يده أو تختلج دبابة في وجهه ، وأصرّ على ملاحقتي من مكان الى مكان ، كما ترى .

الصوت : ولماذا يستضعفك ويستوطىء حائطك لهذه الدرجة؟

المواطن : لا أعرف ، مع أنني أبرزت له اثنتين وعشرين هوية من

جيبي ، وأوضحت له بشكل لا لبس فيه ولا ابهام بأنني مواطن محترم ولي حقوقي وواجباتي ، تنطفىء عني الكهرباء وتنقطع عني المياه وأدفش في الباص وأُنهر في الدوائر الرسمية ، مثلي مثل أي مواطن عربي من المحيط الى الخليج ، وانني في الوقت الحاضر أشعر بمعاملة خاصة ومتميزة ، فبينما تنطفىء الكهرباء مثلاً عند الجميع لمدة ساعة تنطفىء عندي لمدة ساعتين . وبينما تنقطع المياه عن الجميع لمدة يوم في الاسبوع تنقطع عندي لمدة يومين . وهاتف الشخص العادي اذا تعطّل يتم اصلاحه في شهر ، أما هاتفي فلا يتم اصلاحه في شهرين .

الصوت : ألم تقل له أنك مثقف؟

المواطن : طبعاً . وبصوت مرتفع .

الصوت : وماذا كان جوابه؟

المواطن : لحَّسني مؤخرته .

الصوت : وكيف تسمح له بإهانتك بهذا الشكل؟

المواطن : لم أسمح له طبعاً . ولكن ما إن هممت باستيضاحه عما يعني ، مع أنه واضح كل الوضوح ، حتى مرت دورية ، فهرب .

الصوت : ما هذا؟ حتى الخوف يخاف في هذه المرحلة؟!

المواطن : ولذلك تراني كالسيارة المفخخة لا أعرف أين ومتى أنفجر .

الصوت : ابتعد عني أرجوك .

المواطن : لن أسكت عن هذه الإهانة أبداً . إسمع أيها الخوف العربي الجليل ، يا سليل السيوف والمنجنيقات ، أيها المدجج بكل أموال وأسلحة الأرض ، انني مستعد للتوقيع على هزيمتي واستسلامي بكل لغات الأرض ، ما عدا العبرية .

الرصيف : ما هذا؟ من تهدد وتتوعد؟ ومع من تتحدث عن الثقافة والطفولة والحقوق والواجبات والنصر والهزيمة والمقاومة والاستسلام ومؤتمر لوزان؟!

المواطن : مع كيس القمامة .

الرصيف : بصراحة مرَّ عليّ الكثير لكن مثل هذه الأمة لم يمر عليّ أبداً!

* * *

المدفأة

هو : لا يكفي أن الطقس بارد ، والأحاديث باردة ، والمصافحات باردة ، والقبلات باردة ، والعلاقات باردة ، والخطابات باردة ، حتى صاروا في المطاعم لا يقدمون إلا الأطباق الباردة واللحوم المثلجة .

ثم يسافر وفد من ثلاثة أشخاص الى الخارج ، سياسي أو اقتصادي أو زراعي ، فيرافقه وفد من ثلاثين شخصاً كل نفقات سفره وإقامته وغرامياته وهداياه بالعملة الصعبة من أجل "التغطية الإعلامية" ونصف الشعب في بلده ليس عنده بطانية يتغطى بها في مثل هذا الشتاء القارس .

هي : ويؤكد الخبراء أن العالم سيدخل عصر الجليد عما قريب .

هو : لا يكسر سمّ البرد ـ كما يقولون ـ سوى المطر ، وهناك غيوم ولا مطر .

هي : وأصابع متشابكة ولا حب .

هو : عهد عليّ ، بمجرد أن تسقط أول قطرة على شفاهنا اليابسة وأصابعنا المتشابكة سأغني لك أجمل أغاني الحب والهيام وأولها : "نحنا بنينا ونحنا هدمنا" (لعبد الحليم) .

هي : لم أكن أعلم أن صوتك جميل من قبل .

هو : جميل فقط! سدّي أذنيك واسمعي .
هي : هل تحب تقليد عبد الحليم حافظ دائماً .
هو : تقليده! انني صورة طبق الأصل عنه تماما . كما أننا من جيل واحد .وكل من كان يسمعني أغني في بداية المد الثوري كان يُؤكد لي بأنني سأكون خليفته دون منازع . كل ما كان ينقصني هو البلهارسيا والسد العالي وعدوان ثلاثي .
هي : وجمال الصوت!
هو : المهم السمعة . الخط التقدمي قبل أي شيء . هيا قبليني على سمعتي وخطي التقدمي .
هي : بالله عليك دعنا منك ومن الغناء الآن . ستجمع علينا المارة .
هو : اذن سأرقص . . سأطير . راقبيني .
هي : والى أين ستطير أيها العنقاء العجوز؟
هو : الى الأمم المتحدة ، الى ضفاف النيل ، والميسيسيبي ، والفولغا ، والدانوب ، الى نهر السين ، ونهر التايمز ، ونهر الأولي ، ونهر الكلب لأرى ما يجري في هذا العالم ، من باب أخذ العلم فقط .
هي : اذا بقيت على فضولك هذا ، لن تطير إلا من وظيفتك .
هو : سأجد وظيفة أخرى في اليوم نفسه ، فأنا كما تعليمين مثقف ، وأحمل أعلى الشهادات والمؤهلات ، كما أنني حسن السيرة والسلوك ولا أسرق ولا أرتشي ، وهدفي الوحيد : تحرير فلسطين .
هي : لهذا ، لن تجد عملا في هذه المرحلة في معظم أرجاء الوطن العربي .
هو : اذن ، سأقفز سأركض سأتزحلق . اسنديني .

هي : ألا ترى أنك كبرت على مثل هذه التصرفات؟
هو : وماذا أفعل غير ذلك لأبعث الدفء في عروقي؟
هي : تلجأ الى مكان دافيء ريثما ينقطع المطر .
هو : أي مطر!
هي : انها تمطر منذ ساعة . ألا ترى الميازيب تتدفق والسيول أخذت تتجمع في الشوارع؟
هو : هذا ليس مطراً!
هي : ما هو اذن؟
هو : انه دموع المسؤولين العرب على مصير منظمة التحرير الفلسطينية .
هي : ولكنها ترعد .
هو : لا . هذا فهد بلان يسعل أو يتنحنح .
هي : وهذا البرق الذي يلمع في السماء؟
هو : هذا برنامج أضواء وأحداث .
هي : ولكنك ترتجف من رأسك حتى أخمص قدميك تحت ثيابك المبللة .
هو : أنا لا أرتجف ، بل أتصنع الارتجاف .
هي : لماذا؟
هو : إجلسي لأشرح لك .
هي : هنا على الوحل!
هو : نعم على الوحل . فعندما تصورني الأقمار الصناعية وأنا أرتجف تظن الدول الكبرى الطامعة بنا بأنني جبان وفرائصي ترتعد من تهديداتها . ولكن ، عندما تدق ساعة الحسم وتراني صامداً أمامها كالجلمود ، ستفاجأ وترتبك وتعيد النظر بكل مخططاتها .

هي : انك بعيد النظر جدا .
هو : طبعاً ، أين نظاراتي؟
هي : على أنفك . ألا تحس بها؟
هو : انني لا أحس بأنفي نفسه حتى أحس بها أو بغيرها .
هي : يا إلهي . ان شفتيك مزرقتان . اذا لم تسرع فورا الى بيتك وتأوي الى فراشك سأحملك حملا على ذلك .
هو : وما الذي أفعله في البيت في هذا الزمهرير؟
هي : ما يفعله كل الناس . تُشعل مدفأتك وتجفف ثيابك . أليس عندك مدفأة في البيت؟
هو : لا .
هي : على ماذا تتدفأ اذن؟ على التدفئة المركزية .
هو : لا على الجبهة المركزية .
هي : بصراحة ليس لك في مثل هذه السن سوى الزواج والدفء العائلي . ألا تشعر بفراغ عاطفي؟
هو : وبفراغ أمني أيضاً . ولكن أين هي تلك المرأة الرائدة . المرأة المدفأة التي تلمحين اليها؟
هي : في المكاتب . في البيوت . في الجامعات . في كل مكان .
هو : فعلا ، ولكن المشكلة أن المرأة في هذه الأيام من كثرة ما تشد وترخي بجلدة وجهها ، وما تتلاعب بألوان شعرها ،ومقاييس خصرها وصدرها ومؤخرتها صارت كالمدن العربية من نافذة الطائرة . حدائق ونوافير وأنوار متلألئة . وعلى الأرض أزقة وأوحال وسجون وسكارى ومتسولون .
هي : لا تريد أن تتزوج أو تعود الى البيت أو تدخل الى مقهى ، ماذا

تريد اذن؟ ان تموت متجمدا كالانسان الثلجي؟

هو : لا سأذهب فوراً الى البيت ، بيتي الحبيب .

هي : أحقاً؟

هو : وركضاً دون توقف . وداعاً .

هي : أحسنت . وفور وصولك تبدّل ثيابك ، وتشرب شيئاً دافئاً ، وتقفز الى فراشك متدثراً بكل ما عندك من أغطية حتى تنقضي هذه الليلة على خير .

هو : وماذا أفعل في الليلة القادمة والشتاء القادم والذي يليه والذي يليه؟ لا . لن أتوسد فراشاً ولن ألتحف غطاء ، ولن أتدثر بشيء . بل سأخلع ثيابي كلها وأفتح الأبواب والنوافذ كلها . وأجلس القرفصاء عارياً في إحدى الزوايا وذقني بين ركبتي . فنحن الفقراء في هذا العصر لن تدفئنا سوى حرائق النابالم .

* * *

مدينة المتعهدين

التقت نظراتهما من بعيد لبعيد . هي تأخذ حماما شمسيا على سطوحها المرمرية ، والأخرى تنشر الغسيل المرقع على سطوحها الترابية . رأتها بمنظارها "المبعد" الذي تستعمله للقضايا الوطنية والإنسانية . فرفعت سماعة الهاتف وطلبتها للتعارف بقصد التسلية وتزجية الوقت ، ريثما يحمر جلدها ويصبح برونزيا بلون سيارتها . ولما كانت الأخرى لا تملك جهازا هاتفيا ، فقد وضعت شحاطتها على أذنها كجهاز إرسال واستقبال للتسلية والهذار أيضاً .

المستحمة : ما هذا الذي يلمع على جفنيك وخديك؟

الغسالة : دموع الفرح بحديثك معي يا سيدتي .

المستحمة : دموع . دموع . سمعت بهذا الاسم من قبل .

الغسالة : ما هذه الزجاجات المتناثرة من حولك؟

المستحمة : عطور ومستحضرات للشعر للعنق للاذنين ، ماذا أحصي لأحصي . وأنت ما هذه الزجاجات المتناثرة من حولك؟

الغسالة : شراب للسعال . مراهم للقشب ، بوريك للعيون ، وحبوب للروماتيزم ، برشام للمفاصل . ماذا أحصي لأحصي . انه المرض يا سيدتي .

المستحمة : سمعت أيضا بهذا الاسم من قبل .

الغسالة : من تلك الطفلة المسرحة الشعر ، الموردة الخدين المذهبة المعصمين والمكبة على حل الكلمات المتقاطعة في مجلة تان تان؟

المستحمة : انها جدتي وعمرها ٨٠ سنة . وأنت ، من هذه العجوز المنبوشة الشعر المقوسة الظهر المقرطمة الأظافر والبيضاء السالفين والمكبة على طشت الغسيل؟

الغسالة : انها ابنتي وعمرها سبع سنوات .

المستحمة : أليس عندها لعب؟

الغسالة : كان عندها واحدة . واكلتها من الجوع .

المستحمة : الجوع . . الجوع . . سمعت أيضا بهذا الاسم من قبل .

الغسالة : ما هذه الكتب والمجلات المكدسة هنا وهناك؟

المستحمة : قاموس حواء . منجد بوردا . محيط كريسيتان ديور ، وانت . ما هذه الكتب والمجلدات المكدسة على حصركم وطراريحكم؟

الغسالة : المجموعة الكاملة للخطب التي ألقيت من أجلنا تحت قبة البرلمان ، وقبة السماء منذ الاستقلال حتى الآن .

المستحمة : وبماذا تبحث؟

الغسالة : قضايا الوطن والمواطنين .

المستحمة : سمعت أيضا وأيضا بهذه الأسماء من قبل ، ولكن كثرة اسفاري لا تجعلني اركن لشيء .

الغسالة : أين تقضون الصيف عادةً؟

المستحمة : نيس . كان . أو ضفاف الريفييرا . وانتم اين تقضون الصيف؟

الغسالة : على ضفاف مؤسسة عين الفيجة .

المستحمة : صورة من ذاك الرجل الهزيل المعلقة في الجدار حتى دون اطار؟
الغسالة : صورة زوجي وقد استشهد في الجولان . وأنت ، صورة من ذلك الرجل المعلقة باطار من ذهب في كل غرفةوصالون ومدخل في بيتكم؟
المستحمة : صورة زوجي وقد استشهد في البلو آب .
الغسالة : هل عندكم سيارة؟
المستحمة : واحدة لكل فرد في العائلة . ومن احدث موديل . وانتم؟
الغسالة : عندنا سيارة واحدة للعائلة كلها منذ تأسيسها . وهي سيارة دفن الموتى .
المستحمة : أليس عندكم شجرة عائلة؟
الغسالة : كان عندنا . ولكننا قطعناها حطبا وتدفأنا عليها في الشتاء الماضي .
المستحمة : يا لها من تدفئة مركزية لا مثيل لها .
الغسالة : وأنت؟ أليس عندكم شجرة عائلة؟
المستحمة : شجرة؟ كان عندنا غابة . ولكنها ذهبت في الاصلاح الزراعي .
الغسالة : ولم تعد أبداً؟
المستحمة : طبعا . وكّلنا محاميا بارعا ، فعادت ، وذهب بدلا عنها الاصلاح الزراعي .
المهم . دعينا من هذه الأحاديث التي توجع الرأس . دعينا نتحدث في الطرب . في الفن .
الغسالة : ما هي اغنيتك المفضلة؟

المستحمة : يلبقلك شك الالماس عقود عقود . وانت؟
الغسالة : للصبر حدود .

* * *

زبون آخر الليل

الزبون : اسقنيها بأبي وأمي وخالي وعمي وصهري وعديلي .

الساقي : لقد حان وقت الاغلاق .

الزبون :آخر كأس فقط .

الساقي : ولا قطرة . هيا كل في حال سبيله .

الزبون : ليس لي مكان أذهب اليه .

الساقي : وبيتك؟

الزبون : لقد شربته . . . وسأشرب كل من يخرب عليّ نشوتي هذه ، فأنا الآن سكران قومياً وسياسياً وعقارياً .

الساقي : حسناً ، ولكن بدون احاديث تزيدنا يأسا على يأس .

الزبون : طبعاً . كأس القاء اسرائيل في البحر .

الساقي : ماذا اتفقنا؟

الزبون : طيب .كأس القاء العرب واسرائيل في البحر .

الساقي : هيا ، لا أريد مجانين عندي الآن . فأنا أصلا بنصف عقل .

الزبون : وأنا أيضا بنصف وطن .

الساقي : سأستدعي الشرطة .

الزبون : استدع الأمم المتحدة ، فلن أبرح هذا المكان .

الساقي : وماذا ستفعل عندي في هذه الحانة؟

الزبون : وماذا أستطيع أن أفعل خارجها . لا تستطيع لا أنت ولا أنا ولا أي انسان أن يفعل أي شيء في أي مكان بحرية .

تريد أن تصنع معروفاً مع احد ، تحتاج الى موافقة من وزارة الصناعة .

ان تزرع الثقة في نفوس الآخرين . . . تحتاج الى موافقة من وزارة الزراعة .

ان تخون زوجتك خمس دقائق؟ تحتاج الى اذن من محاكم أمن الدولة .

أن تخرج من جلدك؟ . . تحتاج الى تأشيرة خروج من الدولة .

ثم . أهذه شوارع يمكن لخارج من حانة أن يتجول فيها؟

ثم ، دعنا من الشوارع . أهذه أحذية يمكن التنقل بها؟ انظر ، فالمعروف في كل بلاد العالم المتحضرة والمتخلفة ، المستهدفة من الاستعمار أو غير المستهدفة ، لكل حذاء كعب واحد من الخلف ومقدمة من الأمام الا عندنا نحن العرب فلكل حذاء مصنّع محلياً كعبان : واحد من الخلف وواحد من الأمام ، وكأن المفروض بالمواطن العربي أن يسير على الأقل في اتجاهين مختلفين في هذه الظروف ليصل بأمان الى حيث يريد .

ثم ، ما هذا المجتمع الذي يدعو للتحرر والانطلاق؟

تحب انسانة ما في بلد ما . وتحاشياً للقال والقيل عليك أن تقوم بجولة حول العالم من أجل لقاء . وبجولة مكوكية حول الفم من أجل قبلة .

ثم ، كيف يمكن للمرء أن يحب ويغازل ويدبّل عينيه والمئات يموتون من حوله كل يوم تحت القنابل؟

ثم ، ما هذه التجمعات والتكتلات والأحزاب والميليشيات الحليقة والملتحية التي تنبت كالفطر كل صباح ، ما بين اليوم والثاني تجمع جديد . تكتل جديد . ميليشيات جديدة . أو حزب جديد اسمه اطول من مبادئه ، وعدد اعضاء قيادته أو لجنته المركزية أكثر من عدد اعضائه ، وفجأة تصير له دباباته وطائراته وصحفه وشعراؤه وبطولاته وشهداؤه وتحالفاته وشروطه وقناصته وحرسه وسجونه . وفوق كل ذلك برنامجه الديمقراطي الذي لا يحيد عنه!

ثم ، كيف يمكن للمرء ان يفكر بالحرب أو بالسلم وهو جائع؟ ها أنت ترى من المحيط الى الخليج الأسعار تقفز والمواطن يقفز والى أين سيصلان؟ الله أعلم . ولذلك ، فأعتقد أن هذه هي دورة لوس انجلوس الحقيقية التي على المسؤولين العرب ان يولوها اهتمامهم ويراقبوا نتائجها .

ومع ذلك شكت لي احدى نساء هذا الزمان من ان اكثر ما تعانيه خلال الدعوات والمآدب هو اضطرارها لتحريك فكيّها اثناء تناول الطعام . وانها لا تعرف متى تعود الى البيت لتخلع حليّها وترتاح مما يسببه ثقل اقراط الماس في اذنيها . وعندما ذكرت لي ثمن كل واحدة قلت لها : أنا مستعد ان أعلقها في أذنّي ومعها سوق الصاغة كله . وليقل الناس بعدها ما يقولون . نعم يا صديقي . وبينما ملايين النساء العربيات هنا وهناك يتهافتن على شراء الذهب من عيار ٢٠ و٢٤ فان نساءنا في جنوب لبنان وفي الأراضي العربية المحتلة يتصدين لمدافع عيار ١٢٠ و١٦٠ بصدورهن التي لم يبق فيها سوى العظام .

ثم ، كيف يمكن لأي امرأة أو رجل أو طفل في الوطن العربي أن ينام وينسى تلغيم شواطىء نيكاراغوا وتزييف الانتخابات في

السلفادور؟

والجفاف في افريقيا؟

وسرقة أموال الشعوب في العالم الثالث؟

وحصار القرعون؟

وتجويع النبطية؟

وترويع الأبرياء في مخيمات عسقلان وقالنديا؟

ثم ، لماذا يقيم الاعلام العربي الدنيا ويقعدها من أجل التدخل الاميركي في غرانادا أو أميركا اللاتينية وينسى التدخل السوفياتي في أفغانستان؟

أين الموضوعية؟ أين الحياد الايجابي؟ وبالمناسبة ، أين المطران كبوجي؟ وأين محمود درويش؟ ولماذا خرج من الأرض المحتلة وبقي فيها سميح القاسم وتوفيق زياد؟

وتقول لي لا تشرب؟ سأشرب حتى يسلمني حائط لحائط .

الساقي : أو دورية لدورية .

الزبون : لم أعد أبالي . كأس غيفارا . كأس فرانكو .

الساقي : أريد أن أفهم . هل أنت يميني أم يساري؟ مع الأنظمة؟ مع الشعوب؟ مع الشرق؟ أم مع الغرب؟

الزبون : لا أعرف . في الليل اتعاطف مع الفقراء وفي النهار مع الأغنياء . في الهواء الطلق أعبد كل شعوب العالم . وفي الباصات المزدحمة أعبد فرانكو وسالازار .

في لحظة . . مع الحل السلمي . وفي لحظة . . . مع الحل العسكري .

في منتصف الشهر . . أدعو لحرب عالمية . وبعد قبض الراتب ادعو

لسلام كوني يعم العالم .

الساقي : مشكلتك يا بني انك بلا موقف من أي شيء .

الزبون : بصراحة؟ مشكلتي ليست في انني بلا موقف او بلا بيت . وليست حرب لبنان أو حرب الخليج . ولا أميركا اللاتينية . ولا نيكاراغوا . ولا أفغانستان . ولا اليمين . ولا اليسار . ولا الضجر . ولا الجوع . ولا الأنظمة ولا المخابرات . مشكلتي هي هذه المدينة التي اعطيتها صدري ٤٠ عاما ولا استطيع ان اعطيها ظهري دقيقة واحدة .

* * *

عودة الغائب

الأم : من يقرع الباب في هذه الليلة العاصفة؟

الابن : أنا ، ابنك العجوز يعود اليك بعد طول غياب .

الأم : يا الهي انك مبلل من رأسك حتى أخمص قدميك . ثم ما هذا الشرشف الأبيض الذي ترفعه فوق رأسك؟

الابن : لقد هُزمت يا أمي .

لقد هزمني التجار والسماسرة والمقاولون والمطربون والممثلون والصحافيون . الأفلام الهندية والمسلسلات البدوية وأزمة السكن وأزمة المواصلات وأزمة الطاقة وأزمة المرور وأزمة الأرصفة وأزمة الجدران وأزمة السطوح وأزمة التنفس . لقد هزمني كيسنجر يا أمي .

الأم : هذه ليست هزيمة ، انها نكسة .

الابن : لم يعد هناك مجال للتلاعب بالألفاظ بعد الآن ، وجاء دور الحقائق والأرقام . هل رأيت شجرة يابسة مقتلعة من جذورها تورق وتزهر في الربيع ، أو جثة تجرها الكلاب تبتسم وتحيي المارة في الشوارع؟

الأم : يبدو انك في غاية الارهاق ، وليس لك بعد هذا السفر الطويل سوى هذا الصدر العجوز تسند اليه رأسك وتستريح .

الابن : فعلا ، ولكن أي صدر؟

الأم : صدري هذا ، هل نسيت طفولتك عليه؟

الابن : انساه! ان رائحته لا تبارح رئتي لحظة واحدة وخاصة هاتين الحلمتين الذابلتين ابداً كعيني السنونو عند الظهيرة ، ولكنني لا أستطيع أن ألمسه أو اقترب منه ، فهو بعيد بعيد . .

الأم : لماذا يا بني؟

الابن : لأن بيني وبينه جبالاً وتلالاً وسهولاً ووهاداً . بيني وبينه الحرب العالمية الثانية وسقوط برلين ومحاكمات نورمبرغ . تقسيم فلسطين . جيش الانقاذ . حصار الفالوجة . الاسلحة الفاسدة . ثورة يوليو . وثورة الجزائر . وثورة اليمن . ثورة الشواف . محاكمات المهداوي . الوحدة . الانفصال . أزمة كوبا . معركة خليج الخنازير . الحياد الايجابي . حرب السويس . حرب حزيران . حرب اليمن . حرب تشرين . حرب لبنان . حرب الخليج . حرب التشاد . حلف الاطلسي . حلف وارسو . حلف بغداد . مشروع ايزنهاور . مشروع مارشال . مؤتمر باندونغ . مؤتمر انشاص . مؤتمر الرباط . مؤتمر جنيف . مؤتمر غاسبورو . مؤتمر يالطا . مؤتمر الشعب العربي الدائم . بيني وبينه قوانين طوارىء . أحكام عرفية . منع تجول . مراكز أمن . حواجز تفتيش . طائرات اواكس . محطات انذار . سفن . راجمات صواريخ . مدافع مرتدة . قنابل عنقودية . قنابل انشطارية . قنابل فراغية . قنابل نيوترون .

بيني وبينه جثة عبد الناصر . جثة السادات . جثة تيتو . جثة نهرو . جثة سوكارنو . جثة بومدين . جثة الشقيري . واخيرا جثة اندروبوف .

الأم : كل هذا بينك وبين هذا الصدر العجوز البائس؟
الابن : نعم ، ثم لم أجد أحد نهديك اكبر من الآخر ، وانتِ لست مرضعة من زمن بعيد .
الأم : ماذا تعني؟
الابن : ماذا تخبئين فيه . آلة تسجيل . انها حتماً آلة تسجيل ، وأنا كالمغفل اتحدث واتحدث عن كل شيء .
الأم : هل أنت مجنون؟
الابن : بل اعقل مما تتصورين . ثم ما هذه الأوراق التي تحت ابطك؟
الأم : انها حجاب ليقيك العين وشر الحاسدين يا بني .
الابن : حجاب أم تقارير جاهزة عن اولادك واحفادك؟
الأم : لقد فقدت صوابك حتماً . أم وتشي بولدها وفلذة كبدها؟
الابن : ولِمَ لا؟ لم يعد هناك من يتورع عن عمل أي شيء من أجل لقمته وسلامة رأسه .
الأم : أنت محموم ولا اعتب عليك .
الابن : فعلاً يا امي . دفئيني ارجوك .
الأم : ليس للانسان يا بني في نهاية المطاف سوى صدر أمه المسكينة يسند عليه رأسه ويستريح .
الابن : فعلاً ، ولكن . . لا . انت لست امي . انت اتفاقية سيناء . عقد الاذعان . جبهة البوليساريو . انت نبوخذ نصر . لا . . . لا . انت قاذفة منقضة معترضة . انت طائرة سوبر اتندار . لا تنقضي علي . لا تقصفيني . ارجوك يا امي . فأنا بريء ولم أفعل في حياتي ما يسيء الى شعبي ووطني . اسألي ليالي الشتاء الطويلة . اسألي الحراس الليليين .

الأم : لن اسأل احداً . فأنا خير من يعرفك ، ولكنك تهذي ولا تعرف ما تقول . ما بك يا بني؟

الابن : احب الفقراء والفقراء لا يحبونني .

احب الاغنياء والاغنياء لا يحبونني .

احب السلطة والسلطة لا تحبني .

احب الشعب والشعب لا يحبني .

احب اليمين واليمين لا يحبني .

احب اليسار واليسار لا يحبني .

احب الله والله لا يحبني ، وإلا لما خلقني كاتباً في هذه المرحلة .

* * *

على باب الوزير

غرفة انتظار في دائرة حكومية عربية تغص بالمراجعين الذين جاؤوا من منازلهم وقراهم البعيدةوقد كسا الغبار ثيابهم ونما الشعر على وجوههم ومعاملاتهم المكتظة بالأختام والتواقيع والاحالات .

وبعد أن جلسوا طويلا بصمت واستكانة بانتظار المسؤول الذي لن يأتي ولن يروه أبداً ، ها هم ينهضون ويحومون بنفاد صبر ، والحاجب يسد الباب بقامته ويصدهم بيديه كأنهم نحل مهاجم .

الحاجب : كفاكم جلوسا ونهوضا انتم في دائرة رسمية .

مراجع : دعني أدخل ، أرجوك .

الحاجب : ممنوع .

مراجع : لقد جئتك بباقة زهور .

الحاجب : لا أحب الزهور .

مراجع : انها من الريف .

الحاجب : لا أحب الريف .

مراجع : وأنا جئتك برسالة من صديق .

الحاجب : لا أحب أصدقائي .

مراجع : وأنا جئتك بتوصية ، برجاء من أمك .

الحاجب : لا أحب أمي .

مراجع : من الجماهير .
الحاجب : لا أحب الجماهير ، أنا ثوري لا أحب أحدا ولا أحد يحبني .
مراجع : اذن ، متى سيحضر سعادته؟
الحاجب : لا اعرف ، فسعادته مازال نائما .
مراجع : حتى الآن؟
الحاجب : طبعا ، لقد قضى الليل بطوله ساهرا .
مراجع : على ماذا؟
الحاجب : على قضايا الشعب .
مراجع : هل يشخر المسؤول وهو نائم؟
الحاجب : طبعا ، ولكنه شخير هادف .
مراجع : ومتى يستيقظ؟
الحاجب : لا أعرف .
مراجع : كم الساعة الآن؟
الحاجب : ألا تراها معلقة على الحائط؟
مراجع : ما هذه المدينة؟ الساعات دون أرقام . الأفلام دون ترجمة ، الشوارع دون أسماء ، الحدائق دون رائحة ، المكيفات دون صوت .
مراجع : الشعب نفسه دون صوت .
الحاجب : لقد استيقظ سعادته وهو الآن يتناول افطاره .
مراجع : شكرا لله .
الحاجب : ما أصعب الانتظار .
الحاجب : ماذا تريدون منذ الصباح الباكر؟

مراجع : نريد أن نعرف أي شيء . .
الحاجب : عن ماذا؟
مراجع : عن أي شيء
الحاجب : اذن عليكم بالمزيد من الانتظار ، ولا تقتربوا أبدا من هذا الباب حتى أعود .
مراجع : الآن وقد خلت الساحة ، ما رأيكم لو ندخل الى مكتب سعادته ونتفرج على ما فيه من خفايا؟
مراجع : فيها مسؤولية!
مراجع : أنا سأدخل وأتفرج على السلطة من الداخل ولو كان فيها "مؤبد" .
الجميع : هيا بنا .
مراجع : يا للأبهة .
مراجع : يا للعظمة .
مراجع : يا للسجادة الملتزمة بقضايا الجماهير .
مراجع : يا للثريات الرائعة ، انها حتما من الكريستال ، ومضاءة كلها حتى في النهار .
مراجع : طبعا ، حتى يرى سعادته خلافات المواطنين ومشاغلهم بكل وضوح .
مراجع : ما أجمل هذه الستائر وهذه النوافذ . ولكن لِمَ هي مغلقة دائما حتى في الصيف؟
مراجع : حتى لا تقوم الأقمار الصناعية بتصوير مشاكل المواطنين وخلافاتهم .
مراجع : أنا عندي كل شيء مفتوح في البيت ما عدا البالوعة .

مراجع (وهو يحوم حول الكرسي الشاغر وراء الكتب) : ما أروع هذا المكتب ، وما أجمل هذا الكرسي .

مراجع : ابتعد عنه ، حذار أن تقترب منه .

مراجع (وهو يقفز متربعا على الكرسي) : يا الهي ما أروعه ، انه يدور في جميع الاتجاهات .

مراجع : كسياستنا .

مراجع : افتلوني ، أوقفوني ، لقد دخت ، لا ، افتلوني ، يا للعظمة ، ما أجمل السماء ، ما أجمل الجدران ، ما أجمل السماء ، ما أروع الوطن .

المراجعون : ماذا ترى؟

المراجع : لا أرى أحدا .

* * *

الخلد

الزوج : من يقرع الباب في مثل هذه الساعة المبكرة من الصباح؟
الزوجة : موزع الصحف .
الزوج : لا أريد أن أعرف شيئا .
الزوجة : الفران .
الزوج : لا أريد أن آكل شيئا .
الزوجة : مندوب مصلحة المياه .
الزوج : لا أريد أن أشرب شيئا .
الزوجة : مندوب مصلحة الكهرباء .
الزوج : لا أريد أن أرى شيئا . .
الزوجة : مندوب مصلحة الهاتف .
الزوج : لا أريد أن أكلم أحدا .
الزوجة : ساعي البريد .
الزوج : لا أريد أن أطمئن على أحد .
الزوجة : المحاسب .
الزوج : لا أريد أن أقبض شيئا .
الزوجة : متسوِّل .
الزوج : لا أريد أن أعطي شيئا .

الزوجة : بائع اليانصيب .
الزوج : لا أريد أن أربح شيئا .
الزوجة : قاض .
الزوج : لا أريد أن أعترف بشيء .
الزوجة : صيدلي .
الزوج : لا أريد أن أشفى من شيء . فطول حياتي وأنا أركض وراء الحب ، والصداقة ، والحرية ، وفلسطين ، والقادة ، والأحزاب ، والشعر ، والمسرح ، والصحافة ، ولم أصل الا الى الشيخوخة .
ومع ذلك فالشيخوخة يمكن التحايل عليها بأصباغ الشعر .
والترهل بالرياضة .
والكبت بالصور العارية .
والضجر بالكلمات المتقاطعة .
والخطابات بالتثاؤب .
والضجة باغلاق الأبواب .
ولكن هذا الخوف من كل شيء والذي يسبح في دمي كبيوض الأسماك في أعماق البحار ، كيف يمكن التحايل عليه؟

عندما كنا صغاراً نحفظ القرآن عند شيخ الضيعة ، كلما أقبل العيد كنا نرتدي ثيابنا الجديدة ونتأبط مصاحفنا وننطلق مبكرين الى المقابر لنقرأ الآيات البيِّنات على أرواح الموتى من أبناء ضيعتنا مقابل حفنة من السكاكر البدائية أو قرص من الكعك الذي تنبعث من نقوشه الريفية الجميلة رائحة حقولنا وليالينا بأسرها .

وكان ثمة أمير يصل صباح كل عيد الى مقبرة العائلة على ظهر جواده المطهم . لينشر النقود الفضية على رؤوسنا حفنة اثر الأخرى .

فيبدأ التدافع والعراك والشتائم وسط الغبار وشواهد القبور . ولذلك كنا نحن الصبية الفقراء ننتظره مبكرين على أبواب المقبرة ، كما تنتظر قطط السوق أول لحام يفتح دكانه .

وذات مرة لحقت بقطعة نقود صغيرة راحت تقفز وتكرج على أرض المقبرة الرخامية ، وكنت في تلك الأثناء مستعدا لأن ألحق بها حتى كامب دافيد ، الى أن نزلت أخيرا في أحد القبور المفتوحة حديثا ، فنزلت وراءها دون تردد .

وهناك بين تجاويف العيون المظلمة والأسنان المكشرة والجماجم المتناثرة كنت أشعر بالطمأنينة والأمان والثقة بالمستقبل ، أكثر مما أشعر الآن .

* * *

في غرفة العناية الفائقة

الزوج : ما هذه الخربشة في صحن الدار .

الزوجة : عندك ضيوف . ارتد ثيابك بسرعة .

الزوج : من هم؟

الزوجة : وفد من الصراصير العربية .

الزوج : وفد رسمي أم شعبي؟

الزوجة : لا أعرف .

الزوج : أين رئيس الوفد؟

الزوجة : دعسه أحد المارة في الطريق .

الزوج : وحراسه .

الزوجة : أكلوه .

الزوج : ولماذا اختاروني أنا بالذات .

الزوجة : لأنهم يعتبرونك واحدا منهم .

الزوج : شكرا على هذه الثقة .

الزوجة : اخرج وقل لهم كلمة طيبة ، فهم غاضبون وأعصابهم منهارة تماما .

الزوج : لحظة لأرتدي ثيابي وأحضر أفكاري .

الزوجة : أسرع . ها هي طلائعهم تصل الى العتبة .

الزوج : أدخلوا الى الصالون ، أو تفضلوا الى جانب البالوعة ريثما أجرب الميكروفون .
الصراصير : لا داعي لهذه الرسميات ، فنحن لا نشعر بأننا أغراب .
الزوج : طبعا ، لا غريب بيننا سوى الغاصب المحتل .
الزوجة : بسرعة انهم يتسلقون الميكروفون .
الزوج : حسنا لقد انتهيت .
أيها الزملاء الأكارم ، أيها الأخوة المواطنون ، من هنا ، من قلب العروبة النابض أحييكم وأرحب بكم .
صرصور : . . . وكل هذه القلوب . . . ولا نقطة رحمة على الوطن أو المواطن .
الزوج : أعد الميكروفون . نعم . . تفضلوا ، ماذا تريدون .
صرصور : الا تعرف ما نريد؟
الزوج : طبعا ، فأنا لم أعد أفهم البشر ، فكيف الصراصير .
صرصور آخر : نريد أن نعرف لماذا كل الأطفال سعداء الا أطفالكم .
وكل الغابات خضراء الا غاباتكم .
وكل الشيوخ محترمون الا شيوخكم .
وكل النساء مصونات الا نساءكم .
وكل الشهداء مقدسون الا شهداءكم .
وكل الجباه شامخة الا جباهكم .
وكل الطيور مغرِّدة الا طيوركم .
صرصور آخر : ثم . . . لماذا تكثر جيوشكم وتكثر هزائمكم؟
وتكثر هزائمكم وتكثر أوسمتكم .
وتكثر ثرواتكم ويكثر جياعكم .

ويكثر أطباؤكم ويكثر موتاكم .
ويكثر مهرجوكم وتكثر دموعكم .
الزوج : وما الجديد في هذا الأمر . انها حالة أبدية تعودنا عليها .
الصراصير : ولكنها لن تدوم . الا تسمع الاذاعات؟ الا تقرأ الصحف؟
تفضل واقرأ :
"الروس قادمون" ، "الأميركان قادمون" ، "الانكليز قادمون" ، "الفرنسيون قادمون" ، "الفرس قادمون" ، وأخيرا . . "الأتراك قادمون" .
الزوج : أهلا وسهلا .
الصراصير : وأنتم وحدكم المغادرون .
الزوج : مع السلامة ، ولكن ، الى أين؟
الصراصير : اسأل اسرائيل . فبعد ان تنتهي من توزيع قواتها واعادة نشرها في جنوب لبنان ، ستقوم بتوزيع الأمة العربية ، وإعادة نشرها في القارات الخمس .
الزوج : مستحيل . هذه أمة وليست اشاعة حتى يمكن نشرها هنا أو هناك . اعطني الميكروفون . هات كتب التاريخ ، انها أمة حية وباقية للأبد . . .
الصراصير : تحت الاحتلال .
الزوج : وماذا نفعل اذا كانت كل دول العالم تقف وراء اسرائيل؟
الصراصير : لأنكم لم تقفوا مرة واحدة أمامها .
الزوج : وما العمل الآن؟
الصراصير : الثورة . المقاومة الشعبية ، الكفاح المسلح . ألم تسمعوا بثوار الباسك ، وايرلندا ، وموزامبيق ، والسلفادور والتشيلي

وغواتيمالا . شبابا ونساء ، وأطفالا بعمر الورد يقضون حياتهم في الغابات والكهوف وشعاب الجبال حتى تتحرر بلادهم من كل مستعمر ودخيل . ما الذي يميزهم عنكم؟ بل ما الذي ينقصكم حتى تكونوا مثلهم؟

الزوج : لا شيء طبعاً ، ولكن المشكلة ان كل ثورة شعبية من هذا النوع بحاجة الى غابات وكهوف وجبال وأحراج . ونحن كل بلادنا رمال وصحارى . والجبال التي عندنا بالكاد تكفينا للاصطياف . ولذلك بمجرد أن تتم زراعة الصحراء وتشجير الجبال سنثور . ولذلك ، كما ترون ، فالقضية التي نحن بصددها لها فرعان : فرع نضالي وفرع زراعي .

الصراصير : اسكت . ليس عندكم الا فروع المخابرات .

الزوج : هذا طبيعي ، اذ لا يمكننا تحقيق الحرية قبل تحرير فلسطين .

الصراصير : ولا يمكنكم تحرير فلسطين قبل تحقيق الحرية .

الزوج : طبعا .

الصراصير : لا . فحالة اللاسلم واللاحرب هذه لم تعد تناسبنا .

الزوج : كل ما تريدونه مني للخروج من هذه الدوامة ، أنا حاضر . . مسيرات ، يافطات توعية ، دعاء في الجوامع . . .

الصراصير : هذا ما عندك؟

الزوج : هذا كل ما عندي . فالمهزوم لا ينصر مهزوما . والخائف لا يجير خائفا . والجائع لا يطعم جائعا ، بل أنتم أفضل حالا منا بكثير . فاذا حدث ما تتوقعون في المستقبل ، فعندكم على الأقل بواليع تلجؤون اليها . شقوق أبواب وبرادات وغسالات تختبئون تحتها . أما نحن فأين نختبىء : تحت أقدام المسافرين؟ بين شقوق

القارات؟

الصراصير : ولكننا لن ننتظر حتى يأتي ذلك اليوم . فاذا كنتم أنتم قابلين بالوضع العربي الراهن فنحن لن نقبل . واذا لم تتحرك جماهير هذه الأمة فنحن سنتحرك .

الزوج : ولكنكم مجرد صراصير لا حول لكم ولا قوة .

الصراصير : بقوانا الخاصة ، وبواليعنا الذاتية سننتصر .وداعا .

الزوج : وداعا يا أخوتي . وداعا يا قرون الاستشعار النبيلة . وفقكم الله وسدَّد خطاكم . .

الزوجة : هل تبكي يا حبيبي؟

الزوج : إنها دموع الفرح يا حبيبتي ، عانقيني ، قبِّليني . لقد كنت دائما مؤمنا بأصالة هذه الأمة ، واثقا من أنه لابد أن يتحرك من بين صفوفها شيء ما ضد القهر والذل والاحتلال .

* * *

وفي الصباح . . . كان سرب من الطائرات الزراعية العربية يجوب المنطقة من أقصاها الى اقصاها ويرش البواليع وزوايا البيوت وشقوق الجدران وفضلات المطابخ بأشد المبيدات فتكا وفعالية . . منعا لأي تحرك فيها ولو من الصراصير في هذه المرحلة .

* * *

هذا المطر من ذاك السحاب

العجوز : من يقرع علينا الباب في هذا الصباح اليعربي الكئيب؟
الحفيد : انه كامب دافيد يا جدي .
العجوز : وكيف عرفته يا فتى؟
الحفيد : من هندامه .
العجوز : هل هو انيق لهذه الدرجة؟
الحفيد : كالضفة الغربية في الربيع .
العجوز : صفه يا بنيَّ . ماذا يرتدي بالتفصيل؟
الحفيد : بنطلونا من اليافطات العربية . وقميصا من اتفاقية سيناء . وربطة عنق من عقد الاذعان . وحزاما من المستوطنات . وفي قدميه ينتعل القرارات العربية والدولية ، وفي عروته زهرة المدائن . وعلى رأسه قبعة مائلة كشمس العرب .
العجوز : هذه ثياب عيد ، ثياب سهرة .
الحفيد : وفي فمه يعلك لاءات الخرطوم .
العجوز : وهو مخنث ايضا . ماذا يريد؟ هل سألته؟
الحفيد : نعم . وقال انه قادم لتهنئتك بالذكرى الواحدة والثلاثين لثورة يوليو (تموز) .
العجوز : أي ثورة وأي يوليو في هذا الصباح الباكر .

الحفيد : إنه مُصر على تقديم واجباته في هذه المناسبة .

العجوز : يا للوقاحة ولِمَ يريد التهنئة بهذه الثورة بالذات والعالم الثالث مليء بأمثالها والحمد لله؟

الحفيد : قال كل الثورات بكفة وهي بكفة .

العجوز : قل له لو مر اسمها على لسانه مرة أخرى فلا يلومنَّ الا نفسه . ما هذا الزمان ، لم يبق الا كامب دايفيد وامثاله يهنئوننا بثوراتنا .

الحفيد : وهل كانت ثورة مهمة لهذه الدرجة يا جدي؟

العجوز : طبعا يا بني . ولولا حكم الارهاب الذي دشنته بالمنطقة . والأحكام العرفية ، وقوانين الطوارىء ، وحل الأحزاب ، واغلاق الصحف ، وفرض الرقابة ، ومنع السفر ، وقمع المظاهرات ، وتذويب المعارضين بالأسيد ، وفلان اليوم خائن وغدا بطل ، ولولا أنها قضت على فاروق واحد وخلقت بدلا منه ألف فاروق وخديوي ، وفوقها توقيع الصلح مع اسرائيل ، لكانت أعظم ثورة عربية في العصر الحديث .

الحفيد : وماذا تركت لها إذاً؟

العجوز : وماذا تركت هي لنا؟

الحفيد : تركت لنا ذكرى أول وحدة في تاريخ العرب المعاصر .

العجوز : وآخر وحدة؟

الحفيد : قد تكون تجربة الوحدة مؤلمة سياسيا بالنسبة لك ، ولكن شعريا لابد أنك خرجت منها بالشيء الكثير .

العجوز : فعلا خرجت منها وأنا أكره حتى وحدة البيت في الشعر العربي الحديث والقديم .

الحفيد : إنك لا تنسى الماضي أبداً .
العجوز : من ينسى الماضي لا يؤتمن على المستقبل ، واذا كان أراغون قد سمى أعظم دواوين الحب لديه "عيون الزا" فان ديواني القادم سأسميه "عيون السرّاج" .
الحفيد : منذ ثلاثين سنة وأنت متوقف عند هذا الاسم مع أنه بالمقارنة مع من جاؤوا بعده في الوطن العربي الكبير يعتبر هاويا ، في الحضانة لا اكثر ولا أقل .
العجوز : ولكن تظل له مكانته التاريخية ، فهو المعلم وهم التلاميذ . اسأل كامب دايفيد نفسه .
الحفيد : لقد سألته وقال : كل الجلادين العرب ، تقدميين ورجعيين ، مثل أولاده ولا يستطيع أن يفرق بين واحد وآخر .
العجوز : فلولاهم لما كان له وجود على الأرض العربية .
الحفيد : ولكن ظاهرة العنف في تاريخنا المعاصر لم تكن الا بسبب الصراع العربي ـ الاسرائيلي يا جدي .
العجوز : لا يا بني لست يائساً أو متشائماً من المستقبل ، لأنني رأيت ذات يوم بندقية عربية تبكي في ساحة رمي .

* * *

عاشقان مذعوران

هو : أعـرف من أين ينبع الحب . الدم ، الدمـوع ، نهـر النيل ، التـايمز ، الفولغا ، المسيسبي ، نهر الكلب ، ولكنني لا أعرف من أين ينبع هذا الخوف . آه كم أتمنى لو أضع شـرطيـا كـامـلا في قـارورة مع قطعة من طاغية ، في لفافة قطن ، وآخذهما الى التحليل ، لا أعرف من أين يأتي هذا الخوف؟

هي : الخوف ، انه مجرد وهم .

هو : بل الحـرية وهم ، والأمل وهم ، وكـذلك الشـجـاعـة ، المروءة ، الكبرياء ، الشوق ، الانتظار ، كلها وهم بوهم . والحقيقة الوحيدة المتبقية على الأرض العربية هي الخوف .

هي : في أيةمدينة نحن يا حبيبي؟

هو : ليس مهـمـا ، كل المدن العـربيـة متـشـابهة ، كـالـدحل في جيب لاعب كبير .

هي : أما زلت تحبني؟

هو : طبعا ، أنت والقضية .

هي : والى متى ستظل باقيا على حبي؟

هو : حتى الموت .

هي : قد تموت غدا ، أريد حبا أكثر من ذلك بكثير .

هو : سأحبك حتى تورق قبضات السياط في أيدي الجلادين .
هي : قد تورق وتزهر في أية لحظة من رطوبة الدم والدموع والتوسل .
هو : سأحبك حتى ينطق الحجر!
هي : قد ينطق اذا حققوا معه في بعض البلدان العربية .
هو : سأحبك حتى يوم القيامة .
هي : يبدو أنها ستقوم قريبا ، أريد حبا يطول ويطول . ألم تفهمني!
هو : اذن سأحبك حتى النصر والتحرير .
هي : الآن صدقتك . هذا يكفيني والآن تعال وقبلني .
هو : أخاف أن أقبلك .
هي : اذن اقترب مني .
هو : أخاف أن اقترب من أي شيء .
هي : اذن ابتعد عني .
هو : أخاف أن أبتعد عن أي شيء .
هي : هل ستبقى هكذا الى الأبد؟ في عرض الطريق؟
هو : خبئيني .
هي : أين؟
هو : هنا في جيبك ، في حقيبتك ، بل هنا في صدرك الحنون ، لأبوح لك بكل شيء .
هي : نعم يا حبيبي! تعال . تعال اسند رأسك على صدري وبح لي بكل شيء . أريد أن أعرف عنك كل شيء .
هو : لا . لا . هذا ليس صدرك ، وما فيه ليس نهدان . انهما آلتا تصوير أو تنصت مدورتان باتقان ، ولهما حلمتان للتمويه . حتى جدائلك هذه ، قد لا تكون الا أشرطة تسجيل لكل أسراري .

هي : يا الهي . . الا تثق بأحد؟ ألا تطمئن لانسان؟
هو : لا أعرف ، كأن هناك من استأصل من أعماقنا الثقة والأمان ، كما تستأصل اللوزتان منذ الصغر .
هي : اذن لنلجأ الى مكان أمين نختبىء فيه ونضيع .
هو : أين؟
هي : لنعش على ظهر قارب في عرض البحر؟
هو : هناك أمن السواحل .
هي : تحت خيمة في الصحراء .
هو : هناك أمن البادية .
هي : لنلتجىء الى أحد المعامل .
هو : هناك الأمن الصناعي .
هي : في أحد الحقول والبساتين .
هو : هناك الأمن الزراعي .
هي : لنلجأ اذن الى أحد الكاباريهات تحت الأرض .
هو : هناك الأمن الأخلاقي .
هي : لنعش في صومعة على قمم الجبال؟
هو : هناك الأمن الجوي .
هي : لنلجأ الى أحد الأضرحة أو المزارات .
هو : لا شيء مقدساً عند العرب سوى السلطة .
هي : لنختبىء اذن بين الرعاة والأغنام .
هو : هناك الأمن البيطري .
هي : ليتنكر كل منا بملاءة ، مثل ملاءة نوري السعيد .
هو : هناك الأمن النسائي .

هي : الأمن السياسي ، الأمن النسائي ، الأمن اللغوي ، الأمن التاريخي ، الأمن الفني ، الأمن التشكيلي ، الأمن الفوتوغرافي ، الا يوجد على هذه الأرض مكان بمنأى عن أجهزة الأمن؟

هو بلى ، بلى ، وجدتها . هناك مكان واحد فقط انشغلت عنه تلك الأجهزة ولا تكاد تتذكره .

هي : أين؟

هو : الأراضي العربية المحتلة .

* * *

مريض نخب أول

مريض عادي : أخي جاوز الظالمون المدى .
مريض آخر : اذا الشعب يوما أراد الحياة فلا بد أن يستجيب القدر .
مريض آخر : بيتي بشارع الحمرا غلطان بالنمرة .
مريض آخر : ويها ، تمَّت الوحدة .
مريضة عادية : بدي عريس أسمر عربي ، شرط من المتحدة طلبي .
مريض نخب أول : انتبه ، استعد ، صباح الخير .
مريض عادي : أصبح عندي الآن بندقية ، أصبحت من الثوار .
الطبيب : اما ان تسكتوا ، أو استدعي لكم فيليب حبيب .
الجميع : صمت ، ورعب .
مريض نخب أول : استدع ما تشاء ، مازلت عند رأيي ، صباح الخير .
الطبيب : انتصف الليل ، وتقول ، صباح الخير .
المريض : أعرف ، ولكن أنا كثوري ، لا يجوز أن ارى الا الجانب المشرق من الحياة ، ولذلك يجب أن أرى الظلام نورا ، والغروب فجرا ، والساقية نهرا ، والجوع تخمة ، والتسول سياحة ، والنهب تنمية ، وبناء السجون إعمارا .
الطبيب : والهزيمة نصرا ، والاحتلال تحريرا ، مفهوم ، مفهوم ، من أنت؟ الاسم الكريم؟

المريض : نمر بن صقر بن نسر بن عقاب .
الطبيب : ما هذا الاسم الغريب .
المريض : هذا اسمي الحركي .
الطبيب : واسمك الحقيقي؟
المريض : قطة .
الطبيب : ولماذا تحمل هذه البندقية اذن؟
المريض : لا أعرف ، سوى اننا نحن الثوار الأبرياء ، عندما نجد سلاحا لا نجد أرضا ، وعندما نجد أرضا لا نجد سلاحا ، وعندما لا نجد ارضا ولا سلاحا ، ونريد ان نتصدى للعدو بصدورنا ، يأتي من يبيعها من وراء ظهورنا .
الطبيب : كل هؤلاء المرضى من ضحايا الخطابات ، فلا تزد في طنبورهم نغما بك وببندقيتك . خذها وانصرف في حال سبيلك .
المريض : الى أين؟
الطبيب : الى الجبهة .
المريض : أي جبهة؟
الطبيب : حيث يوجد الأعداء .
المريض : أي أعداء!
الطبيب : ألا تعرف أين كنت تقاتل ومع من؟
المريض : طبعا ، كنت في ارتيريا ، عندما استدعوني الى الصومال ، فرفضت الالتحاق بالمعركة ما لم تحضر جميلة بوحيرد من الأوراس ، وأحمد سوكارنو الى النبطية ، ثم أصبت في السلفادور ، وعولجت في الصين ، واستشهدت في الكونغو ، ثم

مررت في الشوارع ، شوارع القدس العتيقة . . . عفوا دكتور ، انني متعب جدا ، هل تسمح لي بأن أسند رأسي على وعد بلفور ، على مؤتمر الخرطوم؟

الطبيب : نفس الشيء .

المريض : في الحقيقة ، انني مشوش ، عقلي لم يعد يجمع أي شيء ، معي فلتان نضالي في رأسي . وكل ما أذكره وأعرفه ، أنني أحمل البندقية الفارغة بيد ، وغصن الزيتون اليابس بيد ، وأهيم على وجهي من بلد صديق الى بلد شقيق ، في الأوحال في الادغال ، في الكهوف في الجبال .

الطبيب : راجعون . راجعون . . .

المريض : أهلي تبرؤوا مني ، وجيراني تجاهلوني ، ماذا حدث لصلة القربى وحسن الجوار في المنطقة؟

الطبيب : راجعون . راجعون .

المريض : قصدت أحد الفنادق لأنام ، فطلبوا هويتي ، وأنا كمقاتل ، قدمت لهم طبعا بندقيتي ، فلم يعترفوا بها ، وألقوها في وجهي أمام جميع النزلاء . ماذا جرى لحسن الضيافة في هذه المنطقة؟

الطبيب : راجعون . راجعون .

المريض : صدعوا رؤوسنا في الصحف والاذاعات والخطابات ، بالبندقية ، البندقية ، ومع ذلك ما من دولة تقبل بها على حدودها ، أو في فنادقها ، أو مطاعمها . حتى في المدارس والجامعات قدمتها كمصدقة مدرسية ، فلم يعترفوا بها ، ولم يتعاطف معي أحد ، الأساتذة مستمرون في الالقاء ، والطلبة في الاصغاء ، وأنا وبندقيتي على الرصيف . ماذا جرى

للطلاب ، للمعلمين في هذه المنطقة .

الطبيب : راجعون . راجعون .

المريض : اعطني اذنك قليلا يا دكتور . أكثر من ذلك ، عرضت استخدامها كمجرفة في الحقول ، كمطرقة في المصانع ، كمكنسة في الشوارع ، فلم يعترفوا بها . ماذا جرى للعمال ، للفلاحين ، للزبالين في هذه المنطقة؟

الطبيب : راجعون . راجعون .

المريض : اعطني اذنك الثانية يا دكتور : حتى انني مددتها قبل يدي مستعطيا في الشوارع ، فأعرض عني المارة ، وتآمر علي المتسولون ، رفاق الأسمال والعاهات الواحدة . ماذا جرى للمحسنين ، للمتسولين في هذه المنطقة؟

الطبيب : راجعون . راجعون .

المريض : الكل يريد أن يجهز على الآخر ، ويأكل لقمته ، ويرتدي ثيابه ، وجلده لو استطاع ، ولا صوت يرتفع . حتى ليقال ان حرارة المرضى في المستشفيات العربية لم تعد ترتفع الا خلسة في الليل وبعد اطفاء الأنوار . ما هذا الرعب ، يا دكتور؟

الطبيب : راجعون . راجعون .

المريض : تصور يا دكتور اليوم وأنا مختبىء في أحد البساتين ، والرصاص يلعلع فوق رأسي ، قالت لي تفاحة همسا من على غصنها : أرجوك ، كلني وأرحني من هذه المنطقة؟ ماذا جرى للفاكهة وللخضار في هذه المنطقة؟

الطبيب : راجعون . راجعون .

المريض : والآن معدتي فارغة ، وجيوبي فارغة ، وبندقيتي فارغة ، ماذا

أفعل؟ هل تسمح لي بأن آكل هذه السماعة؟ اني أنام واقفا كالأشجار فأنا فلاح ولا يضيرني ذلك .

الطبيب : راجعون . راجعون .

المريض : أليس من المفارقات العجيبة يا دكتور ، ان المبعوث القادم الى المنطقة لذبح فلسطين ، وتصفية الوجود العربي ، والمستقبل العربي ينام في أرقى الفنادق العربية ، وأنا الذي نذرت دمي لاستعادة فلسطين وحماية الوجود العربي ، والمستقبل العربي ، أنام على الرصيف المقابل لفندقه . أكاد أنفجر .

الطبيب : راجعون . راجعون .

المريض : ثم اذا كان ٩٩ بالمائة من أوراق الحل في المنطقة بيد أمريكا ، والورقة الأخيرة بيد اسرائيل ، فمعنى ذلك أنه لم يبق بأيدي العرب سوى أوراق الرحيل . ولكن الى أين؟ أكاد أجن .

الطبيب : راجعون . راجعون .

المريض : دكتور ، الاتسمع . أكاد أجن .

المرضى (وهم ينهالون عليه ضرباً ولكماً) : يا قليل الوجدان يا عديم الاحساس حتى الآن لم تجن؟

* * *

في دائرة المفقودات الشخصية

موظف : كل من فقد حقيبة أو محفظة أو جواز سفر ، فليراجع أمين المستودع . هيا .

مواطن : سيدي أنا فقدت أنفي . فمن أراجع؟

الموظف : تعال انت . ما هذا المنظر الرهيب؟ فعلا أين أنفك وعيناك وأذناك وحواجبك؟ مع من تشاجرت؟

المواطن : مع المرآة .

الموظف : ان هيئة الاجرام واضحة عليك .

المواطن أبدا يا سيدي . فأنا ضعيف ومسالم كالهواء .

الموظف : اذن ما هي ظروف الواقعة وكيف حدثت؟

المواطن : سيدي ، لقد فقدت أرضي في حرب ٤٨ وأهلي في حرب السويس وتفاؤلي في حرب حزيران ، وتشاؤمي في حرب تشرين ، وعقلي في حرب لبنان .

ثم فقدت القدرة على التعبير في المسائل الأدبية ، وعلى الايضاح في المشكلات السياسية ، وعلى الحب في الاجتماعات النسائية النضالية .

ثم فقدت هيبتي في البيت ، ونقودي في المقامرة ، وسمعتي في الحانات ، وأصدقائي في الملمات . ولم أشك . ولم أتذمر . وأغلقت

بابي دون العالم بأسره . وقلت : ليتخل عني الجميع فلن أبالي . تكفيني ملامحي هذه ، واستسلمت للنوم وأنا أتلمسها بشوق وحنان كما يتلمس الضرير جدران حارته وبيته القديم .

وفي تلك اللحظة بالذات استيقظت على حركة تنقلات واسعة في وجهي . فمي مزموم الى الأسفل ، وأنفي منكمش الى أعلى ، واللسان ملتصق بسقف الحلق ، والجبين مكان القدم ، والقدم مكان الجبين ، والعين اليمنى تبتعد عن اليسرى ، والأذنان تتحركان في جميع الاتجاهات بحثا عن ملجأ تحت الياقة أو شعر القذال وكأنها جميعا تتوقع حملة مداهمة بين لحظة وأخرى .

الموظف : ومتى حدث ذلك بالضبط؟

المواطن : بصراحة ، يوم اجتماع وزراء الداخلية العرب مؤخرا . ولقد قضيت الليل بطوله أهدىء من روعها وأحثها على التجلد والصمود ، وإعادة الثقة بالنفس وبالمستقبل ولكن دون جدوى . اذ منذ صباح اليوم التالي أخذت أضراسي تؤلمني وعيناي تحرقانني ، وصدري يزفر وأنفي يسيل . انها حرب استنزاف واضحة . وقررت الصمود في سريري لمواجهة ما يستجد من تطورات واحتمالات . ولم يطل بي الأمر حتى سمعت وأنا غارق في النوم ، همسات ومداولات ووشوشات مطولة بين الأذن والأنف ، والعيون والحواجب ، والمعدة والفم ، راحت على أثرها تتسلل من اماكنها الواحدة تلو الأخرى حسب خطة مبيتة فيما بينها وتتجمع حول باب الخروج وأصابعها على شفاهها كي لا اكتشف امرها . ولكنني اكتشفته . ونهضت كالملسوع من سريري . انها مؤامرة ، حركة عصيان واضحة ، وعليّ قهرها في

المهد . وحاولت استعمال الهاتف فلم أجد اصابعي ، وحاولت الصراخ فلم أجد حنجرتي ، وحاولت اللحاق بها فلم أجد قدمي . ماذا أفعل؟ هل أفرض عليها الاقامة الجبرية؟ هل احاكمها ميدانيا؟ هل القِّم قلمي بالحبر واقذفها بكل ما تطوله يدي؟ ولكن أين يدي؟ وفكرت : كيف أقدم على ذلك ، وهي اولا وآخرا ملامحي وأمام صمتها واطراقتها العنيدة أمام باب الخروج ، صرخت مستسلما :

اذهبي الى الجحيم . ستندمين عاجلا أم آجلا ستندمين .

فتنحنحت المعدة وردت "باسمهم" جميعا : وعلى ماذا سنندم يا هذا؟ هذه العيون ماذا سترى أكثر مما رأت؟ وهذه الأذن ماذا ستسمع اكثر مما سمعت؟ وهذه الأقدام؟ لو كان عندها ذرةمن كرامة لكان عليها ـ من اول فلقة ـ ان تهرب وتبحث عن مكان آخر ، او حذاء جديد . ثم أنا شخصيا ، على ماذا سأندم؟ ألا تخجل من نفسك يا رجل؟ خمسين سنة . . . حمص ، فول ، شاورما ، وغازات . أهذا طعام كفاح ونضال؟

فصرخت بها : اخرسي أيتها الفاجرة . انت ولا أحد سواك من "غرر بهم وحرضهم" على هذه المغامرة . انت ولا احد سواك . وراء كل فتنة ومؤامرة ومذبحة وخيانة في هذا العالم ، هيا خذيهن جميعا وانصرفن عني ولا تدعنني المح أيا منكن بعد الآن .

وطبعا كان موقفنا انفعاليا لا اكثر ، لانني منذ تلك الليلة لم أعرف طعم النوم وانا أبحث وأسأل وأنقب دون جدوى .

وأكثر ما يقلقني يا سيدي هو مصير ذلك الأنف البائس الأعزل اذا ما تعرض لأية متاعب . وكيف سيتدبر أمره . فاليد تضرب ، والقدم

تهرب ، والعين تغمز ، والاسنان تعض ، والجبين ينطح ، أما هو فماذا يستطيع أن يفعل تجاه أي خطر؟ حتى الاذن التي تبدو بمثل عجزه وفقدان حيلته هناك من يحميها ويدرأ عنها أي خطر . هناك الاذن الداخلية . فالوسطى ، فطبلة الاذن ، فالسائل الصمغي ، فالغضاريف ، فصيوان الاذن ، فماذا تريد أكثر من ذلك؟ حارسا ليليا على مدخلها؟

أريد انفي يا سيدي . أنفي وأذني وكتفي ونقرتي وجبيني ، لقد اشتقت اليها جميعا . فأنا ، كما تعلم ويعلم الجميع ، لا أملك قصورا اوبنوكا أو مصانع لأورثها لأولادي . ليس عندي ما أورثهم اياه سوى هذه الملامح ، أم تريدني ان اورثهم ملامح فيليب حبيب؟ آه تصور يا سيدي لو جاءتني بنت بملامح فيليب حبيب ، وعقل سياسي عربي فمن سيتزوجها؟

الموظف : اسمع . ملامحك موجودة عندنا في المستودع . وسأعيدها اليك مع أنفك ، بشرط ان تقنعه بالتعاون معنا . فهو بحكم موقعه الاستراتيجي في وسط الوجه ، يستطيع أن يمدنا بمعلومات جلى في هذه المرحلة . . العين ماذا ترى ، الفم ماذا يقول ، الأذن ماذا تسمع ، اليد ماذا تقبض ، الأقدام أين تذهب . . . الخ .

المواطن : سيدي ، انه انف وليس طائرة أواكس .

الموظف : لا عليك ، سندربه ونزوده بمخاط سري لهذه الغاية .

المواطن : لا أظنه يقبل بهذه المهمة . فهو امي وخجول وشاعري ايضا . هل تعرف ماذا قال لي قبل الرحيل؟ قال : ارجوك ، اذا ما جاء الربيع في غيابي فقل له بأنني انتظرته طويلا ولم يأت ، اعده اليّ سيدي أرجوك .

الموظف : اكاد أنهض واجدعه . لماذا تصر عليه هو بالذات كل هذا الاصرار؟

المواطن : أريد أن أتنفس يا سيدي .
الموظف : الشعب العربي كله لا يتنفس ، فلماذا تريد انت هذا الامتياز؟
المواطن : وماذا أفعل الآن؟
الموظف : انصرف ولا تراجعني بهذا الموضوع او سواه أبدا .
المواطن : والى أين أذهب وأنا مجرد هيكل عظمي كما ترى؟
الموظف : الى إحدى المستشفيات ، حيث سيعلقونك في قاعة التشريح ، وضمن اطار طبعا . . كي يستفيد منك الطلبة في دروسهم التطبيقية .
المواطن : شكرا على هذه النهاية .
الموظف : لا شكر على واجب .
المواطن : سؤال آخر يا سيدي : هل يمكن ان تعيد إليّ ملامحي القديمة ذات يوم؟
الموظف : في هذه المنطقة لا شيء يذهب ويعود سوى الأمريكان . هل تسمح لي بسيجارة؟
المواطن : عفوا سيدي ، بيدك واحدة ، وامامك اثنتان .
الموظف : لقد نسيت . ونسيت أن أسألك يا هذا ، كيف تكلمني وأنت دون حنجرة ، وتتنفس دون أنف ، وترى دون عينين؟
المواطن : من الشائع يا سيدي ان الديك المذبوح لتوه يمشي بضع خطوات بشكل طبيعي قبل ان يلوي عنقه بين جناحيه وينطرح ارضا . وأنا لا أتكلم باسمي كانسان او كديك ، بل اهذي كدجاجة على هيئة أمة ، تمشي خطواتها الأخيرة قبل ان تلوي ماضيها وحاضرها ومستقبلها بين سياطها وميكروفوناتها وتنطرح ارضا بين قدمي الشرق والغرب .

في قطار يجري أو طائرة تحوم

لا
هذه الأرض ليست ارضي
وهذه البحار ليست بحاري
وهذه الاعلام ليست اعلامي
وهذه الأناشيد ليست اناشيدي
وهذه الحدود ليست حدودي
وهذه الجيوش ليست جيوشي
وهؤلاء الاعداء ليسوا اعدائي
وهؤلاء الاصدقاء ليسوا اصدقائي
وهذه الانتصارات ليست انتصاراتي
وهذه الهزائم ليست هزائمي .
ما هذا؟
الشمس تشرق
الربيع يطل
الفراشات تحوم
النسيم يهب

الينابيع تتدفق
البجع يطير
الحمام يهدل
الغزلان تقفز
السنونو يهاجر
السنونو يعود
المسرح يتطور
السينما تزدهر
المعارض تقام
الموسيقا تصدح
المتاحف تزدحم
الطب يحقق المعجزات
السياح يتضاحكون
الاقمار الصناعية تطلق
الاقمار الصناعية تستعاد
والمختبرات الفضائية تصل الى الزهرة والمريخ والمشتري وعطارد
ونحن غارقون في :
فلان سني
فلان شيعي
فلان درزي
فلان علوي
فلان قبطي
فلان اسماعيلي

فلان شافعي
فلان حنبلي
فلان سرياني
فلان تركماني
فلان من هذه العشيرة
وفلان من تلك القبيلة
وهذا من تلك الفخذ
وذاك من ذلك البطن

حتى لأشعر بأنني انتمي الى القوارض الخشبية والتجمعات الحشرية اكثر مما انتمي لهذه الأمة .

فنحن ، الوطنيين الوحدويين ، الوحيدين الابرياء الذين لا فخذ لنا ولا بطن ولا رقبة ولا كاحل في هذه القبيلة او تلك العشيرة . ولا طائفة لنا الا هذا الوطن من محيطه الى خليجه . . ماذا نفعل؟

هل نحمل صغارنا من رقابهم باسناننا كالقطط المطرودة من منازلها وندور بهم من مكان الى مكان .

أم ننصب لنا ولهم خياما وراء هذه الحدود أو تلك ونسأل الرائح والغادي عما جرى ويجري في اوطاننا .

لا

فهذه الأرض هي ارضي
وهذه السماء هي سمائي
وهذا التخلف هو تخلفي
وهذه الأمة هي أمتي
والدين ليس ايرانيا ولا ايطاليا

ومـا من عـربي او اعـجـمي يمثل شـعـرة في رأسي بعـد الآن إلا بالحرية . ولن ابالي .

فلن اجوع اكثر مما جعت ولن اتشرد اكثر مما تشردت
ولن اهان اكثر مما اهنت
ولن اسحق اكثر مما سحقت
وسأظل حفرة في كل طريق
وخريفا في كل غابة
وظلاما في كل شارع
وانينا في كل عرس
وضحكة في كل مأتم
وتثاؤبا في كل مهرجان وسأبرز في كل مناسبة ودون توقع كالشبح
كـموجز الانبـاء وسط مـسلسل مـشوق . . حـتى تسـتـقـيم الأمـور
وتستقيم هذه الأمة لأجيال جديدة وافكار جديدة
تحيل كثرتنا قلة
وكرمنا شحا
وثرثرتنا صمتا
وثرواتنا تسولا
وتنتصر

* * *

أين تسهر هذا المساء

لو قررت تلبية جميع الدعوات الرسمية التي وجهت إليّ بمناسبة أعياد الميلاد ورأس السنة لما انتهيت منها حتى السنة القادمة . ولذلك اعتذرت عنها جميعاً خوفاً من ارتفاع نسبة الكوليسترول والأسيد بوريك . مع أنها كلها دسمة ومغرية ولا تُفوّت كما ترون :

دعوة عاجلة لاسقاط اتفاقية كامب دافيد . اللباس الرسمي : (يافطة مع بابيون) العشاء : (مقررات مؤتمر بغداد) .

دعوة عاجلة للوقوف الى جانب الثورة الأفغانية . اللباس الرسمي : (قلبق) والعشاء : (مقتطفات من جريدة البرافدا) .

دعوة عاجلة لمساندة الثورة الايرانية . اللباس الرسمي : (عمامة) والعشاء : (سلطة بيانات عن الرهائن) .

دعوة عاجلة لمؤازرة الشعب الفلسطيني . اللباس الرسمي : (مختلف الألوان) والعشاء : (جنوب لبنان) .

دعوة عاجلة لدعم حركات التحرر الافريقية . اللباس الرسمي : (بالزلط) والعشاء : (ربّاني) .

وبعد أن تأكدت من وصول بطاقات الاعتذار الى أصحابها ، وبعد أن استعرضت في ذاكرتي جميع الأحداث والتطورات التي جرت في

المنطقة في السنة الماضية والسنوات التي سبقتها من كابول الى كامبالا الى قم الى مهاباد ، تأكد لي أنني لا أنتمي الى هذا العالم أكثر مما تنتمي الزنابق الجبلية الى فصيلة البصل في المطبخ . واننا شعوب كوميدية لا أكثر ولا أقل .

وهي بثوراتها وانقلاباتها وبلاغاتها وبرلماناتها وانتخاباتها واقتصادها وانتخاباتها وميكروفوناتها والتزاماتها الدولية والمحلية ، ما خلقت إلا للترفيه عن العالم . وكأن طلائع الثورة العربية الأولى انطلقت من "الكوميدي فرانسيز" . أو كأن "رأس المال" في الأصل لم يكتبه كارل ماركس وانغلز بل نجيب الريحاني وبديع خيري .

آه كم أتمنى لو كانت عيناي على الطراز الصيني أو الياباني حتى لا أرى المزيد من المناظر عاما بعد عام وجيلا بعد جيل :

- نفس الاستعمار . نفس الامبريالية . نفس الصهيونية .
- نفس التهم . نفس السجون . نفس الصراخ والتوسلات .
- نفس الصحف والاذاعات . ونفس المانشيتات والافتتاحيات والتعليقات .
- نفس التهديدات والعنتريات والهزائم .
- نفس الشعوب والمظاهرات والهتافات .
- نفس الوجوه والذقون والأنوف والشوارب .
- نفس الأطعمة . نفس الأمراض . نفس الأدوية . نفس الحمية .
- نفس المآتم . نفس الجنازات . نفس الآيات .
- نفس الضيوف . نفس القهوة . نفس التملق . نفس الشائعات .
- نفس الشرفات . نفس الشراشف . نفس الملاحف . نفس الجيران . نفس المصير .

لا شيء يتجدد على مر السنين سوى أرصدة المديرين في الخارج

وفرش مكاتبهم وسياراتهم وبيوتهم في الداخل .

وقاوم اذا كنت تقاوم . ثلاثون سنة ونحن نلبس ثوب الكذب والذل والمهانة ، دون أن يسمح لنا بإرساله بين الحين والحين حتى الى المصبغة . والكل يكذب على الكل حتى الساعة الناطقة والحمد لله صارت هي الأخرى تكذب . تكون الساعة "تسعة" فتقول لك "عشرة" .

فالى أين يهرب الانسان في مثل هذه الحال؟

الى المرابع الليلية في المدن؟ بحيث تعليق المعطف يكلفك نصف راتبك . والتعليق على حديث قد يكلفك أكثر من ذلك بكثير .

الى الريف؟ لم يعد هناك أي شيء أخضر في هذا العالم . ليس أمامك غير الليل . ليل العروبة الدامس الطويل .

يا إلهي ، لقد انتصروا علينا جميعاً . يا له من "فخ" يتطاير ريش الشعارات والأحلام أمتاراً من فوقه ومن حوله .

في هذه الليلة الممطرة ، وكل ليلة مقبلة ، في هذا الشتاء العربي الرهيب :

الطفل متمسك بدمية .

المريض بدواء .

المؤمن بآية .

السجين بأمل .

القاتل بمسدس .

العاهرة برصيف .

الكلب بعظمة .

وأنا لا أجد ما أتمسك به في هذه الليلة الممطرة وفي وجه جميع المؤامرات الداخلية والخارجية وأمام حلف وارسو وحلف الأطلسي وحلف كامب دافيد سوى مقبض المظلة .

فشكراً للجميع ، شكراً للأحزاب والقوى والحركات اليسارية واليمينية والمعتدلة ، وجميع المفكرين والمنظّرين في الوطن العربي منذ عام ١٩٤٨ حتى الآن .

وشكراً بشكل خاص الى أندرو يونغ والقس جاكسون وجميع الزنوج الذين هبّوا فجأة ، وبحماس منقطع النظير ، لمساعدتنا في أميركا وأفريقيا . فمنذ زمن طويل نتوقع هذه النهاية "السوداء" لقضيتنا .

* * *

يعتبر محمد الماغوط من أبرز الثوار الذين حرروا الشعر من عبودية الشكل. دخل ساحة العراك حاملاً في مخيلته ودفاتره الأنيقة بوادر قصيدة النثر كشكل مبتكر وجديد وحركة رافدة لحركة الشعر الحديث. كانت الرياح تهب حارة في ساحة الصراع، والصحف غارقة بدموع الباكين على مصير الشعر حين نشر قلوعه البيضاء الخفاقة فوق أعلى الصواري. وقد لعبت بدائيته دوراً هاماً في خلق هذا النوع من الشعر، إذ أن موهبته التي لعبت دورها بأصالة وحرية كانت في منجاة من حضانة التراث وزجره التربوي. وهكذا نجت عبقريته من التحجر والجمود. وكان ذلك فضيلة من الفضائل النادرة في هذا العصر.

سنية صالح


ISBN:2-84305-777-X